أبراهام ليون

المفهوم المادي للمسألة اليهودية

1942

تقديم: ارنست ماندل

تعقيب: مكسيم رودنسون وناثان وينشتوك

دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت
الطبعة الأولى 1970
الطبعة الثانية تموز (يوليو) 1973

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم إرنست ماندل

لم تكن فترة السلم والرفاه النسبيين التي عرفتها أوربا الغربية بين عامي 1870 و1914 ملائمة إطلاقا لتكوين ثوريين حقيقيين. فلا يمكن استيعاب المنهج والميراث الماركسيين بشكل صحيح، كي يتخلص المرء تماما من تأثير إيديولوجية الطبقة السائدة، وكي تتركز الإرادة كليا حول هدف واحد هو استيلاء البروليتاريا على السلطة. ينبغي أيضا أن تطلق الحياة بذاتها الناس خارج رتابة وجود «محترم»، وأن تفرض عليهم التجربة المباشرة لكل ما يتضمنه النظام الرأسمالي من تفجر وقساوة وانحطاط وبربرية. ففي بوتقة اللامساواة والحبس والهجرة، ونضال لا هوادة فيه ضد الاوتوقراطية، انصهر جيل البولشفيين الثوري الكبير في روسيا. ولكي يتكون جيل ثوري جديد في البلدان الغربية، توجَّب أن تدخل الإنسانية في أتون فترة الأزمات والحروب والثورات بالذات.

لقد هددت الحروب والثورات سرير أبراهام ليون وأغلقت عينيه فيما بعد. فعندما ولد، دوت خطوات الثورة في شوارع فرصوفيا، مسقط رأسه. وتنازع السلطة فيها سوفياتان متخاصمان. وكان يرتسم في الأفق ظل جمهورية السوفياتات، وتجر الجيوش المنحدرة أسمالها ومرارتها وتعطشها للعدالة ضمن الجمعيات الشعبية. ومن أعماق الإنسانية الأشد عتمة، تدفقت موجات متتابعة على الحلبة السياسية، رجالا ونساء. شيبا وشبان، كل الفقراء والمضطهَدين والمحرومين الذين عاشوا صامتين، حاني الظهور، والذين اكتشفوا فجأة صوتهم. فبينما كان يتقدم العلم الأحمر قريبا جدا في العاصمة المعذبة، كان قد أصبح يرفرف في أعلى الحصن العلم الأحمر والأبيض دو النسر البولوني، يرفعه الفيليقيون الذين يقودهم "اشتراكي " يدعى بيلسودسكي لقد اصطرع هذان الرمزان، هذان التياران الفكريان، الاشتراكية الأممية والاشتراكية–الوطنية البرجوازية الصغيرة، من أجل الهيمنة على الجماهير، بشغف عظيم. ولقد جرت حياة ليون القصيرة والمثمرة جدا كلها تحت تأثير ذلك الصراع.

إن بولونيا التي تمزقت لدى كل مفترق طرق تاريخي، لم تكن تستطيع إلا أن ترتهن الحركة العمالية تحت وطأة هذا الإرث الثقيل لماضٍ بائس، إرث القومية المناضلة. إن يهود بولونيا، ضحايا كل أزمة سياسية واجتماعية، الذين شهدوا المذابح التي أعدت لهم أيام القياصرة، وزمن الثورة، وفي عهود البيض والروس والبولونيين والاوكرانيين والليتوانيين، لم يكن بامكانهم إلا أن يفتشوا عن حل يائس في صياغة أسطورة قومية جديدة هي الصهيونية. أن الطوبى الرجعية، التي تعبر عن الغياب الكلي لمخرج يتزاحم أمامه الفكر البرجوازي الصغير اليهودي، كانت تمتزج مع ذلك لدى الشباب، وخاصة الشباب العامل، بإرادة تحقيق المثال الأعلى الاشتراكي، والمشاركة بنشاط في النضال البروليتاري العالمي. إن التناقض بين طابع الصهيونية البرجوازي الصغير واستنتاجات الأممية الماركسية الصارمة، دفع قياديين عماليين صهاينة إلى صياغة نظرية جديدة تدمج اشتراكيتهم التي أردوها علمية بتطلعاتهم الصهيونية، وتضفي على هذه الأخيرة شبهة تبرير ماركسي. هكذا ولدت النظرية الغريبة التي دعيت **بالبوروشوفية**، تبعا لاسم صاحبها بوروشوف والتي قدّر لها أن تصبح لعشرات السنيين، النظرية الرسمية لمئات الألوف من الاشتراكيين الثوريين اليهود في العالم.

كان الأهل في منزل ليون الوالدي يمثلون الصهيونية البرجوازية الصغيرة التقليدية. ولقد كان الولد يحس لدى أول احتكاك بالواقع بجاذب الأسطورة الصهيونية كنشوة دينية. لقد كانت الأسطورة قيد التحقق، فلقد ذهبت العائلة إلى فلسطين حين كان الفتى في سن الدراسة الابتدائية. إن الموكب العظيم لصور تلك الرحلة انطبع في ذهنه كقصة جنيات. فلقد كان يتذكر كيف كانت تلمع الشمس على سطوح القسطنطينية، وضجة البحر على الأرخبيل المسحورة، وكيف ظهر أمامه للمرة الأولى ساحل الأرض الموعودة القاسي الوعر. ولكن قصة الجنيات لم تستمر طويلا، فبعد ذلك بسنة قرر والد ليون العودة إلى موطنه الأصلي ولقد لاحظ الفتى خلال عدم استقرار شروطه المعيشية، واجتهد في أن يفهم، واستوعب مفهوم الحركة الدائمة لدى الناس والأشياء. لقد كان ذهنه مازال غائما لم يتركز بعد. ولم يبدأ أبراهام إلا عام 1928 حين قررت العائلة الهجرة نهائيا إلى بلجيكا، بالاهتمام بأبناء جيله. وبالاحتكاك بحركة الشبيبة الاشتراكية الصهيونية: («شومر هازيز»، أو الحرس الفتي). ثم بدأت تؤثر فيه قوى مختلفة. ففي المدرسة أحس بحاجز لا يقهر بين رفاقه وبينه، هو اليهودي الغريب، كيف لا يفهم **اختلافه** عن الأخريين، وان له مشكلاته الخاصة، عندما يلحظ أنهم يعاملونه دائما هكذا ولا يدخلونه في الألعاب والمحادثات، ببساطة، دون ملاحظات ولا سخرية، كفتى أخر؟ وعندما يعود إلى البيت، عابرا الشوارع المزدحمة في أحياء بروكسيل القديمة الآهلة، يكتشف كل تناقضات المجتمع العصري معاينة. فالسيارة الفخمة تتوقف أمام المنازل الجميلة، بينما عند منعطف الشارع، يلعب بيين الأقذار أولاد وسخون وجائعون على الدوام. كيف لا يتأثر قلبه الحساس بمشهد انقسام العالم إلى أغنياء وفقراء، كيف لا ينتصر بصورة بديهية للمضطهَدين، وهو الشاعر بكونه ضحية ظلم مزدوج ؟ هكذا أصبح أبرام الشاب مناضلا متحمسا في الشبيبة الاشتراكية اليهودية.

وما كان يشعر به قلبه من النفور والتمرد، بدأ ذهنه يفسره وينظمه. وبالتدريج، عبر ثقافة ماركسية ممنهجة بحث ليون عن فهم المجتمع وحل المشكلة الاجتماعية التي تنطلق من مفهوم صراع الطبقات. إن الروابط العائلية، والتقاليد، وإرث ماض برجوازي صغير من الحسابات الحقيرة، ومن الخوف المستسلم أمام ممثلي السلطة، قد تحللت، ضمن إطار حركة الشبيبة التي كانت رغم أفكارها السياسية المضطربة في كل حال مثال للتنظيم وإحدى أفضل مدارس العادات والذهنية البروليتارية التي يمكن أن توجد. فالطبع يتحرر والذهن في آن معا، ويتعلم السيطرة على نفسه والانقياد إلى العقل والخضوع لملاحقة هدف ما. كما تنصهر الإرادة في المثال الأعلى. وتتكون الشخصية، موحدة مسكوبة في قالب واحد، متركزة على النضال من أجل الاشتراكية، واجدة الاكتفاء الأسمى في الفكر والعمل في خدمة البروليتاريا العالمية.

لم يتأخر الفتى ليون في تخطي رفاقه في الحركة بكثير. فإلى كونه الأذكى والأصلب والأكثر تفهما، كان في آن معا ذا هدوء ويقين متعقل يفرضان بالبداهة احترام كل اللذين يحيطون به. ولكونه قياديا بالفطرة، لم يكن بحاجة إلى رفع صوته أو الوعد أو التهديد، أو إلى أن يسر بالكلام المعسول أو إلى أن يجر الآخرين بأفعال خارقة للمألوف ، حتى يقبل الجميع سلطته ، ولقد أنتخب بسرعة وبشكل ديمقراطي في درجات الشومر المختلفة إلى أن وجد نفسه بعد قليل في قيادة فرع بروكسيل وفي القيادة الوطنية .

لقد أجبرته شروط الحياة العائلية أن يترك مؤقتا الدروس التي كان يود متابعتها. وتحت ضغط التنقل في طول بلجيكا وعرضها لكسب معيشته، أعاد الاتصال بالجمهور العمالي الذي راح يخرج من جديد للشارع لتأكيد قوته والمطالبة بحقوقه. وفي النهارات المشمسة من صيف 1936، تصاعدت الحمَّى من مناجم شارلورا للفحم إلى قرى عمال المناجم القاتمة في بوريفاج. وبينما كان رجال الشرطة يحرسون مفترق الطرق، كان الشغيلة يجتمعون للإصغاء إلى قيادي جديد. فلقد مرت سنوات على سماعهم للمرة الأخيرة نبرة ثورية حقيقية وصادقة. لقد كانوا يأتون بالآلاف إلى فلينو وجيماب وكارنيون وفرامري وإلى بوفري الكبرى لسماع خطب ولتدروج الملتهبة، مؤسس الحزب الاشتراكي الثوري الشاب. لقد كان ليون يتابع ندوات دوج، ويتعلم التمييز بين التروتسكية والستالينية. لقد درس الأشياء ولم يتردد طويلا، لقد اختار الأفكار التي بدا له أن الماركسية الحقيقية تحتمها، والتي تستلهم المصالح الحقيقية للبروليتاريا العالمية وليس التزييفات البائسة التي يفبركها سيد الكرملين. وفي الوقت نفسه جعلته سلسلة المحاكمات الكبرى في موسكو يتخذ موقفا نهائيا. ومنذ ذلك العام أصبح تروتسكيا بمواجهة مجمل التنظيم العالمي للشومر الذي كان ذا ميل ستاليني، ودافع عن أفكاره بتصميم وليس دون نجاح في المؤتمرات والاجتماعات القومية أو الأممية.

ولكن في الوقت الذي كان فيه يتقدم بعيدا في فهم الماركسية، ويتابع دراسة محمومة في الاقتصاد السياسي، ظل متعلقا بالصهيونية بعمق، فلقد وضع كل قوته، حين أصبح رئيسا لمدة عام للإتحاد الصهيوني في بلجيكا، وكل حميته الثورية في خدمة تلك القضية. ولقد وجه نداءا حماسيا بمناسبة سفر مجموعة من المناضلين الشباب لبناء مستعمرة شيوعية في فلسطين. ولكن ها هو يبدأ بالشك وعدم الفهم. فإلى جانبه، على المكتب، ممثلو المنضمات الصهيونية البرجوازية والبرجوازية الصغيرة. أليس متحدا بهم في الحاضر، وإن كان ينوي مصارعتهم دون هوادة ما أن **تُكتسب الجنسية وإمكانية نضال فعال**[1]، هناك في فلسطين؟ أليس هذا **اشتراكية-وطنية** وإن بشكل خاص بعض الشيء؟ لقد أصبح ليون يعرف لينين تماما. ولم تخرج من ذهنه براهين «ضد التيار» فكيف إذا يوفق بين لينينيته التامة والصهيونية؟ أين توجد القاعدة المشتركة بين النضال القومي اليهودي والاشتراكية الأممية؟

بهذه الطريقة بالذات انطلق ليون بدوره، عشرين سنة بعد بوروشوف، متقفيا آثار منظر الشوم ليكشف **تبريرا ماركسيا** لأفكاره الصهيونية. إنه يبحث مجددا في كل شيء، ويصعد ثانية، درجة فدرجة، كل مسلسل الأفكار، غير قابل بأي من مسلمات الإيديولوجية الصهيونية، شاقا طريقا لنفسه عبر الآراء المسبقة لليهود وغير اليهود المتعددة حول تاريخ الشعب، هذا التاريخ الذي يبدو مدهشا جدا وفائقا للمعقول والذي يفتش ذهنه العلمي عن تفسير له – حسب المنهج الماركسي.

وفي منتصف أبحاثه يرسل عدة مقالات إلى المجلة التروتسكية الأسبوعية «النضال العمالي». ويحتك به محررون في تلك المجلة، فيندهش حين يكتشف لدى هؤلاء العمال البسطاء، كثونيوك اللحام المحترف، كنز معارف تاريخية واقتصادية وسياسية. إنه يشعر أن هذه هي الطليعة الحقيقية، وكالمسافر الذي اختار طريقه بصورة لاواعية، يلتفت للمرة الأخيرة لماضيه، إنه يود أن يقطع علاقته به «بشكل رائع» وبوعي كامل ، بعد أن فسر لنفسه ولرفاقه القدامى الأسباب العميقة لهذه القطيعة، بعد أن فعل كل ما يستطيع من أجل أن يبرهن لأصدقائه جميعا على ما يبدو له أنه الحقيقة التي اكتشفها. إن موضوعاته حول المسألة اليهودية بدأت تتكون، تلك الموضوعات التي سيكون كتابه «المفهوم المادي للمسألة اليهودية» تكوينها الموسع.

---

[1] - كان الشومر هازير تدافع عن المفهوم القائل أن العمال والاشتراكيين الثوريين اليهود لا يمكنهم النضال بفعالية من أجل الثورة البروليتارية إلا في فلسطين.

في تلك الأثناء كانت موجة من القلق تصيب الجماهير اليهودية في القارة الأوروبية بمجملها. إنها تحس باقتراب الحرب ويقذف بها شعور مسبق بالكارثة المرعبة التي سوف تحل بها إلى نوبة من العصبية والهلع، إن ظل هتلر المهدد يرفرف فوق بروكسيل. وفيما يتبادل المندوبون الحجج المتناقضة بهوس في اتجاه أو في أخر، يحزمون أمرهم إما من أجل **دعم مشروط** للإمبريالية البريطانية، أو **للحياد** أو **للدفاع المستقل** عن فلسطين إذا اقترب جيش فاشي من تلك البلاد.

ورغم صيحات الهزء والاستهجان من قبل الجمعية تجاه هذا المرتد عن إسرائيل، فإن ليون يدافع بشجاعة، حتى قبل القطيعة النهائية مع الصهيونية عن موقف **الانهزامية الثورية** الكلية. «الويل للذين سيزيدون من حدة شوفينية شغيلة البلدان العدوة تبعا لاشتراكيتهم الوطنية الخاصة. إن سلاحهم سيرتد عليهم بكل قوته! الويل لأولئك الذين يأملون أن يروا انطلاقا من حرب الإمبريالية البريطانية ضد منافستها الألمانية، ولادة تحسن في مصير اليهود البائس في أوروبا! فهم بذاتهم سيكونون الضحايا الأقسى إصابة!». «بهذا الاتجاه تكلم ليون وكم كانت دهشة هؤلاء الوسطيين الحائرين، العاجزين عن متابعة تحليلهم حتى النهاية، باحثين عند كل منعطف عن حلول سهلة وقائمة على المساواة، عاجزين عن الرد على صرامة التاريخ بصرامة فكرهم! وكم أكدت الوقائع مذ ذاك بشكل مأساوي توقعاته.

وبينما كانت موجات الحرب الإمبريالية تقترب من بلجيكا لتتدفق في أيار 1940على تلك البلاد كان ليون يركز **موضوعاته حول المسألة اليهودية** التي يخضعها لمناقشة تنظيمه. ولكونه اصطدم لدى محاولته الإمساك بمعنى التاريخ اليهودي، بنظرية بوروشوف، أو «المادية الماورائية» كما كان يسميها، فلقد حاول في البدء إزالة هذا العائق .لقد زعم بوروشوف أن أصل «المسألة اليهودية» يكمن في كون اليهود وخاصة الشغيلة منهم لم يكونوا يلعبون دورا مهما في القطاعات الحيوية للاقتصاد (الصناعة الثقيلة، استخراج المعادن والفحم ...) ولكنهم كانوا يشغلون فقط موقعا مهما في **الدوائر الهامشية** للحياة الاقتصادية. فبينما كان التكوين الاجتماعي للشعوب يتخذ شكلا هرميا قاعدته مئات الآلاف من عمال المناجم والمعدنيين وعمال السكك الحديدة الخ، مرورا بشرائح واسعة من الحرفيين الصغار، وصولا في الأعالي إلى كبار التجار والصناعيين والمصرفيين، كان تشكيل الشعب اليهودي اجتماعيا يبدو له **كهرم مقلوب** حيث لم ترتكز الشرائح الواسعة الحرفية إلا على شرائح عمالية ضيقة - وفقط أيضا على عمال **القطاعات الغير الحيوية** في الصناعة- بينما كان عليها أن تتحمل هي بذاتها الوزن الثقيل لجمهور ساحق من التجار.

لقد توقف بوروشوف في التحليل عند هذه النقطة وقبل بها كمعطى تاريخي دون أن يحاول أن يفسرها وأن يجعل منها نقطة انطلاق المسألة لأجل حلها، لقد كان يرى أنه ينبغي أولا **قلب الهرم المقلوب** أي خلق مجتمع يهودي **طبيعي** مشابه لما هو الحال عند الشعوب الأخرى قبل أن تستطيع البروليتاريا جديا مباشرة النضال الثوري! ولم يكن بالامكان خلق ذلك المجتمع إلا في فلسطين على حد تقديره .

أدرك ليون سريعا ما تنطوي عليه تلك النظرية من انعدام الجدلية: فلم يكن ينبغي اعتبار وضع اليهود الاجتماعي الحالي كأمر واقع ولكن **كنتاج العملية التاريخية**. من أين نتج إذا ذلك التطور التاريخي المختلف لدى اليهود؟ لقد بدأ ليون يعيد بناء ماضي اليهود بأكمله رابطا من جديد خيط التحليل لدى بوروشوف ببعض التعابير العابرة لدى ماركس الذي أدرك بعبقريته المعتادة مرة واحدة كل لغز التاريخ اليهودي. لقد كان ينبغي البحث عن تفسير الديانة اليهودية وبقاء اليهود من حيث هما معطيان أصليان، في دور اليهود الاجتماعي. لقد شيد، بعد أن جمع مجمل الوثائق الموجودة حول الموضوع، نظرية **الشعب-الطبقة**، المدهشة ببساطتها، والمفتاح الذي لا غنى عنه لفهم دور اليهود في الماضي والحاضر وإيجاد الحل لبؤسهم .

ولكن لم تكن البوروشفية تخطئ فقط في نقطة انطلاقها، بل كانت تخطئ أكثر في استنتاجاتها. لقد كانت تعتبر حل المسألة اليهودية ليس فقط خارج السيرورة التاريخية السابقة، ولكن أيضا خارج الواقع الاجتماعي الحاضر. إن إرادة عدة ملايين من العمال اليهود، في فترة الإمبريالية والرأسمالية المحتضرتين، **في خلق مجتمع كالمجتمعات الأخرى**، كانت تبدو قوة ضعيفة بشكل مضحك إزاء العمالقة الإمبرياليين الذين يتنازعون كل زاوية لم تحتل من الكرة الأرضية، وإزاء تحالف الطبقات العنيف على الحلبة العالمية. إن بوروشوف لم يكن ليفهم قانون التطور المركب في العصر الإمبريالي، ذلك القانون الذي كان يحظر على أي أمة حل أي مسألة ضمن نظام الرأسمالية المحتضرة. لم يكن ممكنا من أجل إزالة الخصائص المأساوية للمجتمع اليهودي، **عزل** هذا المجتمع عن مجمل المجتمع المتعفن، لم يكن ممكنا قلب هرم اليهود المقلوب، في حين كان هرم الشعوب الأخرى الطبيعي في حالة انهيار، إن الثورة البروليتارية العالمية، وحسب، كانت قادرة على تسوية التاريخ اليهودي، لم يكن ثمة حل للمسألة اليهودية في إطار الرأسمالية المنحطة.

وهكذا كان ليون يسوي حساباته حتى النهاية مع ماضيه. لقد فضح، ليس فقط طابع المثال الأعلى الصهيوني الطوباوي البرجوازي الصغير، ولكنه يبرهن أيضا كيف أن هذا المثال كان محكوما، كأي إيديولوجية خاصة بالبرجوازية الصغيرة للفترة الإمبريالية، بأن يصبح أداة بيد الرأسمالية العالمية. لقد فضح الصهيونية ككابح للنشاط الثوري لدى الشغيلة اليهود في العالم، وككابح لتحرر فلسطين من مخالب الإمبريالية الإنكليزية، وعقبة على طريق الوحدة الكاملة بين اليهود العمال والعرب في تلك البلاد. لقد أدان بصراحة وبدون تحفظات أو تكتم كل نشاطه السابق. لقد فهم كل حتميته، وأدرك تماما أنه كان طورا ضروريا في تطوره الخاص. إن فكره المعجون بالجدلية كان يميل إلى تقديم كل معرفة واضحة، كل حالة من حالات الوعي، كنتيجة لصراع من أجل التغلب على الحقيقة -المضادة وعلى الضلال. لقد كان يقول غالبا،«من أجل أن نفهم ، ينبغي أن نبدأ بعدم الفهم».«لا قناعة تعادل عمقا تلك التي تنجم عن صراع إيديولوجي داخلي طويل وصادق». أن السنوات التي كانت متبقية له قد برهنت على صحة هذه الملاحظات بالنسبة إليه. لقد اقتلع ليون، بعد أن تغلب على المرحلة القومية في تطوره، كل الرواسب الصهيونية في فكره وكانت أمميته ذات نقاوة نادرة. لقد استطاع بعد أن توقف عن التمزق بين اتجاهين متضادين والذوبان في صراع درامي داخلي، أن يوجه قوته بكل ما فيها من حركية على طريق واحد وحيد هو طريق الأممية الرابعة. فبعد أن ترك تنظيم التشومر مع عشرين من رفاقه ألف حلقة دراسات بهدف محدد هو كسب أتباعها إلى التروتسكية. لا شيء أكثر تعبيرا من لحظة اهتداء. فحين كان ليون ينخرط في الشيوعية الأممية كانت الحركة العمالي في بلجيكا تبدو ميتة. إن هنري دومان الذي بدأ تطوره كمناهض متحمس للروح العسكرية، ثم كاشتراكي وطني، فمنظر لمراجعة تافهة للماركسية، فوزير ملكي ومرقع مشعوذ للرأسمالية، أنهى دورة حياته «الاشتراكية» بحل حزبه الذي كان رئيسا له وبدعوة رفاقه إلى مساعدة هتلر في بناء «نظام جديد» في أوروبا. أما الحزب الشيوعي الذي انعزل عن الجماهير المصابة بالانشداه أمام أحداث أيار-حزيران، فقد صدع بتعليمات موسكو، وبقي في حالة انتظار حذرة، وخاطر حتى في نشر مجلة أسبوعية فلامنكية كانت تستعيد بطواعية إلى الأناشيد حول «بلاد الحياة الفرحة السعيدة» صلواة غوبلز الطويلة المضادة لبريطانيا. إن القيادي التروتسكي السابق ولتر دوج الذي تكشَّف متاعه الإيديولوجي عن خفة عظيمة بالنسبة لتلك العاصفة الطويلة، قد وهنت عزيمته بعمق وترك حزبه متقوقع في قدره الخاص. أما الكادرات التروتسكية القليلة المبعثرة عبر البلاد، فبالكاد أعادت اتصالا أوليا فيما بينها. لم يكن يبدو الوضع مبررا، إلا الاستسلام أو الانتهازية. إن أي موقفا أخر كان يبدو تمردا يائسا وعاجزا.

مع ذلك كانت تنقص الجرأة لا للعمل ولكن للتفكير والتفكير بشكل صحيح. كان يمكن للتحليل الماركسي أن ينفذ تحت البلاطة الشمولية الثقيلة التي كانت تضغط على أوروبا وأن يكشف فيها القوى الجنينية التي قد تنتهي بقلبها. لقد كان ليون يلاحظ، وقد حدد بشكل صحيح الأسباب التي كانت تدفعنا إلى الأمل، إن الحركة العمالية في أوروبا وصلت إلى النقطة الدنيا في سقوطها، أم الآن فكان ينبغي الاعتماد على صعود جديد: ليس لبلوغه سلبيا ولكن لتهيئته، لإعداد الإطارات من ضمنه وإعداد الجماهير قدر الامكان. فقط عبر احتكاك دائم بالحياة والصعوبات والتطلعات اليومية للجماهير يمكن أن يتصلب حتى في أحلك لحظات التاريخ حزب قادر على قيادتها فيما بعد في النضال. ينبغي أن نكتشف وراء كل سبب لليأس مبررا للأمل. إن فكر ليون المحرك كان أكثر من رمز، كان بدء عمل. فحين أذهلنا في عشرين آب 1940 نبأ اغتيال تروتسكي المأساوي، كتب ليون لتوه أول بيان للحركة التروتسكية اللاشرعية البلجيكية. لقد اتصل بعدة قياديين منطقيين قدامى للحزب في بروكسيل، وتكونت قيادة أولى. لقد ولدت المنظمة السرية التروتسكية في بلجيكا بمناسبة موت والدها الروحي. إن الحيوية الدائمة لأفكار الأممية الرابعة التي ليست سوى التعبير الواعي للواقع التاريخي، لا تفتش إلا عن المناسبات والرجال لتتوطد عند كل منعطف. لقد اكتشفت ها هنا هؤلاء وتلك.

إذ ذاك بدأت فترة عمل لا ينقطع، جلود، عنيد، في مواجهة الصعوبات المتوالدة باستمرار التي كانت تبدو كل مرة لا تقهر.ليس أمرا مبتذلا ولكنه حقيقة صحيحة جدا إن تاريخ ليون الشخصي يمتزج مذ ذاك بشكل معقد بتاريخ الحركة التروتسكية في بلجيكا ، وكمحرك رئيسي للحزب كان أمينه العام السياسي منذ تأليف أول لجنة تنفيذية. لقد كان يشعر قراءه، وهو الصحافي ذو اللهجة الحية الصافية، بأنه يفهم ويفهم بعمق كل مسألة يعالجها، وتحت إشرافه عملت هيئة تحرير «طريق لينين» اللاشرعية التي تتضمن أعددها الأولى دراسة متفوقة كتبها بيده حول بنية ومستقبل مختلف القوى الإمبريالية، دراسة وضع فيها الخطوط العريضة لأحداث الحرب المستقبلية، كما جرت فعلا. لقد كان كمنظم ومثقف مثالي يدير خلايا، ويحاول بناء جهاز لاشرعي، ويجتهد بصبر لامتناه في اكتساب ثقة مناطق الحزب العمالية، وفي تكوين قيادة وطنية معترف بها ومسؤولة على قاعدة تلك الثقة، لقد التقيت به للمرة الأولى في أول لجنة مركزية للحزب المعاد بناؤه كنتيجة لجهوده التي لا تعرف الملل وذلك في تموز عام 1941.

وكان ليون لم يكن، رغم انغماسه الكلي في المهمات اليومية الواسعة، تنظيمية كانت أو سياسية، ليوقف لحظة هذا العمل الإيديولوجي الذي يشكل الإرث الأكثر قدرا الذي تركه لنا. فمن جهة أنهى تدريجيا كتابه حول المسألة اليهودية معيدا باستمرار

بحث مسائل تفصيلية، مفكرا أسابيع حول جانب خاص للمسألة، ملتهما كل الوثائق التي كانت موجودة وفي أن معا مستعدا ما أن يصل إلى رأي، للدفاع عنه حتى النهاية. هكذا كُتب هذا الكتاب الذي لا يبقى فقط كمثال لتطبيق المنهج الماركسي على مسألة تاريخية محددة، والذي لا يصفي فقط المسألة اليهودية من حيث هي مشكلية من وجهة نظر المادية التاريخية، ولكن الذي ينطوي إلى جانب ذلك على غنى في الملاحظات والصياغات حول موضوع مسائل متعددة في الاقتصاد السياسي والتاريخ والسياسة المعاصرة. من جهة أخرى كان يكرس وقته لوضع فهم لينيني صحيح حول المسألة التي كانت في ذلك الحين تستهوي كل الثوريين في بلدان الاحتلال، عنيت المسألة القومية وعلاقتها باستراتيجية الأممية الرابعة.

فليقرأ أولئك الذين ينجرون إلى نقد سهل للسياسة التروتسكية في أوروبا إزاء المسألة القومية، وليدرسوا أولا الوثائق التي وضعها ليون في تلك الفترة. فليأخذوا علما باهتماماته، واهتمامات كل قيادة حزبنا التي تتلخص بالمحافظة من جهة على البرنامج اللينيني من الجرثوم الشوفيني والدفاع من جهة أخرى عن التكتيك اللينيني ضد قصر النظر لدى العصبويين، وسوف يرون كم تثير السخرية اتهاماتهم التي تعتبر أننا قللنا من أهمية المسألة القومية. إن ما أوضحه أولا على صعيد النظرية، حاول فيما بعد أن ينفذه في الممارسة. أن قلة كادراتنا لم تسمح لنا ببدء عمل تكتلي منطقي بين المتمردين. ولكن في كل مرة كانت ترتسم حركة حقيقية، أكان ذلك أثناء الاضرابات الكبرى الأولى في لييج، أو أثناء عمليات النفي أو أثناء اضطهاد اليهود، في كل مرة كان يقول الحزب رأيه بوضوح، في كل مرة كان الحزب يطبق خطه السياسي: «دعم ودفع الحركات الجماهيرية المواجهة ضد الإمبريالية المحتلة إلى الأمام، بغية تحويلها إلى حركات ثورية بروليتارية». ولقد لاحظ ليون بفخر في موضعه، في المؤتمر اللاشرعي للحزب في تموز 1943، أنه لم يقم منذ عام 1941 حدث في بلجيكا لم يكن للحزب ضلع للحزب فيه.

منذ انتقلت إعادة بناء الحزب إلى طور التحقيق، بدأ ليون يقلل من الارتباطات الأممية. فهو كأممي بكل جوارحه، لم يستطع قبول فكرة أن تحيا المنظمة البلجيكية منعزلة عن مجمل المنظمات الشقيقة في أوروبا والعالم. إن ضرورة الاتصال بالفروع الأخرى للأممية الرابعة لم تكن تنتج فقط عن إرادة مجابهة الخط السياسي للحزب البلجيكي بخط الأحزاب الشقيقة. لقد كانت تتناسب أيضا مع وعي واضح تماما لواقع أن الهزات الكبرى العسكرية والثورية في المستقبل ستتخذ حتما طابعا قاريا وأن أي قيادة سياسية فعالة لن تستطيع الاشتغال على المستوى القومي. لقد فشلت محاولة اتصال مع هولندا، بينما حققنا نجاحا أكبر في فرنسا، بفضل هذا الارتباط وصلتنا الوثائق الأخيرة التي كتبها ل.د.تروتسكي عن طريق مرسيليا وباريس، ومن بينها خاصة البيان القيِّم لمؤتمر الإنذار عام 1940 الذي نشره حزبنا بشكل كراس مطبوع. ثم عقد في آب 1942، في قرية صغيرة من قرى الأردين، أول مؤتمر ارتباط بين ممثلي القيادتين الفرنسية والبلجيكية. لقد كان ليون وهيك المحركين الكبيرين لهذا اللقاء. هكذا وضعا قاعدة الأمانة العامة الأوروبية المؤقتة اللاحقة التي كانت بدورها ستعيد ضمن اللاشرعية الكاملة بناء قيادة أممية في أوروبا.

هذه الشهور من العمل اللاشرعي في الظروف الأكثر خطرا، حين كان القلب ينقبض رغم كل إرادة، في كل مرة كان يقرع الباب أو تخفف سيارة سرعتها قرب الرصيف كانت أيضا شهور توتر عصبي أقصى، وانتظارا دائما لانفجار يصيب القضبان أخيرا ويسمح بتقديم اليوم الذي تقفز فيه كل الأبواب من ذلك السجن الواسع الذي أصبحته أوروبا. كنا ننتظر المفاجأة الصاعقة داخل السجن بالذات. واثقين من احتياطي القوة الثورية الذي تراكم خلال سنوات طويلة من عذاب بروليتاريا القارة. ولكن رغم ثقتنا، كان ذلك الانتظار طويلا جدا. لقد كان ليون، أقدم هو بذاته على قيادة عمل حزبنا المتواضع تجاه جنود وهرماشت البروليتاريين، أو حضر اجتماعات لجان العمل السرية التي أنشئت في عدانة لييج، كان يعطي دائما لتلك النشاطات المختلفة معنى يتخطى المباشر، لقد أراد أن تزرع لكي يستطيع الحزب أن يحصد في تلك اللحظة الحاسمة. لقد تساءل مرارا عديدة إذا كنا قادرين على أن نحصد في أمكنة أخرى نظرا لقلة كوادرنا في تلك الأثناء. لم يكن يستطيع أن يتوقع أنه هو بالذات الذي سيفتقده الحزب أثناء أيام التحرير الحاسمة وأن غياب قيادة فعالة هو الذي سيمنع الحزب من الاستفادة كما كان يمكن أن يفعل بالامكانات العظيمة لتلك الفترة .

لقد حدث إذ ذاك سقوط موسوليني. كنا نشعر أخيرا بريح الثورة تستيقظ، وتضاعف نشاطنا، وأصبح أكثر حرارة. لقد تفانى كل منا كليا بقدر ما كنا نشعر بالحسم يقترب. لقد قام ليون بسلسلة من السفرات السرية إلى فرنسا، حيث شارك بنشاط في أعمال المؤتمر الأوروبي للأممية الرابعة في شباط 1944. كنا توقفنا في تلك الفترة عن إعداد أنفسنا، لقد كان الأمر يتعلق بالتدخل بنشاط في النضال العمالي الذي انفجر في كل الأنحاء. لقد بادرة المنظمة التروتسكية في منطقة شارلروا إلى خلق حركة لاشرعية من مندوبين لعمال المناجم. وانتشرت هذه الحركة بسرعة في خمسة عشر منجما للفحم. إن أفكار الحزب بدأت في عز اللاشرعية تتوطد لدى الجماهير. ولقد فهم ليون كل أهمية تلك الحركة فأراد أن يتتبعها خطوة فخطوة. قرر أن يستقر في شارلروا كما يشارك يوميا عمال المنطقة الثوريين. إن إعلان الإنزال والتخوف من رؤية الارتباطات بين مختلف المناطق تنقطع، شرعت

الإعدادات لانتقاله. لقد كان بعد سنتين من الحياة ضمن اللاشرعية الكاملة، على عتبة الاستقرار في شارلروا. ولكن في العشية الأولى بعد وصوله دخلت الشرطة الألمانية صدفة المنزل الذي كان يوجد فيه، وأوقف ونقل إلى السجن .

ثم كانت أيام طويلة من التعذيب الجسدي والنفسي. لقد حاولت الغستابو بكل الوسائل أنت تدفعه إلى الكلام. وكانت الهموم بصدد الحزب الذي فقد خمسة من قيادييه الرئسيين خلال السنتين الأخيرتين تنهشه. وقد نجح في كسب ثقة أحد الجنود القائمين على حراسة السجن، فأقيم اتصال بينه وبين الحزب، وأرسل إليه رسائل تشهد بصورة دامغة بأن أفكاره جميعا كانت في أصعب ساعات حياته تتوجه إلى المنظمة، إلى مشاريعه المباشرة وإلى مستقبله، لقد كان عظيم الرغبة في أن يواصل عمله إلى جانب رفاقه. لكن القدر لم يرد ذلك. إن نقله السريع أتلف الاستعدادات لفراره التي كان الحزب قد باشرها ورماه في جحيم سيهلك فيه خمسة ملايين من الكائنات البشرية: إنه جحيم أوشفيتز.

لقد كان ليون من نموذج الرجال الذين استطاعوا على الأقل أن يقاوموا نظام المعسكرات النازية. فقبل كل شيئ كان يشع في ذاته مفهوم سام عن الكرامة الإنسانية لم يكن يقدر أن يتسامح مع الاحتكاك بالانحطاط والقساوة الذين أصبحا التدابير المعتادة للسلوك البشري في المعسكرات. لقد كان لنبل طبعه أن يتكسر على الوحشية التي تقهر لأنانية يائسة، كما طحن جسده جهد فيزيائي غير عادي ومرض خائن. فبعد أسابيع في العمل الشاق في شق الطرقات، أرسل مريضا إلى المحجر الصحي. هناك كان يجد أنواع اللف والدوران وأن يحني الظهر أمام محترفي السادية، وأن يهرّب ويسرق ليبقى على قيد الحياة. لم يكن يستطيع أن يرتفع فوق رفاق بؤسه. وقد أمضى أيامه الأخيرة في القراءة مسمرا على سريره وفي التأمل في الحياة بشكل رواقي. لقد كان متأكدا بأن النهاية تقترب، ثم مر «التفتيش الصحي» الأخير، وجرى اختيار المرضى لغرف الغاز. كان ليون بين المختارين وقد مضى بشجاعة.

يصعب إن لم يستحيل أن نقيِّم بشكل كامل قيمة عملاق ثوري لم يعش إلا 26 عاما. رغم عمله الذي لم ينقطع، قليلة نسبيا هي المؤلفات التي تركها لنا. لم يكن يكتب كثيرا كان يفضل أن يفكر بنضج قبل أن يودع أفكاره القرطاس. رغم ذلك فإن ما تركه، وهو كتاب ومجموعة صغيرة من المقالات، يكفي لكي نرى فيه مع مارسيل هيك، الموهبة الأكثر فرادة والوعد الأكثر جدية الذي كانت الأممية الرابعة تمتلكه في القارة. لقد كان ليون معدا ليقود حركتنا ويرشدها عبر نضالات لا تنقطع من أجل النصر، لقوة طبعه، ورشاد حكمه السياسي، وسطوته الطبيعية وصفاته القيادية .

إن الفراغ الذي تركه لن يسده قريبا وجه يوازيه .

إن جميع الذين عرفوه سيحتفظون بذكرى أ.ليون كمثال يحتذى ومصدر دائم للإلهام، إن الذين سيقرأون كتابه سوف يعجبون بوضوح وصرامة محاكمته ويظلون مندهشين أمام نضج فكره في سن الرابعة والعشرين. إن من سيطلعون على تاريخ حياته سوف يتساءلون ربما لماذا كان رجل له كل تلك المزايا يربط مصيره بمصير منظمة ثورية صغيرة، سوف يمتدحون صدقه، ونبله الإيديولوجي الكلي الذي جعله يعيش في توافق كلي مع أفكاره، سوف يتساءلون مع ذلك لماذا اختار رجال كمارسيل هيك، وويدولين وأ.ليون، كانوا بين الأكثر موهبة في الانتليجنسيا الأوروبية، النضال في حركة لم تكن تستطيع أن تعدهم بنجاح سهل أو بمجد أو جاه، أو حتى بالحد الأدنى من اليسر المادي، ولكنها على العكس تتطلب منهم كل التضحيات بما فيها حياتهم، عبر عمل طويل عاق وغالبا في عزلة مؤلمة عن تلك البروليتاريا التي أرادوا أن يعطوها كل شيء. وإذا كانوا يعترفون لأولئك الشبان الثوريين إلى جانب ميزاتهم الفكرية، بميزات أدبية إستثنائية، ينبغي أن يقولوا بذاتهم، مع ذلك أن حركة تستطيع فقط بقوة أفكارها ونقاوة مثالها الأعلى أن تجذب أولاء الرجال وتصل بهؤلاء الجدليين العقلانيين إلى قمم مبهمة من نكران الذات والتفاني، إن حركة كهذه لا يمكن أن تموت لأنه يعيش فيها كل ما هو نبيل في بني البشر.

إرنست ماندل

1946

الفصل الأول

قواعد دراسة علمية للمسألة اليهودية

لم تتعدّ الدراسة العلمية للتاريخ اليهودي بعد، مرحلة الارتجال المثالي. ففي حين غزت النظرية المادية مجالات واسعة من التاريخ العام، وفي حين ارتبط المؤرخون الموزونون بالماركسية، بقي التاريخ اليهودي أرضا خصبة «للباحثين عن الله» من كل نوع. إنه من المواضيع التاريخية القليلة التي تمكن فيها الفكر المثالي من فرض نفسه ومن الاستمرار على هدا الشكل مدة طويلة. فكم من أوراق سوّدت من أجل تمجيد «المعجزة اليهودية» الشهيرة! يقول بيدرايد «إنه لمشهد غريب أن نرى أناس يزدرون الاضطهاد والاستشهاد من أجل الاحتفاظ بإيمانهم المقدس»[2]. لقد فسّر المؤرخون جميعا محافظة اليهود على نفسهم كنتيجة لما برهنوا عليه من إخلاص لدينهم أو لقوميتهم عبر القرون. ولم يظهر التباين في الآراء إلا لدى تحديد «الهدف» الذي من أجله حافظ اليهود على دينهم، والسبب الذي من أجله قاوموا الاندماج. وينطلق البعض من وجهة نضر دينية، متحدثين عن «الأمانة المقدسة لدينهم»، في حين ينطلق البعض الأخر كدوبنوف مدافعين عن نظرية «التعلق بالفكرة القومية»: «علينا أن نبحث عن أسباب المحافظة التاريخية للشعب اليهودي في قوّته الفكرية القومية وفي قاعدته الأخلاقية وفي **مبدأ التوحيد**» كما تقول «الموسوعة العامة» موفقة بذالك بين مختلف وجهات نظر المؤرخين المثاليين[3].

لكن، إذا كان بالامكان التوفيق فيما بين النظريات المثالية، فإنه لمن العبث البحث عن التوفيق بين هذه النظريات، من جهة، والقواعد الأساسية لعلم التاريخ من جهة أخرى. فعلى علم التاريخ أن يرفض بصورة قاطعة الخطأ الجوهري الذي ترتكبه جميع المدارس المثالية باعتبارها مسألة صيانة اليهودية، القضية الأساسية للتاريخ اليهودي.

إن دراسة الدور الاقتصادي لليهود، هو الذي يساهم، لا غيره، في توضيح أسباب «المعجزة اليهودية».

ولا تقتصر دراسة تطور هذه المسألة على فائدة «أكاديمية» فحسب، فبدون دراسة عميقة للتاريخ اليهودي، يمسي من الصعب فهم المسألة اليهودية في عصرنا الحاضر، إذ أن وضع اليهود في القرن العشرين مرتبط عضويا بماضيهم التاريخي.

إن كل وضع اجتماعي هو مرحلة من مراحل السيرورة الاجتماعية، وكل تحليل للمسألة اليهودية في المرحلة الحالية من تطورها يستلزم معرفة جذورها التاريخية .

ففي مضمار التاريخ اليهودي، كما في ميدان التاريخ العام، يرشدنا فكر ماركس العبقري إلى منهاج نتبعه. «يجب ألا نبحث عن سر اليهودي في دينه، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي»[4]: هكذا أوقف ماركس المسألة اليهودية على قدميها، علينا ألا ننطلق من الدين لتفسير التاريخ اليهودي، بل على العكس علينا أن نفسر المحافظة على الدين أو القومية اليهوديين انطلاقا من «اليهودي الواقعي»، أي من دور اليهود الاقتصادي والاجتماعي، إذ ليس في الاستمرارية اليهودية أية معجزة: «لم تستمر اليهودية بالرغم من التاريخ، بل بحكم التاريخ»[5].إن اكتشاف سر استمرار اليهودية عبر التاريخ يمر عبر دراسة الدور التاريخي لليهودية، وفي الحقيقة، ليس الصراع بين اليهودية والمجتمع المسيحي، تحت الستار الديني، سوى صراع اجتماعي: «إن التناقض بين دولة ودين معيَّن، اليهودية مثلا، نعطيه تعبيرا إنسانيا حين نجعل منه تناقضا بين الدولة وبين عناصر علمانية معينة»[6].

---

[2]- بيداريد: اليهود في فرنسا وايطاليا وأسبانيا. باريس 1859:
Bédarride: Les Juifs en France, en Italie et en Espagne.

[3]- بن ادير، مقالة من اللاسامية في «الموسوعة العامة الايديشية».
[4]- كارل ماركس: المسألة اليهودية.

[5]- كارل ماركس: المسألة اليهودية.

[6]- كارل ماركس: المسألة اليهودية.

ويُعرض الهيكل العام للتاريخ اليهودي، حسب المدرسة المثالية المسيطرة، على هذا الشكل تقريبا: حتى تدمير القدس، أو ربما حتىعصيان بركوبكا[7]، لم تكن الأمة اليهودية تختلف عن غيرها من الأمم المتكونة طبيعيا، كالأمة الرومانية أو الإغريقية. وأدت الحروب بين الرومان واليهود إلى تشتيت الأمة اليهودية في أنحاء العالم، وفي «الشتات» قاوم اليهود بضراوة الاندماج القومي والديني. ولم تجد المسيحية في طريقها خصما أكثر ضراوة من اليهود، وبالرغم من كل الجهود التي بذلتها لم تتمكن من نصرتهم. وأدى سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى تصعيد عزلة اليهود التي شكلت –بعد الانتصار الكامل للمسيحية في الغرب- عنصر الهرقطة الوحيد. وفي عصر الاجتياحات البربرية، لم يشكل يهود الشتات قط مجموعة متجانسة اجتماعيا، بل بالعكس، كانوا يعملون في مختلف القطاعات الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة. ودفعتهم الاضطهادات الدينية المتتابعة إلى التمركز أكثر فأكثر في التجارة وعمليات الربا، وصعّدت الحملات الصليبية بعنف، بالتعصب الذي أثارته، هذا التطور الذي حوّل اليهود إلى مرابين، وأدى بهم إلى الانزواء في «الغيتو»[8]، هذا مع العلم بأن الدور الاقتصادي لليهود كان يزيد في أوار الحقد عليهم. لكن، لم يُعر المؤرخون لهذا الدور إلا أهمية ثانوية واستمرت اليهودية على تلك الحالة حتى الثورة الفرنسية، وهذه أزالت الحواجز التي أقامها الاضطهاد الديني ضد اليهود.

إن عدة وقائع نهمة تكذب هذه الصورة:

1-لم يشتت اليهود إطلاقا منذ سقوط أورشليم، إذ أن الغالبية العظمى من اليهود كانت قد تبعثرت في أنحاء العالم، قبل حدوث هذا الحدث بعد قرون، «وما يمكن أن نؤكده أن أكثر من ثلاثة أرباع اليهود كانوا يسكنون خارج فلسطين قبل سقوط القدس بمدة طويلة»[9]، ولم يكن لجماهير اليهود المبعثرة في الإمبراطورية الإغريقية، ثم في الإمبراطورية الرومانية إلا اهتمام ثانوي جدا بالمملكة اليهودية في فلسطين. ولم يكن ارتباطهم «بالوطن الأم» ليظهر إلا أثناء الحج إلى القدس الذي كان يلعب دورا شبيها بدور مكة بالنسبة للمسلمين. وقد قال الملك آغريبا قبل سقوط القدس[10] بفترة وجيزة «لا يوجد شعب في العالم إلا ويحتوي ذرّات من شعبنا».

لم يكن الشتات إذن وليد الصدفة أو وليد العنف، لذا يتوجب علينا أن نبحث عن السبب الرئيسي للهجرة اليهودية، في الوضع الجغرافي لفلسطين: «وصل يهود فلسطين إلى وقت لم تعد في بلادهم الجبلية تؤمن حياة ممكنة الاحتمال كحياة جيرانهم. إن شعبا كهذا مجبر على الاختيار بين النهب والهجرة. فالاسكتلنديون مثلا اختاروا على التوالي كلا من الطريقين. أما اليهود فقد اتخذوا، بعد عدة صراعات مع جيرانهم، الطريق الثاني. إن شعبا يعيش في مثل تلك الظروف لا يهاجر ليعمل في الزراعة، بل يذهب كمرتزقة، كالاركاديين في قديم الزمان والسويسريين في العصور الوسطى، والألبانيين في عصرنا، أو من أجل التجارة، كاليهود والاسكتلنديين والأرمن. إننا نرى إذن أن وسطا متشابها ينمي عند شعوب مختلفة الأعراق، خصائص متشابهة»[11].

2-ومما لاشك فيه أن الغالية الساحقة بين يهود الشتات كانت تتعاطى التجارة، ومنذ أمد بعيد أصلا، شكلت فلسطين طريقا تعبر فيها البضائع، وجسرا بين وادي النيل ووادي الفرات. «كان من الحتمي أن تكون سوريا هدفا للغزاة، وطريقا تمر فيها البضائع، وتعبر فيها الأفكار، لهذا نفهم أنه مند زمن طويل، تمركز في تلك المناطق عدد كبير من السكان ومدن كبيرة تؤهلها مواقعها للتجارة»[12].

تفسر الظروف الجغرافية لفلسطين إذن، وفي آن واحد، قيام الهجرة وطابعها التجاري. ومن ناحية ثانية يتكوّن التجار في بداية تطور الأمم من الغرباء. «يمتاز الاقتصاد الطبيعي، بأن كل مقاطعة تنتج كل مستهلك، وتستهلك كل ما تنتج، ولا دافع إذن لابتياع حاجات وخدمات الغير. وفي اقتصاد ينتج فيه المرء كل ما يستهلكه، نرى لدى جميع الشعوب أن التجار الأوائل هم الأجانب»[13].

---

[7]- سمعان بركوكبا: زعيم التمرد اليهودي الثاني «132-135». –المترجم-

[8]- الغيتو Ghetto أي «الحي اليهودي» المنعزل.

[9]- أ. روبن: اليهود في العالم الحديث، باريس، 1934.

[10]- فلافيوس يوسيفوس: «حرب اليهود».

[11]-ك. كاوتسكي، في «النوي زايت».

[12]- أ. لودز: إسرائيل. «منذ نشوؤها حتى أواسط القرن الثامن» باريس 1930.

يعدد فيلون (Philon) المدن الكثيرة التي استقر فيها اليهود كتجار، فيقول إنهم، «كانوا يسكنون في عدد لا يحصى من مدن أوروبا وأسيا وليبيا، في القارات والجزر، قرب الشواطئ وفي المناطق الداخلية». فاليهود الذين سكنوا في الجزر والأقاليم الهيلينية وفي الغرب استقروا من أجل أهداف تجارية «ونجد اليهود، كالسوريين، منتشرين أو بالأحرى مجتمعين في كل المدن، كانوا بحارة وسماسرة، وصيارفة، وكان تأثيرهم فعالا في الحياة الاقتصادية كتأثير الشرق في ميدان الفن والأفكار الدينية»[14].

وتمتع اليهود بفضل مركزهم الاجتماعي، بالحكم الذاتي الواسع، الذي منحهم إياه الأباطرة الرومان، فسمح لهم من دون غيرهم بتشكيل دولة ضمن دولة، وتمتعوا باستقلال نسبي، بينما كان باقي الغرباء يخضعون لسلطة المدينة وإدارتها و«منح القيصر مصالح اليهود في الإسكندرية وروما امتيازات ونعما خاصة، وحمى عبادتهم تجاه الكهنة الإغريق والرومان»[15].

3-لم تبتدئ كراهية اليهود مع استتباب سلطة المسيحية، فقد أطلق سينيك (Seneque) على اليهود، لقب العنصر المجرم، أما جوفينال (Juvenal) فيعتقد بأن اليهود لم يولدوا إلا لخلق المتاعب لسائر الشعوب، ويقول كنتيليان (Quintilien) بأن اليهود شؤم على غيرهم من البشر.

إن للاسامية القديمة واللاسامية في العصور الوسطى سببا واحدا، يكمن في معارضة كل مجتمع يرتكز أساسا على إنتاج قيم استعمالية للتجار. «لم يكن مبعث العداء ضد التجار في العصور الوسطى من وحي مسيحي أو شبه مسيحي فقط، بل له منبع وثني حقيقي. إن للعداء هذا جذورا عميقة في إيديولوجية طبقية، في موقف طبقات المجتمع الروماني الحاكمة التي كانت تزدري –بحكم تقليد فلاحي عميق- جميع أشكال النشاط الاقتصادي غير المرتبطة بالزراعة»[16].

لكن وإن كانت اللاسامية متطورة جدا في المجتمع الروماني، فقد كان مركز اليهود مرموقا، كما رأينا. إن عداء الطبقات الفلاحية للأعمال التجارية لا ينفي تبعية الفلاحين للتجار. إن المالك يحقد على التاجر ويحتقره، لكنه لا يستطيع الاستغناء عنه .

ولم يأت انتصار المسيحية بتبدلات تذكر حول هذا الموضوع. فقد تحولت المسيحية بسرعة إلى عقيدة تعتنقها طبقة الإقطاعيين الحاكمة بعدما كانت ديانة العبيد والمضطهَدين. وقسطنطين الأكبر (Constantin Le Grand) هو الذي أرسى عمليا أسس القنانة في القرون الوسطى. وقد ترافق تقدم المسيحية الظافر عبر أوروبا بامتداد الاقتصاد الإقطاعي، ولعبت الأديان دورا فائق الأهمية في تقدم المدنية التي كانت تستند في ذلك العهد على تطور الزراعة القائمة على القنانة. «ألم تولد المسيحية اليهودية؟ ألم تتشكل في بادئ الأمر من اليهود؟ فلماذا نتعجب إذا رأينا أنه اعترضت المسيحية صعوبات خلال القرون الأربعة الأولى منذ نشأتها عند اليهود أكثر مما عند غيرهم، في اكتساب مشيعين للمسيحية[17].

وفي الواقع كان الاعتقاد المسيحي خلال القرون العشرة الأولى من عصرنا، فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية «إنه من الصعب أن يرضي الله عن التاجر وإن أي تجارة تحتوي قسطا لا بأس به من الغش»[18]. وكانت حياة اليهود بالنسبة للقديس امبرواز (Ambroise)، الذي عاش في القرن الرابع، غريبة جدا، وكان يحتقر كثيرا ثروات اليهود ويعتقد بأن مصيرهم الأكيد هو الهلاك الأبدي. فلا يوجد أية غرابة إذن في عداء اليهود الوحشي للكثلكة. ولا تفسر محافظة اليهود على دينهم، المعبر الصادق عن مصالحهم الاجتماعية، كمجموعة اجتماعية متميزة نتيجة لإخلاصهم الديني، بل بالعكس، فان محافظتهم كمجموعة اجتماعية متميزة هي التي تفسر تعلقهم بالإيمان.

ولم تهدف اللاسامية المسيحية القرون العشرة الأولى من العصر المسيحي –كالعداء القديم لليهود –إلى المطالبة بإفناء اليهودية. فبينما كانت المسيحية الرسمية تضطهد، بدون رحمة، عبادة الأصنام والخروج عن الدين، كانت من جهة أخرى تتسامح مع الدين

---

[13]- ل. بنتانو: بداية الرأسمالية الحديثة. ميونيخ 1916، ص 15.

[14]- ه. بيرن H, Pirenne (محمد وشارلمان). باريس 1937، ص3.

[15]- مومسن (Mommsen): التاريخ الروماني. باريس 1882.

[16]- هنري لوران (Laurent): دين وأعمال. بروكسيل 1938.

[17]- ج. جوستير(Juster): اليهود في الإمبراطورية الرومانية. باريس 1914.

[18]- ه. لوران (Laurent): المرجع السابق.

اليهودي. ولم يكف وضع اليهود عن التحسن، منذ أفول الإمبراطورية الرومانية بعد الانتصار الكامل للمسيحية، حتى القرن الثاني عشر. وبانهيار الأوضاع الاقتصادية ازدادت أهمية الدور التجاري لليهود، حتى أنهم شكلوا في القرن العاشر، الرباط الاقتصادي الوحيد بين أوروبا وآسيا .

4-ابتداء من القرن الثاني عشر، ومع تطور الاقتصاد في أوروبا الغربية ونمو المدن ونشوء طبقة تجارية وصناعية محلية، بدأ وضع اليهود بالتفاقم بجدية، مما أدى إلى إخراجهم من معظم البلدان الغربية تقريبا، واتخذ اضطهاد اليهود طابعا عنيفا متزايدا، بينما استمر وضعهم مزدهرا حتى وقت قريب، في بلدان أوروبا الشرقية المتخلفة.

بهذه الاعتبارات الأولية نرى مدى خطأ التصور العام المسيطر في ميدان التاريخ اليهودي. فاليهود يشكلون في التاريخ، قبل أي شيء آخر، مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادي محدد: إنهم طبقة أو على الأصح شعب –طبقة.

إن مفهوم الطبقة لا يتعارض البتة مع مفهوم الشعب، فلأن اليهود حافظوا على كيانهم ضمن طبقة اجتماعية، فقد صانوا أيضا بعضا من خصائصهم الدينية والعرقية واللغوية.

إن هذا التطابق بين الطبقة والشعب (أو العرق) هو غير استثنائي في مجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيت تتميز الطبقات الاجتماعية، غالبا، بطابع قومي أو عرقي، و«ليست الطبقات السفلى والطبقات العليا في عدة بلدان إلا شعوبا غازية أو شعوبا مستبعدة من عصر سابق، وقد شكل عرق المحتلين طبقة نبيلة مرفهة وطفيلية. أما العرق المحتل، فلم يعش من السلاح، بل من العمل»[19]. ويقول كاوتسكي بدوره: «يمكن لطبقات مختلفة أن تكتسب طابعا عنصريا معينا، ومن جهة أخرى، يمكن أن يؤدي تلاقي أعراق مختلفة –مخصصة كل منها في عمل معين إلى احتلال كل عرق مركزا اجتماعيا متميزا، ضمن نفس الجماعة، ومن المعقول عندئذ أن يصبح العرق طبقة».

إن التشابك المستمر بين الطابع العرقي أو القومي من جهة، والطابع الطبقي، من جهة أخرى، جلي وواضح، فقد أثر وضع اليهود الاجتماعي تأثيرا عميقا وفاصلا على طابعهم القومي. وإذا لم يكن هناك من تناقض في مفهوم الشعب-الطبقة، فسهل أكثر قبول التشابك بين الطبقة والدين. فكلما توصلت طبقة ما إلى مرحلة معينة من النضوج والوعي، تتلبس معارضتها للمجموعة المسيطرة أشكالا دينية. فمن هرطقات الالبيين واللولارد والمانويين والمزدكيين، وطوائف لا تحصى كانت تتكاثر في مدن العصور الوسطى، خرجت أوائل المظاهر الدينية، لمعارضة البرجوازية والشعب المتصاعدة ضد الإقطاع. ولم تتمكن هذه الهرطقات من الوصول إلى مصاف الديانة المسيطرة بسب الضعف النسبي للبرجوازية في العصور الوسطى، فخُنقت بوحشية ودموية، ولم تتمكن البرجوازية -التي كانت تزداد قوتها- من إنجاح اللوثرية وخاصة الكالفينية وتابعيها الإنكليز، إلا في القرن السابع عشر.

وبينما عبَّرت الكاثوليكية عن مصالح النبلاء العقاريين والإقطاعيين وعبّضرت «الطهرانية» (أو البوريتانية) عن مصالح البرجوازية أو الرأسمالية، عبَّرت اليهودية عن مصالح طبقة تجارية في عهد ما قبل الرأسمالية.

تختلف «الرأسمالية» اليهودية عن الرأسمالية بمعناها العلمي، أي أنها -أي الرأسمالية «اليهودية» –لا تنطوي على أسلوب إنتاج جديد، «فللرأسمال التجاري –كما يقول ماركس في رأس المال- وجود متميز ومنفصل بوضوح عن فروع الإنتاج التي يعمل كوسيط لها». و«كانت الشعوب التي مارست التجارة في العصر القديم كآلهة أبيقور في أحشاء الأرض، **أو بالأحرى كاليهود في مسام المجتمع البولوني**»، و«يستخدم الربا والتجارة أسلوبا معينا من الإنتاج، لا يخلقانه بل يبقيان غريبين عنه»[20].

لم تتراكم النقود بن أيدي اليهود بفضل أسلوب إنتاج معين، أي من الإنتاج الرأسمالي، وتأتي فائض القيمة أو (فائض الإنتاج) من الاستغلال الإقطاعي، وكان الأسياد مجبرين على التخلي عن جزء من فائض القيمة هذه لليهود. من هنا نشأ الخلاف بين اليهود والإقطاع، وللسبب نفسه وُجد الرباط العضوي بينهما. ومثّل الإقطاع بالنسبة لليهودي، كما للسيد، مصدرا إنتاجيا مهما، وكان السيد بحاجة لليهودي، ولم يكن هذا الأخير بغنى عن السيد. فبسبب ذلك الوضع الاجتماعي، لم يتمكن اليهود من الوصول إلى مصاف الطبقة المسيطرة، ولا يمكن أن تلعب الطبقة التجارية، في الاقتصاد الإقطاعي، إلا دورا تابعا. لهذا كانت اليهودية ديانة يغض النظر عنها بقدر أو بآخر.

---

[19]- أ. تييري A.Thierry تاريخ اجتياح إنكلترا من النورمان 1825.

[20]- كارل ماركس: رأ المال.

لقد رأينا أنه كان لليهود في العصر القديم محاكمهم الخاصة، كما كانت لهم في العصور الوسطى. «كانت كل طبقة في مجتمع العصور الوسطى الهلامي، تعيش في إطار تقاليدها الخاصة، ولها محاكمها الذاتية، وفضلا عن التنظيم القضائي للدولة، كان للكنيسة محاكمها الروحية، وللنبلاء محاكمهم الإقطاعية وللفلاحين نظامهم القضائي، وأصبح للبرجوازية بدورها هيئة قضائها الخاصة»[21].

كان يُطلق على التنظيم الخاص باليهود اسم «الكحيلا» (Kehila)، وكان كل تجمع لليهود منظما في مجموعة (كحيلا)، لها حياتها الاجتماعية الخاصة، وتنظيمها القضائي الخاص، وقد بلغ هذا التنظيم أعلى درجة من الكمال في بولونيا. فقد شرّع الملك سيغسموند أوغست عام 1551، قانونا أجاز فيه لليهود اختيار قضاتهم وحاخاميهم ليديروا شؤونهم، أما تدخل محاكم الإقطاعيين فلا يجري إلا في الدعاوي بين اليهود وغير اليهود، وكان سكان التجمعات اليهودية يختارون بحرية مجلس المجموعة أو (كاحال)الذي يمتد نشاطه إلى أعمال واسعة وكان يتوجب على المجلس جباية ضرائب للدولة، وتقسيم الضرائب العامة والخاصة، وإدارة المدارس الابتدائية والعليا، وتدبير جميع المسائل المتعلقة بالتجارة والحرف والإحسان، والاهتمام بتنظيم الخلافات بين أعضاء المجموعة، وتمتد سلطة كل«كاحال» لتشمل يهود القرى المجاورة .

ومع مرور الزمن، اعتادت مجالس المجموعات اليهودية المختلفة، أن تجتمع على صعيد المناطق، بفترات منتظمة، للتشاور في المسائل الإدارية والقضائية والدينية، فاتخذت تلك المؤتمرات عندئذ شكل البرلمانات الصغيرة. فبمناسبة معرض لوبلين الكبير كان يجتمع ممثلو بولونيا الكبرى وبولونيا الصغرى وبودوليا وفولهينيا، في شبه برلمان عام، اتخذ اسم (فادا أربا أراتزوث) أو «مجلس البلاد الأربعة».

ولم يتوان المؤرخون اليهود التقليديون عن اعتبار هذا التنظيم نوعا من الحكم الذاتي القومي. يقول دوبنوف: «شكّل اليهود في بولونيا القديمة أمة تتمتع بحكم ذاتي وإدارة داخلية ومحاكم واستقلال حقوقي محدد»[22].

إنه لمن الواضح أن الكلام عن حكم ذاتي قومي في القرن السادس عشر هو بحد ذاته خطأ تاريخي صارخ وكانت تلك الفترة تجهل كل مسألة قومية، ففي المجتمع الإقطاعي، كان للطبقات وحدها محاكمها خاصة بها. ولا يفسر الحكم الذاتي عند اليهود «بانتمائهم القومي»، إنما بوضعهم الاجتماعي والاقتصادي الخاص. ويعكس التطور اللغوي أيضا، وضع اليهود الاجتماعي الخاص.

لقد اختفت العبرية باكرا، كلغة حية، وتبنّى اليهود في كل مكان لغة الشعوب المجاورة، لكن هذا التكيف اللغوي كان يأخذ شكل لهجة جديدة ترد فيها بعض العبارات العبرية، فنجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية-عربية، وعبرية-فارسية، وعبرية-بروفنسية، وعبرية-برتغالية، وعبرية-أسبانية الخ، هذا ما عدا الإشارة إلى العبرية-الألمانية التي أصبحت اللغة الايدشية في عصرنا الحاضر. وتعبِّر اللهجة عن اتجاهين متناقضين طبعا: الايدشية الحياة اليهودية بطابعهما: إتجاه أول نحو الاندماج في المجتمعات المجاورة واتجاه آخر انعزالي مصدره الواقع الاجتماعي والاقتصادي لليهود.

واندمج اليهود تماما في المجتمعات المجاورة، حيثما توقفوا عن تكوين جماعة اجتماعية متميزة، و«ليس الاندماج حدثا جديدا في التاريخ اليهودي» كما يقول العالم الاجتماعي الصهيوني روبِّينRuppin[23] .

وفي الواقع ، إدا كان قسم من تاريخ اليهود هو المحافظة على اليهودية، فهو في قسمه الآخر تاريخ تمثل جماهير واسعة من اليهود.«كان عدد كبير من اليهود يمارس الزراعة في شمال إفريقيا، قبل الإسلام، وقد اندمج معظمهم بالسكان المحليين»[24]. ويفسر هذا الاندماج بكون اليهود تحولوا من تشكيلهم طبقة اجتماعية متميزة ليصبحوا مزارعين. «ولو تعاطى اليهود الزراعة

---

[21]- هنري بيرن (H, Pirenne) الديموقراطيات القديمة قي هولندا باريس 1910.
H.Pirenne: anciennes Democraties des Pays-Bas.

[22]- محاضرة ألقاها س.م دوبنوف في اجتماع «المجمع التاريخي لوصف الحضارات» في سان-بطرسبرغ (مستقاة من مقالة في مجلة فوشود عدد 12، 1894 باللغة الروسية).

[23]- أ. روبِّين (A.Ruppin) اليهود في العالم الحديث. باريس 1934.

[24]- أ. روبِّين: المصدر السابق.

لتشتتوا في أنحاء البلد، وهذا ما قد يؤدي بعد عدة أجيال إلى اندماج كامل ببقية السكان، بالرغم من الفارق الديني. لكن تعاطيهم التجارة وتجمعهم في المدن، حملهم على تكوين مجموعات متميزة وحياة اجتماعية منفصلة، لا يعاشرون ولا يتجاوزون إلا فيما بينهم»[25].

ويمكننا أن نشير أيضا إلى تنصر العديد من الملاك العقاريين اليهود في ألمانيا في القرن الرابع، والزوال التام للقبائل اليهودية المحاربة في الجزيرة العربية، واندماج اليهود في أمريكا الجنوبية، وسورينام الخ. ويمكننا أن نصيغ قانون الاندماج بهذا الشكل: حيثما يتوقف اليهود عن تشكيل طبقة، تختفي، بقدر أو بآخر، من السرعة، خصائصهم العرقية والدينية واللغوية، ويندمجون.

إنه ليس من السهل إرجاع التاريخ اليهودي في أوروبا إلى حقبات تاريخية معينة، إذ تختلف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من بلد إلى آخر. فبينما كانت بولونيا وأوكرانيا في أوج النظام الإقطاعي، عند نهاية القرن الثامن عشر، جرى تطور مطرد للرأسمالية في أوروبا الغربة، في الحقبة التاريخية نفسها. إننا نفهم بسهولة، أن يكون وضع اليهود في بولونيا يشابه وضع اليهود الفرنسيين في العهد الكارولينجي، أكثر مما يشابه وضع أبناء دينهم في مدن بوردو أو باريس. كتب يهودي فرنسي إلى فولتير يقول «إن اليهودي البرتغالي في مدينة بوردو يختلف تماما عن اليهودي الألماني في مدينة متز». ولم يكن للأغنياء الفرنسيين والهولنديين اليهود أي رباط مع يهود بولونيا، الذين يشكلون طبقة في المجتمع الإقطاعي.

وبالرغم من الفوارق الكبيرة في الظروف الاجتماعية ونسق التطور الاقتصادي للبلدان الأوروبية المقطونة من اليهود، فإن دراسة دقيقة تمكننا من استخلاص المراحل الرئيسية لتاريخهم .

---

[25]- أ. روبّين: المصدر السابق.

1-مرحلة «ما قبل الرأسمالية»

اتسمت تلك المرحلة بثراء اليهود الفاحش، ووجد «الرأسمال» التجاري والربوي إمكانيات كبيرة للتوسع في المجتمع الإقطاعي، فكان اليهود في حمى الملوك والأمراء، ولم تكن علاقاتهم مع سائر الطبقات سيئة.

وامتد ذلك الوضع في أوروبا الغربية حتى القرن الحادي عشر. ففي العهد الكارولنجي -عهد ذروة التطور الإقطاعي- بلغ ازدهار اليهود أوجه وبقي الاقتصاد الإقطاعي مسيطرا في أوروبا الشرقية حتى أواخر القرن الثامن عشر، وإلى هناك أيضا انتقل تدريجيا مركز الحياة اليهودية .

2- مرحلة الرأسمالية في العصور الوسطى

ابتداء من القرن الحادي عشر، دخلت أوروبا الغربية في مرحلة التطور الاقتصادي الكثيف، وتتميز أول مرحلة من مراحل هذا التطور بخلق صناعة حرفية وبرجوازية تجارية محلية. وتحددت المرحلة الثانية بغزو الاقتصاد البضاعي للميدان الزراعي. وأدى تطور المدن، ونمو طبقة تجارية محلية إلى طرد اليهود من التجارة وتحويلهم إلى مرابين، أما عملاؤهم الرئيسيون، فكانوا من النبلاء والملوك. وأدى تحول الاقتصاد الزراعي إلى اقتصاد بضاعي، إلى نسف مراكز المرابين أيضا.

فقد مكن الوفر النسبي للأموال النبلاء من زعزعة سيطرة الربا، فطُرد اليهود من بلد بعد الآخر واندمج قسم منهم بالبرجوازية المحلية. وفي بعض المدن، وبالأخص في ألمانيا وإيطاليا، اهتم اليهود بشكل رئيسي بإقراض الجماهير الشعبية من الفلاحين والحرفيين وأصبحوا مرابين صغارا يستغلون الشعب، لذلك كانوا أحيانا ضحايا انتفاضات دموية.

وشهدت مرحلة الرأسمالية في العصور الوسطى، بصفة عامة، أعنف الاضطهادات ضد اليهود، و دخل «الرأسمال اليهودي» في صراع مع جميع طبقات المجتمع. وأثر تفاوت التقدم الاقتصادي في بلدان أوروبا الغربية على أشكال الصراع اللاسامي. ففي بعض البلدان قاد النبلاء الصراع ضد اليهود، وفي أخرى قامت البرجوازية بهذا الدور، وفي ألمانيا شن الشعب الحرب ضدهم.

وكانت رأسمالية العصور الوسطى مجهولة أو شبه مجهولة في أوروبا الشرقية، ولا فصل بين الرأسمال التجاري والربوي، فبعكس أوروبا الغربية، حيث أصبحت كلمة يهودي مرادفة لكلمة مراب، كان اليهود في أوروبا الشرقية، قبل أي شيء آخر، تاجرا ووسيطا. فبينما أقصي اليهود تدريجيا من البلدان الغربية، كانوا يثبتون وضعهم باستمرار في شرق أوروبا. وإنما بعد تطور الرأسمالية في القرن التاسع العاشر (الرأسمالية هذه المرة لا الرأسمالية الحرفية) أخذ وضع يهود روسيا وبولونيا المزدهر بالارتجاج.

«لم يبدأ بؤس اليهود في روسيا إلا منذ تدمير القنانة وتقويض النظام الإقطاعي للملكية الريفية. وقد وجد اليهود إمكانيات واسعة للاستمرار، كتجار ووسطاء، طوال المدة التي سيطر فيها القنانة والإقطاع»[26].

3-مرحلة الرأسمالية المانيفاتورية والصناعية

بدأت مرحلة الرأسمالي بحصر معنى الكلمة في عصر النهضة، وتجلت بادئ الأمر في امتداد هائل للعلاقات التجارية وتتطور المانيفاتورة. وقد شارك يهود أوروبا الغربية (وأعدادهم ضئيلة) في تطور الرأسمالي، لكن نظرية سومبارت، التي نسبت لليهود دورا مرجحا في التطور الرأسمالي، ليست بنظرية علمية، إذ لم يكن التطور الرأسمالية الحديثة إلا شؤما بالنسبة لوضع اليهود الاجتماعي، لأنهم كانوا يمثلون بالتحديد، رأسمالية بدائية (تجارية وربوية).

---

[26]- ورنر سومبارت: اوج الراسمالية. باريس 1932. W.Sombart: L'apogée du Capitalisme

إن هذا الواقع لاينفي –وهذا ما لا شك فيه- الاشتراك الفردي لليهود في خلق الرأسمالية الحديثة، ولكن حيثما كان اليهود يندمجون بالطبقة الرأسمالية، كانت تتم عملية تمثلهم وذوبانهم. فاليهودي المقاول الكبير أو المساهم في الشركة الهولندية أو الإنكليزية للهند موجود على عتبة التنصر، وكان سهل عليه أن يعبر هذه العتبة، وبذلك كان يسير تقدم الرأسمالية بالتساوي مع اندماج اليهود في أوروبا الغربية.

وإن لم تختف اليهودية تماما في الغرب، فهذا مرده هجرة اليهود الكثيفة من أوروبا الشرقية. فالمسألة اليهودية، المطروحة حاليا على الصعيد العالمي متأتية إذن، وفي الدرجة الأولى، من وضع اليهودية الشرقية، وليس هذا الوضع إلا نتيجة تأخر التطور الاقتصادي في ذلك الجزء من العالم. أما الأسباب الخاصة للهجرة اليهودية، فمرتبطة بالأسباب العامة لحركة الهجرة في القرن التاسع عشر.

حصلت الهجرة العامة في القرن التاسع عشر، ومعظمها كان نتيجة لبطء التطور الرأسمالي، بالنسبة إلى وتيرة انهيار الاقتصاد الإقطاعي والمانيفاتوري. فقد انضاف للفلاح الانكليزي الذي طردته «رأسملة» الاقتصاد الريفي، العامل الحرفي والمانيفاتوري.فقد إنضاف للفلاح الإنكليزي الذي طردته «رأسملة» الاقتصاد الريفي، العامل الحرفي والمانيفاتوري الذي طردته الآلة، فاضطرت هذه الجماهير الفلاحية والحرفية التي طردها النظام الاقتصادي الجديد، إلى البحث عن عيشها ما وراء المحيطات، لكن هذه الحالة لا تمتد إلى ما لا نهاية. ونتيجة للتطور السريع الذي أحرزته القوى المنتجة في أوروبا الغربية، وجد القسم الأكبر من السكان المحرومين من وسائل وجودهم ومعاشهم عملا كافيا في الصناعة. هكذا نجد أن هجرة الألمان مثلا نحو أميركا كانت مرتفعة في أواسط القرن التاسع عشر وتوقفت توقفا شبه نهائي في أواخر القرن، وحصل الأمر نفسه بالنسبة لإنكلترا وبقية دول أوروبا الغربية .

لكن، بينما كان يختفي اختلال التوازن في المجتمعات التي كانت تعيش في المرحلة الفاصلة بين انهيار الإقطاعية وتطور الرأسمالية في أوروبا الغربية، كان هذا الاختلال يتعمق بالمقابل في البلدان المتخلفة من الشرق الأوروبي. وجرى تدمير الاقتصاد الإقطاعي والأشكال البدائية للرأسمالية بسرعة تفوق سرعة تطور الرأسمالية الحديثة في البلدان الشرقية، فأخذت جماهير متكاثرة من الفلاحين والحرفين بالبحث عن النجاة في الهجرة. ففي أوائل القرن التاسع عشر، تشكلت أكثرية المهاجرين إلى أمريكا من الإنكليز والايرلنديين والألمان والاسكندنافيين، وبالمقابل أصبح السلاف واليهود العنصر الراجح بين الجماهير المتجهة نحو أميركا في نهاية القرن التاسع عشر.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر، بحثت الجماهير اليهودية عن اتجاهات جديدة للهجرة، فاتجهت بادئ الأمر داخل روسيا وألمانيا، وتمكن اليهود من الدخول إلى المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة، حيث لعبوا دورا تجاريا وصناعيا مهما مما أدى لأول مرة منذ قرون عديدة إلى **ولادة البروليتاري اليهودي**، فابتدأ الشعب-الطبقة عندئذ بالتميز اجتماعيا.

وتمركزت البروليتاريا اليهودية بصفة خاصة في قطاع وسائل الاستهلاك، وكانت حرفية بشكل رئيسي. وكلما وسعت الصناعة الكبيرة مجال استثمارها، مالت الفروع الحرفية من الاقتصاد إلى الزوال، فحلّ المصنع محل الحرفة، وظهر أن اندماج اليهود في الاقتصاد الرأسمالي غير ثابت، فاضطر العامل الحرفي اليهودي إلى الهجرة، تماما كالتاجر في نظام ما قبل الرأسمالية، وغادرت أعداد متكاثرة من اليهود أوروبا الشرقية نحو الغرب وأميركا. وأصبحت قضية حل المسألة اليهودية –أي اندماج اليهود في الاقتصاد- قضية عالمية.

4- مرحلة انحطاط الرأسمالية

وضعت الرأسمالية – بما أحدثته من تمايز اجتماعي في اليهودية ومن دمج لها بالاقتصاد ومن حفز لها على الهجرة -وضعت أسس حل المسالة اليهودية، لكنها لم تحلها، بل بالعكس، زادت أزمة النظام الرأسمالي في القرن العشرين من تفاقم وضع اليهود، بشكل منقطع النظير. ولم يتمكن اليهود المطردون من مراكزهم الاقتصادية التي كانت لهم في العهد الإقطاعي، من الاندماج في الاقتصاد الرأسمالي المتعفّن. ولا غرو أن تلفظ الرأسمالية جانبا، في اختلاجاتها وتشنجاتها، العناصر اليهودية التي لم تندمج فيها تماما.

ففي كل مكان، نمت لاسامية عنيفة عند الطبقات الوسطى التي ترزح تحت ثقل تناقضات الرأسمالية، واستعان الرأسمال الكبير بلاساميَّة البرجوازية الصغيرة البدائية، من أجل استقطاب الجماهير حول راية العنصرية، فسُحق اليهود بين نظامين، الإقطاعي والرأسمالي، اللذين يزيد كل منهما من تعفن الآخر.

الفصل الثاني

من العصور القديمة حتى العهد الكارولنجي
أو
مرحلة الازدهار التجاري عند اليهود

أ- قبل الفتح الروماني.

منذ عهد بعيد جدا، كان يتم تبادل السلع بين مصر وأشور-وهي أقدم مراكز الثقافة في العالم المتوسطي القديم- عبر سوريا وفلسطين. ويكمن الطابع التجاري للفينيقيين والكنعانيين في أهمية الموقع الجغرافي والتاريخي لهذين البلدين. وأصبح الفينيقيون من أوائل الشعوب التجارية في العصور القديمة بحكم وجودهم بين أول وأكبر مركزيين للحضارة. ففي البدء، كان الغرض الأول للتجارة الفينيقية السلع الآشورية والمصرية وكان الأمر كذلك بالنسبة للتجار الفلسطينيين. يقول هيرودوت بأن المنتجات الآشورية كانت من أقدم وأهم المواد في التجارة الفينيقية. ولم تكن الصلة بين الفينيقيين ومصر بأقل قدما. وتشهد أساطير التوراة الكنعانية والخرافات الفينيقية على العلاقات المتواصلة لشعوب هذه البلدان مع مصر، برا وبحرا. ويتحدث هيرودوت أيضا عن المنتجات المصرية المنقولة إلى اليونان بواسطة الفينيقيين منذ فترة بعيدة جدا.

ولكن إذا كان موقع فلسطين الجغرافي ملائما لمرور البضائع بين مصر وأشور، كموضع فينيقيا. فقد افتقرت فلسطين إلى سهولة الملاحة التي تمتعت بها سوريا، فيما كان يتوفر لدى فينيقيا كل ما تحتاج إليه التنقلات البحرية. كان الأرز والشربين اللبنانيان، مصدرين لخشب البناء، والنحاس والحديد متوفرين في جبال لبنان وجوارها، وعلى الشاطئ الفينيقي تترامى مرافئ طبيعية عدة، صالحة للملاحة، فلا نعجب إذن بأن نرى، أنه في وقت مبكر ابتدأت السفن الفينيقية، المُثقلة بالبضائع المصرية والآشورية، بشق الطرق البحرية للعالم القديم. «ومكنت العلاقات السياسية والمركنتيلية بين فينيقيا ودول النيل والفرات العظيمة –وهي علاقات بدأت منذ أكثر من ألفيي سنة ق.م .- من امتداد التجارة الفينيقية حتى شواطئ بلدان المحيط الهندي»[27]، وقرّب الفينيقيون بين أكثر شعوب وحضارات العصور القديمة تباينا .

وخلال قرون طويلة، حافظ الفينيقيون على احتكار التجارة بين البلدان الشرقية المتطورة نسبيا والبلدان الغربية المتخلفة. ففي عصر سيطرة الفينيقيين التجارية، كانت الحالة الاقتصادية متخلفة جدا في جزر المتوسط الغربي والبلدان المحاذية لها «وهذا لا يعني بأن التجارة كانت مجهولة في المجتمع الهوميري، ولكنها كانت مقتصرة تقريبا،عند اليونانيين، على الاستيراد ويظهر أن الإغريق كانوا يقايضون المواد الأولية أو الثمينة والمصنوعات التي كان يقدمها البحارة الغرباء، بالماشية»[28]. لكن هذا الوضع الذي كان في غير صالح السكان المحليين لم يدم طويلا. فقد أصبحت التجارة الفينيقية نفسها من أهم دوافع تطور الاقتصاد اليوناني، وقد ساعد الاقتصاد الهيليني الذي توسَّع كثيرا، بين القرنيين التاسع والسابع قبل المسيح، على نهضة اليونان، فانتشر المستعمرون الإغريق في كل الاتجاهات بالبحر المتوسط، وتكاثرت المدن الإغريقية. ويرجع توكيديد Thucydide وأفلاطون سبب الهجرة الإغريقية إلى نقص الأراضي.

وترافق تتطور الاستعمار مع نهضة مدهشة (بالنسبة إلى ذلك العصر) للصناعة والتجارة الهيلينية. وأدى التطور الاقتصادي لليونان إلى تراجع التجارة الفينيقية. «كان الفينيقيون في الماضي ينزلون بضائعهم في الأحواض اليونانية، ويأخذون بالمقابل مواد محلية، مكونة على ما يظن، في أغلب الأحيان، من الماشية. وفيما بعد، نقل البحارة الإغريق بأنفسهم، إلى مصر وسوريا وآسيا الصغرى، وإلى شعوب أوروبا كالأترسك والسيت والغال والليغور والايبيريين، المصنوعات والتحف الفنية والأقمشة والأسلحة والمجوهرات والأوعية الملونة ذات الشهرة الواسعة والمرغوبة لدى البرابرة»[29]. ويظهر أن الفترة الممتدة بين القرنين السادس والرابع ق.م. كانت مرحلة أوج الاقتصاد اليوناني. «وما يميز هذه الحقبة الجديدة، هو تزايد المهن وانتظامها وتخصصها

---

[27]- موفرس E.C.Movers الفينيقيون. بون 1841 -56 Die Phonizier

[28]- ج.توتان J.Toutain الاقتصاد القديم باريس 1927 L'économie antique

[29]- ج.توتان: المرجع السابق.

وقطع تقسيم العمل أشواطا بعيدة[30]. وخلال حرب البيلوبونيز، كان هيبونيكاس Hiponicas يستخدم ست مائة عبد، كما سخَّر نيسياس Nicias ألفين أخريين في المناجم.

ودفع هذا التطور الاقتصادي الهام لليونان أغلب العلماء البرجوازيين إلى التحدث عن «الرأسمالية الإغريقية»، وذهب هؤلاء إلى حد تشبيه الصناعة والتجارة لهيلينيين، بالحركة الاقتصادية الواسعة في العصر الصناعي.

والواقع أن الزراعة بقيت القاعدة الاقتصادية لليونان ولمستعمراتها: «لم تكن المستعمرة الإغريقية مستعمرة تجارية، وإنما على الدوام مستعمرة عسكرية وزراعية»[31]. وهكذا يتحدث استرابون عن أهالي بلدة «كوم» وهي مستعمرة يونانية في إيطاليا- بأنهم لم يطلعوا على قرب مدينتهم من البحر، إلا بعد ثلاثمئة سنة من إقامتهم فيها. ولا جدال في أن الطابع الأساسي للحياة الاقتصادية في العالم الهيليني كان زراعيا. ولا إمكانية في تشبيه الصناعة الإغريقية القديمة بالصناعة الحديثة، «إذا بقيت وسائل التنظيم والإنتاج الحرفية»[32]. وكانت المناجم هي وحدها التي تقدم مشهدا شبيها بالذي نعرفه اليوم بالنسبة لقوة العمل على الأقل.

وبالرغم من التوسع الكبير، بقيت الصناعة والتجارة بين أيدي الغرباء أي (Meteques) مما يظهر بوضوح هامشية دورهما في الاقتصاد الإغريقي. «ويبقى دور الغرباء راجحا في التجارة المتمركزة في أثينا، كما في الصناعة»[33]. وتدلنا سجلات مدينة ديلوس، وهي مركز تجاري كبير، على أن جميع التجار هم من الغرباء.

وكان المواطن الإغريقي يحتقر التجارة والصناعة، إذ كان قبل أي شيء آخر مالكا عقاريا، وعارض أرسطو وأفلاطون اعتبار التجار أعضاء في المدينة. فعلينا إذا ألا نبالغ في أهمية التطور الصناعي والتجاري في اليونان، إذ كان التوسع الإغريقي يستند أساسا على الزراعة والأعمال العسكرية. ولكنه كان يترافق مع ذلك بتطور صناعي وتجاري على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة إلى ذلك العصر. ولم يصبح الإغريق قط شعبا تجاريا، كالفينيقيين واليهود، ولكننا نشهد نهضة تجارية وصناعية في المستعمرات الإغريقية ثم في الممالك الهيلينية. وبالرغم من أن الدول الإغريقية لم تكن دولا مركنتيلية فعلا، فقد كانت تدعم بكل قواها التجارة والصناعة، وهما من أهم الموارد المالية.

ولا يمكننا أن نعزي أفول التجارة الفينيقية إلى التطور الاقتصادي في اليونان فحسب، إذا كان هناك سبب مهم آخر: إنه التناقض المتنامي بين بلاد فارس واليونان، فبالتوزازي مع تطور الحضارة الهيلينية نشهد تقدم الفرس المظفر عبر آسيا. وقد بلغت الإمبراطورية الفارسية أوجها في القرن الخامس، وامتدت إلى جزء من آسيا ومصر.

وقضى التطور المتوازي للحضارتين الإغريقية والفارسية نهائيا على التجارة الفينيقية، وأصبحت التجارة بدون شك صعبة جدا بين آسيا وأوروبا، بعد اقتسام العالم المتوسطي بين مجتمعين متعاديين. فقد خلق كل من العالمين الفارسي والإغريقي شبكة تجارية خاصة به.

يمكننا الافتراض بأن فلسطين –بعد ما حلّت فينيقيا محلها بصورة تامة في ما مضى- عادت تلعب دورا تجاريا هاما مع الانهيار الفينيقي وتطور التجارة الآسيوية بعد مرحلة الفتوحات الفارسية، واستعادت الطريق بين مصر وبابل كل قيمتها. وفيما أخذت التجارة الفينيقية تفقد تدريجيا أهميتها القديمة، حتى أن تجارة اللحوم المملّحة باتت تشكل المصدر الرئيسي لتغطية نفقاتها في عهد لوسيان، قام اليهود، في الإمبراطورية الفارسية بدور تجاري أساسي.

وينسب بعض المؤرخين للمنفى البابلي، دورا هاما في تحويل اليهود إلى شعب تجاري، «وتحوّل اليهود في بابل إلى شعب تجاري، كما نعرف في تاريخ العالم الاقتصادي، ووجدوا عند البابليين علاقات اقتصادية متطورة جدا. وتبين النصوص

---

[30]- ج.توتان: المرجع السابق.

[31]- هاذيبروك (Hasebroek) المدن والتجارة في اليونان القديمة، تو بنجن 1928.

[32]- هاذيبروك: نفس المصدر.

[33]- بيير روسّل: اليونان والشرق،وباريس 1928 (Pierre Roussel)

المسمارية التي وجدت أخيرا، مساهمة اليهود المنفيين وفعالية دورهم في الحيات التجارية، إذ كانوا يهتمون بالتسليف الذي بلغ حدا متطورا جدا عند البابليين، وكانوا أيضا تجارا كبارا»[34].

لكن تشتيت اليهود حصل بالتأكيد، قبل النفي البابلي. «هناك أسباب مهمة لقبول وجود الشتات النفي»[35]. وهناك ميل إلى المبالغة الشديدة بأهمية النفي أيام نبوخذ نصر، والواقع أنه لم تمس إلا مصالح قسم من الطبقات الحاكمة بتدابير ملك بابل، ولم يبرح أغلبية اليهود القاطنين فلسطين من مكانهم. وإذا ما رأينا في العهد الفارسي يهودا مشتتين في أنحاء الإمبراطورية الفسيحة، وسافر أستير بليغ في هذا الموضوع، فإن من السخف أن نرى في هذا الحدث نتيجة للنفي البابلي الذي دام خمسين عاما. كما أنه من السخف الاعتقاد بأن الشعب اليهودي عاد إلى فلسطين في عهدي عزرا ونحميا. لقد كان عمل هذين الأخيرين قبل أي شيء آخر، دينيا، إذ كان مرتبطا بإعادة تشييد الهيكل، وإعادة بناء عاصمة دينية لليهود المشتتين. «بالغ المؤرخون بأهمية دور اليهود الفلسطينيين في العهد الفارسي، وحلّلوا الأمور كما لو أن كل تاريخ إسرائيل قد تمركز حول الجبل المقدس بعد ترميم المقدس، وكما لو أن الشعب بأكمله قد عاد حقيقة من المنفى وسكن في أرض تبلغ مساحتها بضع مئات من الكيلومترات بين تقوع وحبَّه وأريحا. وفي الواقع لم يكن يهود بلاد يهودا يمثلون إلى جزءا بسيطا من اليهودية، وربما لم يكن الجزء الأكثر حيوية»[36].

ويتوجه مرسوم قورش إلى يهود الشتات بما يلي : «فليساعد اليهود الباقون، أينما يقطنون أولئك الذاهبين إلى فلسطين بالفضة والذهب والسلع والماشية، بالإضافة إلى ما يريدون تقديمه لهيكل الرب في أورشلييم». ويتحدث سفر عزرا على أن جميع الذين كانوا في الجوار وضعوا بين أيدي 42000 يهودي عائدين إلى فلسطين، أواني من الفضة والذهب وماشية وأثاثا. إنه لمن المؤكد أن الأمر هنا لا يتعلق بعودة جماعية إلى فلسطين، بل من أجل إعادة بناء الهيكل. وكانت تقع أهم مستعمرات الشتات منذ القرن الخامس ق.م خلال العهد الفارسي، في بلاد مابين النهريين وبلاد الكلدانيين ومصر، وتسلط هذه المستعمرات الأضواء على وضع المستعمرات اليهودية في الشتات في ذلك العهد.

ويظهر من ملفات تخص إحدى العائلات اليهودية بأن «اليهود يتعاطون التجارة، يشترون ويبيعون المنازل والأراضي، يقرضون الدراهم، يديرون أموال الغير، وضالعون في المسائل القانونية». إنه لجدير بالملاحظة أن الأغاني والقصص نفسها كانت باللغة الآرامية مما يظهر أن اليهود هجروا اللغة العبرية منذ القرن الخامس قبل المسيح، وكانت اللغة الآرامية، وهي اللغة التجارية، من أهم اللغات الآسيوية في تلك الحقبة[37] ولم يكن دين يهود جزيرة الفيلة[38] بمستوى التطور الذي وصل إليه الدين الرسمي الذي سُنّ في عهد عزرا-نحميا. وفي عارضة موجهة للحاكم الفارسي، طلب اليهود السماح بإعادة تشييد هيكلهم، والحال أن إصلاح عزرا-نحميا كان يرمي إلى جمع يهود الشتات كافة حول هيكل القدس وحده. وبالفعل، انصبت على القدس بالذات، حتى العام سبعين، هبات اليهود المشتتين في العالم.

إن غنى هيكل أورشليم هو السبب الرئيسي لحملة الإمبراطور أنتياخوس على اليهود وقد «أعلمه سمعان بأن الخزينة العامة في القدس ملأى بمبالغ وافرة، وتحتوي ثروات عامة ضخمة». وصادر الملك ميثريدات بعد مدة فوق جزيرة كوس الصغيرة (وهي جزيرة في بحر ايجه) ثمانمئة حمل ذهب مرسلة إلى هيكل القدس، وفي العصر الروماني شكى شيشرون في خطاباته من المبالغ الضخمة التي كانت تتدفق على القدس.

وتشكل المرحلة الهيلينية عهد أوج اقتصاد العصور القديمة، وقد حطمت فتوحات الاسكندر الحواجز بين العالم الهيليني وأسيا ومصر. ونشأت المدن بسرعة في أنحاء الإمبراطورية الهيلينية. «ومن أكبر مؤسسي المدن، ليس فقط في ذلك العهد، بل في التاريخ، سَلوقُس الأول وابنه أنتياخوس الأول»[39]، وأنشأ ملوك العهد الهيليني مدنا جديدة تهدف إلى الحلول محل المدن الفارسية

---

[34]- برنتانو: الحياة الاقتصادية في العالم القديم بيينا L.Brentano 1929

[35]- أ.كوس: مشتتي اسرائيل. باريس A.Causse 1929

[36]- أ.كوس: المرجع السابق.

[37]- أ.كوس: المرجع السابق

[38]- جزيرة الفيلة وهي جزيرة في النيل تجاه أسوان اشتهرت أيام الفراعنة وتحتوي في الوقت الحاضر عدد من الآثار. –المترجم-

[39]- أدوارد ماير 1925 Blutecand Niedergang: des Hellenismus In Asien Berlin 1925.

والفينيقية القديمة. فعلى شواطئ سوريا احتل مرفأ أنطاكية مكانة مدينتي صور وصيدا القديمتين. وأسس سَلوقُس مدينة سلوقية على شاطئ دجلة، ليسلب بابل دورها الرئيسي في التجارة العالمية وقد حقق سلوقس مرماه في نهاية الأمر.

وفي الحين انحطت قيمة بابل التجارية، أصبحت سلوقية الهيلينية، على الأرجح أكبر مدن ذلك العهد. ويقول بلين (Pline) أن عدد سكانها بلغ 600000 نسمة. وإلى جانب سلوقية، أصبحت الإسكندرية وأنطاكية مركزي العالم الهيليني، وقد عرفت جميع تلك المدن، طوال العصر الهيليني ازدهارا لا جدال فيه.

ويظهر أن وضع اليهود قد توطد بعد فتوحات الإسكندر «فتمكن اليهود من انتزاع امتيازات خاصة عند السلوقيين واللاجيديين على حد سواء، وكانوا يشكلون في الإسكندرية -حيث يوجدون بكثرة، وقد اجتذبهم بطليموس الأول- جماعة منزوية تدير شؤونها بنفسها، ولا تقع تحت سلطة المحاكم الإفريقية»[40]. «واكتسب اليهود في أنطاكية، عاصمة سوريا، بعض الاستقلال الذاتي ومركزا ممتازا، وكذلك في مدينة سريين»[41]. وأدى وضع اليهود المتميز، ومركزهم الاقتصادي الخاص إلى الصدامات الخطيرة بينهم وبين سكان المدن التي كانوا يقطنونها. وكانت الصدامات تتوالى دون توقف، ليس فقط في المدن الفلسطينية، بل كذلك في الإسكندرية وسلوقية وسريين وقبرص، ولا علاقة لتلك الصدامات بالخلافات القومية الحالية. وبالعكس، فقد تمثلت الإمبراطوريات الهيلينية، وصهرت بشكل عجيب، الشعوب التي تتكون منها، وتضاءل إطلاق كلمة «إغريقي» على أعضاء أمة معينة، وصار يطلق على الفئات المسيطرة والمثقفة من السكان. يقول كاتب قديم بأن الإسكندر أمر الجميع باعتبار العالم وطنهم ، وأهل الخير أهلهم، وأهل الشر أجانب.

وتُنسب الأهمية النامية لليهودية في حياة العالم الهيليني التجارية، إلى انتقال محور الحياة الاقتصادية نحو الشرق. ويظهر التباين مدهشا بين ازدهار الإسكندرية وأنطاكية وسلوقية من ناحية، والانحطاط التي وصلت إليه اليونان في نفس الفترة، من ناحية أخرى.

ويشدد بوليبيوس باستمرار على انحطاط المدن الإغريقية، «فكان على الصعب على الزوّار في القرن الثاني، الاعتقاد بأن تلك المدينة، بمياهها الشحيحة وطرقها غير الهندسية ومنازلها غير اللائقة للسكن هي نفس أثينا الذائعة الصيت»[42]. وأقصيت أثينا عن دورها كمركز للعالم المتمدن. ومما ساهم، مع الانحطاط الاقتصادي على هدم اليونان، الصراعات الطبقية المتتالية، التي لم تكن قادرة على الوصول إلى نتيجة حاسمة، نظرا لتخلُّف أسلوب الإنتاج، ولم يكن انتصار العامة والسوقة إلا عابرا. ولم يكن يؤدي تقسيم الثروات غير العادل سوى إلى فروقات اجتماعية جديدة، تولّد صدامات اجتماعية متتالية. هكذا، لم يكن انتصار اليونان، بعد إجتياحات الإسكندر، إلا انتصارا وهميا، فقد أدى انتقال المركز الاقتصادي للعالم، نحو الشرق، إلى انهيار اليونان بسرعة، فاضطرت الطبقات المالكة والأرستقراطية، العاجزة، أمام الثورات الشعبية، إلى البحث عن مساعدة روما لها، لكن روما سددت ضربة قاضية لليونان وللحضارة الهيلينية، فقد انقض الرومان على العالم الهيليني انقضاضهم على فريسة غنية بقصد النهب والاحتلال.«فبين أعوام 211 و208 ق.م .، وحسب المعلومات الناقصة التي وصلتنا، نُهبت خمس مدن إغريقية قديمة»[43]. ودُمرَّت كورنثيا، وهي مدينة تجارية غنية. يقول بوليبيوس (Polbe) كنت هناك، ورأيت اللوحات تُداس بالأقدام، والجنود جالسون عليها، يلعبون الزهرة». وسددت روما أيضا ضربات قاضية للحضارة الهيلينية في آسيا، وانهار الصرح الهيليني العظيم تحت ضربات الرومان والفرس المزدوجة .

ب- الإمبريالية الرومانية وإنهيارها .

في حين تستند الإمبريالية المعاصرة على تطور القوى المنتجة، ارتكزت الإمبريالية القديمة على نهب البلدان المحتلة. ولا تهدف الإمبريالية القديمة إلى فتح مجالات التصريف لبضائعها ولرؤوس أموالها، بل تهدف إلى استنزاف البلدان المحتلة.

---

[40]- بيار روسِّل: اليونان والشرق.

[41]- ل. برنتانو: الحياة الاقتصادية في العالم القديم.

[42]- اندريه بيغانيول: الاجتياح الروماني باريس 1944. A.Piganiol

[43]- موريس هولو: روما واليونان والممالك الهيلينية في القرن الثالث قبل الميلاد باريس 1921 M.Holleaux

ولم يكن بامكان حالة الإنتاج المتخلفة في العصور القديم تأمين رفاهية الطبقات المالكة للبلاد الغازية إلا بالإفقار الفوري أو التدريجي للشعوب المستعمَرة. ويقود استنزاف البلدان المحتلة والصعوبات المتنامية التي تواجهها الاحتلالات الجديدة، والانحطاط التدريجي للمحتلين، عاجلا أو آجلا إلى انهيار الإمبريالية القديمة.

وتشكل روما نموذجا كلاسيكيا للإمبريالية القديمة. وقد بولغ في تقويم التطور التجاري والصناعي لروما، فلقد كانت تجارتها سالبة على الدوام. ولم يكن دور روما إلا اجتذاب الصادرات من المقاطعات، دون أي مقابل[44].

وكانت الطبقات الرومانية الحاكمة تنظر بازدراء عميق إلى كافة أشكال التجارة، وقد حظّر قانون كلوديا على الشيوخ وأولادهم وأرستقراطية روما بأجمعها، امتلاك بواخر تكيل أكثر من 300 دورَق، أي ما يعدل أقل من ثمانين هكتولترا من الحبوب أو الفاكهة، مما يعني حرمانهم من ممارسة التجارة، وقد جدَّد يوليوس قيصر هذا الحرمان. ولم تكن مصالح «روما التجارية» تحدد سياستها، وأوفى دليل على ذلك هو سماح روما لقرطاجة، بعد انكسار هنيبعل، بتحظير الدخول إلى مياهها.

«علينا القول بأن المشاكل الاقتصادية الرومانية كانت، بشكل عام، بسيطة جدا. كانت الفتوحات التدريجية لإيطاليا والمقاطعات تستوعب فائض رأس المال وفائض السكان، ولم تكن هناك حاجة للصناعة والتجارة»[45]. وكان معظم التجار في روما من الغرباء، وهذا ما يفسر التنامي المستمر للجالية اليهودية في روما مند عهد يوليوس قيصر، وما كان التجار الرومان في الواقع تجارا، بل مرابين ينهبون المقاطعات[46]. أما سبب تطور التجارة في الإمبراطورية الرومانية، فمرده إلى تنامي حاجة الطبقات الحاكمة في روما إلى للكماليات، ويفسر استرابون تطور سوق ديلوس الكبير، قائلا: «ما هو أساس تطور التجارة؟ إنه كون الرومان، الذين اثروا من نهب قرطاجة وكورنثيا، قد تعودوا استخدام عدد كبير من العبيد».

وكان الأمر كذلك في ما يتعلق بالصناعة الرومانية المرتبطة، بشكل خاص، بحاجة الأرستقراطية للكماليات. ويلاحظ تني فرانك بأنه، خلال القرن الرابع قبل الميلاد، لم يجر أي تقدم ملموس في الميدان الصناعي، ويضيف على ذلك قوله: «إنه لم يحدث أي تبديل على طبيعة الإنتاج في روما خلال القرنيين اللاحقين. ومما لاشك فيه أن كمية المصنوعات قد ازدادت بفعل توسع المدينة، لكن لم يترتب على هذا الازدياد أي تصدير. أما التطور الوحيد الظاهر للعيان، فقد كان في إحلال العبودية مكان العمل الحر».

وحتى الكتَّاب، الذين اعتبروا إيطاليا بلدا إنتاجيا في ظل الجمهورية، وافقوا على أنها كفت على لعب هذا الدور في العهد الإمبراطوري. «تضائل دور إيطاليا الإنتاجي باستمرار.. وأخذت عدة صناعات مزدهرة طريقها إلى الانهيار في أواخر عهد الجمهورية.. ولم يعد للتجارة بين إيطاليا و الشرق سوى اتجاه واحد إذ انتقلت تدريجيا إلى أيدي الآسيويين والاسكندريين والسوريين»[47].

هكذا شكل استغلال المقاطعات مورد إيطاليا الإنتاجي الوحيد، وحلت المزارع الكبرى التي تلبي رفاهية الأرستقراطيين الرومان، والتي يعمل فيها العبيد، محل الملكية الصغيرة، قاعدة القومية الرومانية، والكل يعلم ما وصل إليه بلينوس من استنتاج: «الملكية الكبرى أضاعت روما».

وأصبح العبد، تدريجيا أداة للرفاهية، عوضا أن يكون عامل إنتاج. ويقول هوراس في إحدى أهاجيه بأن كل رجل «محترم» بحاجة إلى عشرة عبيد على الأقل. وفي الواقع، كان يعمل آلاف منهم في الأملاك الشاسعة. «ففي أملاك توسكولومTusculm وتيبور Tibur، وعلى شواطئ تيرّاسين Terrecine وبايا Baia (وهي مدن إيطالية قديمة)، (المترجم)، حيث زرع المزارعون اللاتين القدماء وحصدوا، ارتفعت الآن قصور النبلاء الرومان وسط عظمة فارغة، وكان بعضها يحتل مساحة مدينة متوسطة الاتساع، مع توابعها من الحدائق والقنوات وبرك الماء العذب والمالح لحفظ الأسماك البحرية والنهرية وإكثارها، ومآو للأرانب والأيائل والتيوس والخنازير البرية، ومزارع للديوك البرية والطواويس»[48].

---

[44]- ه. بيرن: تاريخ أوربا-بروكسيل 1936.

[45]-تنّي فرانك: تاريخ روما الاقتصادي حتى أواخر عهد الجمهورية. بلتيمور T.Frank 1920

[46]- تني فرانك: المرجع السابق.

[47]- جان هاتزفلد: التجار الايطاليين في الشرق الهليني. باريس Jean Hatzfeld 1919

وفي كانت العبودية تحل محل العمل الحر، أصبحت إيطاليا مركزا ضخما لتبذير الثروات المنهوبة من أنحاء الإمبراطورية قاطبة.

وكانت الضرائب المرهقة تفقر المقاطعات، و«كان التسلح البحري، الباهظ الكلفة، للدفاع عن الشواطئ ضد القرصنة، وواجب المساهمة في الأعمال الفنية، وحفلات صراع البهائم أو غيرها من متطلبات الترفيهية السخيفة للرومان في المسرح أو الصيد، كل ذلك كان يحصل باستمرار وببذخ بشكل تعسفي. ويدلنا حدث واحد إلى أي حد وصلت إليه الأحوال، إذ هبط عدد المزارعين خلال عهد إدارة كايوس فيرس في صقلية، التي دامت ثلاث سنوات، من 84 إلى 32 في مقاطعة ليونتيني، وفي متية Motya من 187 إلى 86 وفي Herbita هربيتا من 252 إلى 120، وفي أرجيريوم Arjyrium من 250 إلى 80، مما أدى إلى أن 59 بالمئة من المالكين في أخصب أربع مقاطعات في صقلية، آثروا هجر حقولهم على حراثتها في ظل نظام كهذا. وفي الدول المرتبطة بروما كان عبء الضرائب أثقل، وإن كان نظامه مختلفا، وبصورة خاصة منذ أن أضيف إلى جرائم الرومان، جرائم بلاط البلدان نفسها»[49].

كانت الرأسمالية الرومانية – لو صح تسمياتها بالرأسمالية- رأسمالية مضاربة بشكل خاص، ولم يكن لها أي ارتباط بتطور القوى المنتجة. أما التجارة والصيرفة في روما فتشبه مؤسسة لصوصية منظمة. «وما كان أسوء من ذلك، إن أمكن القول، وأقل خضوعا للمراقبة، هو الضرر الذي كان يحدثه رجال الأعمال الإيطاليين من نهب بؤساء المقاطعات، فقد كانت الأقسام الأكثر إنتاجية من الملكية العقارية، والأعمال التجارية والمالية كافة، محصورة بين أيديهم ... وازدهر الربا أكثر من أي وقت مضى».ويقول بحث نشر في عام 684 (العام 70 ق.م): «إن المدن كافة قد انهارت ...». وهذا صحيح خاصة بالنسبة لأسبانيا وبلاد الغال النربونية والمقاطعات التي كانت تتمتع بنفس الخصائص الاقتصادية. وفي آسيا الصغرى كانت المدن كساموس Samos وهاليكرناس Halicarnasse شبه خالية، وإن قارنّا الألم الذي يخضع له سكان المقاطعات الأحرار لرأينا العبودية بالنسبة إليهم أشبه بالفردوس، وحتى الآسيويين الصبورين، أنفسهم، كما يقول بعض رجال الدولة الرومان، زهدوا بالحياة»[50]. «ويعترف هؤلاء الرجال علانية وبصراحة، إن اسم الرومان كان ممقوتا إلى حد لا يصدق في أنحاء اليونان وآسيا».

إنه لجلي أن نظام «الطفيلية» واللصوصية ما كان يمكن أن يستمر إلى ما نهاية، إذ بدأت تنضب ينابيع الثروات التي كانت تغترف منها روما.

وحتى قبل سقوط روما بمدة طويلة، كنا نشهد فتورا مستمرا للتجارة، وكانت تتقلص قواعد النهب، كلما أفرغت روما البلاد المحتلة من ثرواتها.

ويشكل انخفاض إنتاج الحبوب، وخاصة الحنطة، دليلا مقلقا على هذا الوضع في الوقت الذي كانت تحتل فيه زراعة الكرمة والزيتون ميادين واسعة في الشرق والغرب. وأخذت المواد الكمالية تحل محل المواد التي لا غنى عنها في الإنتاج وتجدد قوة العمل. «لا يعني اتساع زراعة الكرمة والزيتون تأزم الظروف الاقتصادية لإيطاليا فقط، لكن ترتب عليه أيضا نقصان الحنطة ثم الجوع في أنحاء الإمبراطورية»[51]. وحاول تراجان بدون جدوى تجنب هذا الخطر بإلزام الشيوخ بشراء الأراضي في إيطاليا، ولم يلق خلفاؤه، مثله، نجاحا. وأخذت الكماليات تقضي على الإنتاج، وصرخ هوراس: «عما قريب، لن تترك الأبنية البهية أراض للفلاحة».

وانهارت التجارة تماما في القرن الثالث وانقطعت العلاقات مع البلدان البعيدة. «لم توجد نقود رومانية من القرن الثاني في الهند»[52]، مما يدل على انقطاع التبادل بين روما والهند. أما انهيار الزراعة المصرية، فقد وصل إلى حد أصبح فيه من

---

[48]- ث. مومسن: التاريخ الروماني Th.Mommsen

[49]- ث. مومسن: المرجع السابق.

[50]- ث. مومسن:المرجع السابق.

[51]- م. روستوفتسف: المجتمع والاقتصاد في إمبراطورية روما القيصرية –ليبزغ 1931.

[52]- م. روستوفتسف: المرجع السابق M.Rostouftzeff

الضروري التخلي عن شحن قسم من قمح هذه المقاطعة التي اشتهرت في الماضي بغناها، وصار لابد من إحلال التموين بالقمح من مقاطعة إفريقيا (المغرب وتونس في وقتنا الحاضر) محل الشحنات المصرية[53].

ورأى الإمبراطور كوّمود نفسه ملزما بتشييد أسطول صغير معد لنقل القمح المستورد من مقاطعة إفريقيا. وقد رأينا أن تجارة الإمبراطورية الرومانية كانت مرتكزة بشكل رئيسي على تموين الطبقات الغنية في روما، فهل من العجب أن أدى إرهاق المقاطعات إلى الانهيار التجاري؟ وبالفعل، اضطر الأباطرة الرومان تدريجيا إلى اللجوء إلى مصادرة البضائع، مما أودى في الواقع إلى تفاقم الآلام التي تعاني منها المقاطعات -«فتضاعفت المصادرات وكان على السكان أن يسلموا القمح والجلود والأخشاب والمواشي، في حيين كانت المدفوعات غير منتظمة. هذا، إذا ما دفعت أصلا»[54].

وحلّ الاقتصاد الطبيعي المحض، المنتصر على إنتاج القيم الإستعمالية، شيئا فشيئا محل تبادل المنتجات. «وبينما أدى السلام الروماني، في السابق، إلى التبادل المنتظم للأشياء، وبالتالي إلى التسوية في الظروف الحياتية بين مختلف مناطق الإمبراطورية، اضطرت كل مقاطعة، في ظل فوضى القرن الثاني، إلى الاعتماد على مواردها الذاتية، بصعوبة ومشقة وفاقة»[55].

وحاول بعضهم تفسير إحلال الاستعمار الاستيطاني محل الرق، أما بانعدام نشاط الملاك العقاريين، وأما بتضاؤل عدد العبيد، بسبب انتهاء الحروب الخارجية. أما السبب الجوهري لذلك، فهو على الأرجح، الانهيار التدريجي للمستعمرات وانقطاع استيراد المنتجات. وكان من مصلحة الملاكين الكبار -المضطرين إلى الاعتماد على منتجات أرضهم أكثر فأكثر -إحلال نظام الاستيطان الشبيه بنظام القنانة الذي ازدهر في العصور الوسطى، محل نظام العبودية الضعيف الإنتاجية نسبيا. «على المستوطن أن يقدم لسيده، في ذلك العهد، كل ما كان على القن أن يقدمه لسيده فيما بعد»[56]، وازدادت سلطة الملاكين العقاريين الدين كانوا يملكون أحيانا مساحات شاسعة من الأراضي. وفي القرن الخامس، خضع الفلاحون للملاكين خضوعا مطلق في مصر، وانتقلت إدارة الدولة، بمجملها إلى أيدي الملاكين .

إنه لمن الخطأ إذن اعتبار الاقتصاد الطبيعي الذي انطلق في العهد الكارولنجي نتيجة سقوط الإمبراطورية الرومانية وانهيار الوحدة الاقتصادية في بلدان البحر المتوسط. ومما لاشك فيه أن الغزوات البربرية لعبت دورا هاما جدا في انحطاط التجارة القديمة، وفي انطلاق الاقتصاد الإقطاعي، ولكن ابتدأ انحطاط الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي قبل سقوط روما بوقت طويل، وقبل الغزوات الإسلامية بعدة قرون. ومن المؤشرات الأخرى الهامة على التطور باتجاه الاقتصاد الطبيعي انخفاض قيمة النقد الذي ابتدأ مند عهد نيرون وأدى إلى حلول النحاس، تدريجيا، محل الذهب والفضة. وقد فُقد الذهب فقدا كاملا تقريبا في القرن الثاني.

ولا يشكل تطور الاقتصاد الطبيعي أي الاقتصاد المنتج للقيم الإستعمالية بشكل خاص، «حدثا غريبا»، كما يزعم بيرين، فقد تصدعت الإمبراطورية الرومانية اقتصاديا، قبل تصدّعها سياسيا. وأدى انحطاط الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي إلى ارتجاجها السياسي. وهذا الانحطاط الاقتصادي للإمبراطورية الرومانية هو الذي يفسر الغزوات البربرية والتخبط السياسي في القرن الثالث.

ولم تعد الطبقات الحاكمة ترى فائدة من وجود الإمبراطورية نفسها، كلما افتقرت المقاطعات وتوقف تبادل البضائع، وكلما ظهر تقهقر نحو الاقتصاد الطبيعي. وانطوت البلدان والمقاطعات على نفسها، وأصبحت الإمبراطورية بإدارتها الضخمة، وجيشها الباهظ الكلفة، آفة وعضوا طفيليا يرهق كاهل مختلف الطبقات، وأنهكت الضرائب حياة الشعوب. وفي عهد مارك أوريل، طالب الجنود، الذين حققوا الانتصار الساحق ضد المركوميين[57]، بزيادة الأجور، فرد عليهم الإمبراطور بهذا الرد البليغ الدلالة «كل ما قد تحصلون عليه علاوة على مرتبكم العادي يجب أن يؤخذ من دماء أهلكم».

---

[53]- ولهلم شوبارت: مصر من عهد الاسكندر الكبير حتى عهد محمد. برلين 1922

[54]- م. روستوفتسف: المرجع السابق.

[55]- أ. البرتيني: الإمبراطورية الرومانية. باريس 1939.

[56]- أ. لافيس وأ. رامبو: التاريخ العام منذ القرن الرابع حتى عصرنا الحاضر. باريس 1894.

[57]- المركوميون Marcomans: شعب جرماني تغلب عليه دروسوس عام 9 ق.م، واستقر في جنوب الدانوب، وانتهى أمرهم بعقد صلح مع الإمبراطور كومود. -المترجم-

وأدى فراغ الخزانة، إلى التعرض للأملاك الخاصة، من أجل تمويل الجهاز الإداري والجيش. وفي حين كانت الطبقات السفلى لا تني تتمرد وتثور أخذت الطبقات المالكة تشيح بوجهها عن الإمبراطورية التي تفقرها. فبعد أن دمرت الأرستقراطية اقتصاد الإمبراطورية، دمرت الإمبراطورية بدورها، الأرستقراطية. يقول هيروديان[58] Hérodien: «إننا نرى اليوم متسوّلين، كانوا حتى الأمس أغنياء «وكانت وحشية الجنود تزداد باستمرار، ولم يكن الجشع دافعهم الوحيد إلى نهب السكان، بل إفقار الأقاليم، وصعوبة المواصلات ، والتي ولّدت نقصا في تموين الجيوش، فاضطر الجنود إلى استعمال العنف من أجل الحصول على القوت. ولم يرم كركلا، في منحه المواطنية الرومانية للسكان كافة، إلا إلى زيادة عدد دافعي الضرائب. ومن سخرية التاريخ أن أصبح العالم أجمع رومانياً، في حيين انهارت روما. ودفع ظلم الإدارة الرومانية ونهب الجنود للمواطنين، جميع سكان الإمبراطورية إلى الرغبة في تهديمها.

«كانت تؤدي إقامة الجنود إلى نكبات فظيعة، حتى أن سكان سوريا آثروا على تلك الإقامة، احتلال البلاد من الفرس»[59]. «وكان كره الرعايا للحكم الروماني يزداد يوما بعد يوم... ودفع ديوان التفتيش، الشرس، الذي استولى على الأملاك، والذي عرّض أصحابها إلى التعذيب، رعايا فالنتينيان[60]، إلى تفضيل طغيان البرابرة، الأقل تعقيدا، وكانوا يرفضون بازدراء لقب المواطنية الرومانية، الذي طالما احترمه وتمناه أجدادهم»[61]. وقال الكاتب المسيحي سالفيانوس: «يسيطر القوط على قسم كبير من بلاد الغال وأسبانيا، ولا يتمنى الرومان جميعا إلا أمرا واحدا، وهو ألا يعودوا إلى سيطرة روما. ولو لم يكن من المستحيل على جميع الفقراء والمعوزين أن يتخلوا عن بيوتهم، لكنت عجبت من كونهم لم يفروا نحو مناطق البرابرة، ونحن الرومان نعجب لعدم تمكننا من الانتصار على القوط، في حين نفضل العيش بينهم، على العيش عندنا».

وكانت غزوات البرابرة، النتيجة الطبيعية للانهيار الاقتصادي والسياسي للإمبراطورية، ولم تكن شذوذا. وحتى لو لم تحدث الغزوات، لتفسخت الإمبراطورية على الأرجح. «ومن أهم ظواهر التطور الداخلي في آسيا الصغرى وسوريا هو الرجوع التدريجي إلى عهد الإقطاع... وتشكل ثورة الايزوريين، في آسيا الصغرى، دليلا على الاتجاه نحو تأسيس دولة مستقلة»[62]. بالإضافة إلى ذلك، تبين محاولة تأسيس إمبراطورية غالية –رومانية، ومحاولات الانشقاق، ركاكة صرح الإمبراطورية. والحق، لم يقم البرابرة إلا بتسديد الضربة القاضية إلى الدولة الرومانية المتزعزعة الأركان.

علينا أن نبحث عن السبب الرئيسي لانهيار الإمبراطورية الرومانية في التناقض بين الترف المتنامي للطبقات المالكة والتزايد المستمر لفائض القيمة من جهة، وبين جمود أساليب الإنتاج من جهة أخرى. فطوال العهد الروماني، لم يطرأ سوى تقدم بسيط في ميدان الإنتاج، وقد بقيت أدوات المزارع على أشكالها البدائية. «وبقي المحراث والمحفر والمعول والمذراة والمحصد والمنجل والمُشيذب، وفي النماذج التي وصلتنا، بدون تبدل عبر الأجيال»[63]. أما الترف المتنامي للأرستقراطية الرومانية، ومصاريف إدارة الإمبراطورية، فكانت تتأتى من استغلال المقاطعات الشائن، مما أدى إلى الخراب الاقتصادي وانخفاض عدد السكان، وبوار التربة، وبعكس العالم الرأسمالي، الذي سيضمحل من الفائض (النسبي) في وسائل الإنتاج، اضمحل العالم الروماني من نقصها.

وتشكل إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين، محاولة لتركيز الإمبراطورية الرومانية على أساس الاقتصاد الطبيعي، «وصارت الدولة تستند على الريف وسكانه»[64]. فشُدَّ القروي إلى أرضه، وأصبح كل مالك عقاري مسؤولا عن أرضه وعلى من استقر فيها من المواطنين، وسنت الضريبة الجديدة على هذا الأساس. «أما إصلاحات دقلديانوس الضرائبية، ومراسيم الأباطرة الذين خلفوه،

---

[58]- هيرودان: مؤرخ إغريقي، من أصل سوري (170-240) عاش مدة طويلة في روما وشغل وظائف عامة. -المؤرخ-

[59]- أ. جيبون تاريخ انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية. باريس 1835. E.Gibbon

[60]- فالنتينيان: منطقة في آسيا الصغرى، تقع بين طوروس والبحر المتوسط. -المترجم-

[61]- أ. جيبون: المرجع السابق.

[62]- م. روستوفتست: المرجع السابق.

[63]- توتان: المرجع السابق.

[64]- م. روستوفتست: المرجع السابق.

فقد جعلت من المستوطن قنا مشدودا إلى سيده وأرضه»[65]. ولم يكن مصير سائر فئات المجتمع مختلفا، إذ شُدَّ الملاكون الصغار والحرفيون والتجار إلى أماكن سكنهم وإلى مهنهم. وتميز عهد قسطنطين بسيطرة تامة للملاكين العقارين الكبار على مساحات شاسعة تليق بالأمراء. وتخلت الأرستقراطية، تدريجيا، عن المدن المنهارة، والتجأت إلى قصور الريف الفخمة، لتعيش محاطة بشركائها وأقنانها.

وتشكل إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين، أيضا محاولة لتكييف الإمبراطورية مع الاقتصاد الطبيعي، لكننا رأينا بأن لا مبرر لبقاء الإمبراطورية على هذا الأساس، بعد أن لم يعد يربط بين أقسامها المختلفة سوى الطغيان. وان افتتح قسطنطين، من ناحية اقتصادية واجتماعية، عهدا تاريخيا جديدا، يتمثل بتبني المسيحية، فقد ابتدأ، من الناحية السياسية بلعب أخر فصل من تاريخ الإمبراطورية الرومانية.

ج- اليهودية والمسيحية

يظهر أن الوضع الذي اكتسبه اليهود في العصر الهيليني لم يخضع لتحولات أساسية بعد الفتح الروماني. وقد أكد الأباطرة الرومان، الامتيازات التي منحتها القوانين الهيلينية لليهود. «كان اليهود ينعموون بوضع متميز في الإمبراطورية الرومانية»[66]. وكان يقطن الإسكندرية، وحدها، حوالي مليون يهودي، مما يكفي لتبيان دورهم التجاري في الشتات الذي كان يضم، قبل سقوط القدس بعدة قرون، ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودي، في حين لم يكن قد بقي في فلسطين أكثر من مليون. «وأصبحت الإسكندرية في ظل الأباطرة الرومان، ما كانت عليه صور في عصر ازدهار التجارة الفينيقية... ونشأت على عهد البطالسة تجارة مباشرة بين مصر والهند. ومن طيبة، كانت تتجه القوافل إلى مروة في النوبة العليا، حيث كانت القوافل الآتية من قلب إفريقيا تؤم الأسواق، وكان يتجه إلى مصب النيل أسطول روماني ليتسلم المصنوعات الثمينة وليوزعوها في الإمبراطورية»[67]. ويقول شوبرات أن اليهود الإسكندرية كانوا يقطنون حيين من أصل خمسة أحياء، وكان دورهم مهما إلى حد أن يهوديا يدعى تيبيريوس يوليوس الكسندر عُين حاكما رومانيا على هذه المدينة.

أما من الناحية الثقافية، فقد اندمج اليهود الاسكندريون تماما، ولم يعودوا يفهمون سوى الإغريقية. ومن أجلهم، تُرجمت الكتب الدينية العبرية إلى تلك اللغة. وتوزعت جماعات متشابهة للتي في الإسكندرية في كافة المراكز التجارية من الإمبراطورية، وانتشر اليهود في إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا، وبقيت القدس المركز الديني ليهود الشتات. «لم يعد لخلفاء داوود وسليمان من أهمية بالنسبة إلى يهود ذلك العصر، أكبر من أهمية القدس بالنسبة إلى يهود عصرنا. ولا شك في أن الأمة اليهودية كانت تجد، من أجل وحدتها الدينية والثقافية، نقطة التئام في مملكة الحسمونيين الصغيرة، لكنها لم تكن تتألف من مواطني حسمون، بل من جمع غفير من اليهود المشتتين في أنحاء الإمبراطورية، وشكل اليهود، في مدينتي الإسكندرية وسيرين، طوائف متميزة إداريا ومحليا، قد تشبه «الأحياء اليهودية»، لكن، مع حرية أوسع، يراقبها «سيد الشعب»، كقاض أعلى وكمدير. وكانت التجارة، حتى في ذلك العصر، المصلحة الغالبة عند اليهود»[68]. ويذكر في كتب المكابيين الغيبية، أن «جميع البحار تعجّ باليهود». ويقول استرابون «إنهم ذهبوا إلى جميع المدن تقريبا، وأنه لمن الصعب إيجاد مكان في الأرض لم يشهد هذه القبيلة، ولم يُحكم منها». " ومما لا يختلف فيه الاقتصاديون أن أغلبية يهود العصور القديمة، كانوا يشتغلون بالتجارة»[69].

أورشليم = مدينة السلام

وكانت أورشليم مدينة غنية وكبيرة، تضم 200000 نسمة، وتستند أهميتها قبل أي شيء آخر، على الهيكل. ويعيش أهالي المدينة والجوار، بشكل أساسي، من الحجاج الذين يتدفقون على المدينة المقدسة. ويقول كاوتسكي أن «الله أصبح عند يهود فلسطين مصدرا هاما لتأمين رزقهم». ولم يكن الكهنة الفئة الوحيدة التي تؤمن عيشها من خدمة يهوه، بل كان الأمر كذلك بالنسبة لعدد لا

---

[65]- م. روستوفتست: المرجع السابق.

[66]- جاك زايلر: الإمبراطورية الرومانية والكنيسة، باريس 1928. J.Zeiller

[67]- ج. ب. دبِّنغ: تاريخ التجارة بين أوربا والشرق. باريس 1826 G.B.Deppeing

[68]- مومسن: التاريخ الرماني Th.Mommsen

[69]- روشر: اليهود في العصور الوسطى Roscher

يُحصى من العطارين والصرافين والحرفيين، حتى أن المزارعين وصيادي السمك في الجليل، كانوا يجدون، بالتأكيد، هم أيضا، في القدس أسواقا لمنتوجاتهم. وانه لمن الخطأ الظن بأن جميع سكان فلسطيين كانوا يهودا، ففي الشمال كان هناك العديد من المدن الإغريقية. يقول استرابون «إن كل ما تبقى لنا من بلاد يهوذا يظهر لنا موزع بين القبائل المختلفة من المصريين والعرب والفينيقيين».

وفي بداية العصر المسيحي، تعاظمت أهمية الارتداد إلى اليهودية «وكان من المغري، بالنسبة للكثيرين، أن ينضموا إلى المجموعات التجارية، المزدهرة الواسعة»[70]. ومند عام 139 ق.م، طُرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان. وفي أنطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية.

إن الوضع الاقتصادي والاجتماعي ليهود الشتات هو وحده الذي جعل التحامهم الديني والقومي ممكنا، حتى قبل سقوط القدس. ولئن كان من الواضح أن معظم اليهود كانوا يلعبون دورا تجاريا في الإمبراطورية الرومانية، فهذا لا يعني أن اليهود كانوا من أغنياء التجار أو من المقاولين، بل بالعكس، كان يتألف معظم اليهود من صغار الكسبة، وكان قسم منهم فقط يكسب رزقه بصورة مباشرة أو غير مباشرة من التجارة: باعة وجوالون وحرفيون صغار... وهذه الجمهرة الغفيرة من الناس العاديين هي التي تحملت مشقات انهيار الإمبراطورية الرومانية وتعسُّف الحكم الروماني. ومكّنهم تمركزهم بأعداد كبيرة في المدن من المقاومة أكثر من الفلاحين المشتتين في الأرياف، كما كانوا أكثر وعيا لمصالحهم. لذلك فقد شكّل اليهود في المدن الكبرى مصدرا مهما للفوضى والعصيان ضد سلطة روما والأغنياء.

لقد تعوّدنا اعتبار التمرد اليهودي، في سنة 70، «إنتفاضة قومية» كبرى. لكن لم يكن هذا التمرد موجها ضد التعسف الشائن للمفوضين الرومان وحسب، بل كذلك ضد طبقات الأمة الغنية. ووقف الأرستقراطيون، جميعا، موقفا معاديا من التمرد. وقد جهد الملك آغريبا، وباقي أعضاء الطبقة الغنية، في إخماد التمرد بكل الوسائل. وكان من الواجب أن يقضي اليهود الثائرون على هؤلاء الأغنياء،، قبل أن يتمكنوا من مهاجمة الرومان. ووجد الملك هيرودوس آغريبا وبيرينيس نفسيهما، بعد فشل محاولتهما لـ «المصالحة»، بجانب الرومان، لا بجانب العصاة. وسارع أعضاء الطبقة المسيطرة، كفلافيوس يوسيفوس، إلى خيانة الثوار، بعد أن تظاهروا بمساعدتهم. ومن ناحية أخرى، لم تكن الثورة في بلاد يهوذا فريدة من نوعها، إذ نشبت ثورات عدة في المدن الإغريقية على عهد فسبازيان. وقاد الفلاسفة «الكلبيون»[71] -الذين طردهم فسبازيان من المدن- تحركات اجتماعية هامة. وأظهر الإسكندريون أيضا شعورهم العدائي تجاه فسبازيان. «ويدلنا ما حصل في الإسكندرية وبيثينيا[72] في عهد ترجان على أن الصراع الطبقي في آسيا الصغرى ومصر، لم يتوقف قط»[73].

لم تقتصر الحركات الاجتماعية على جماهير المدن، التي تأثرت أكثر من غيرها مع ذلك بانهيار الحياة الاقتصادية المتزايد، بل بدأت جماهير الفلاحين أيضا بالتحرك، إذ كانت حالتهم سيئة للغاية في القرنين الأول والثاني «وتأزم وضع الفلاحين، تدريجيا في مصر، وكانت ظروف جماهير الشعب المصري المعيشية أدنى بكثير من المستوى العادي، أما الضرائب، فكانت مضنية، وكانت طريقة جبايتها وحشية ومكلفة»[74].

وفي عهد مارك أوريل، رغم سخط المقاطعات جمعاء، ورفضت أسبانيا إرسال الجنود، أما بلاد الغال، فقد كانت ممتلئة بالفارين من الجندية. وانتشرت الثورات في أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا. ويقول مزارعون صغار، أفارقة، في عريضة موجهة للإمبراطور كومود: «إننا سنهرب إلى ناحية يمكننا الحياة فيها كأحرار». وفي عهد سبتيموس سيفيروس، بلغت اللصوصية حدا عجيبا، وعبثت عصابات «ممن لا وطن لهم» في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. وفي عريضة أخرى –وجدت منها نسخة مؤخرا – يتوجه صغار المزارعين في ليديا[75] بهذه العبارات إلى سبتيموس سيفيروس: «عندما يظهر جباة الإمبراطور في

---

[70]- كاوتسكي

[71]- الكلبيون (Cyniques): هم فلاسفة قدماء، كديوجين، دعوا إلى الزهد وإلى احتقار التقاليد الاجتماعية، ظهروا في القرن الخامس قبل الميلاد. -المترجم-

[72]- بيثينيا Bithynnie: منطقة قديمة، ومملكة في شمالي غربي آسيا الصغرى. -المترجم-

[73]- روستوفتسف: المرجع السابق.

[74]- روستوفتسف: المرجع السابق.

[75]- ليديا Lydie: منطقة في آسيا الصغرى يحدها غربا بحر ايجيه. -المترجم-

القرى، لا يأتون بأي شيء حسن، بل يضايقون السكان بالغرامات، وبمصادرات لا تُحتمل». وتتحدث عرائض أخرى عن وحشية هؤلاء الموظفين وظلمهم.

وكان بؤس جماهير المدن والريف أرضا خصبة لانتشار المسيحية. ويصيب روستوفتست حين يرى الصلة بين الثروات اليهودية الشعبية في مصر وسيرين، على عهد تراجان وهدريان، وانتشرت المسيحية في صفوف الفئات الفقيرة في مدن الشتات الكبرى. ويقول كاوتسكي أنه «وجدت أول طائفة شيوعية مسيحية في القدس، وتأسست بعد ذلك طوائف متشابهة في المدن الأخرى التي تسكنها البروليتاريا اليهودية» و «تحولت أقدم محطات التجارة الفينيقية، البرية والبحرية، إلى أقدم مراكز المسيحية»[76]، وكما جاءت بعد الانتفاضات اليهودية انتفاضات فئات شعبية غير يهودية، انتشرت الديانة الشيوعية اليهودية، بسرعة، في صفوف الجماهير الوثنية.

ولم تنشأ الطائفة المسيحية البدائية على أرض يهودية التقليدية، بل كانت على صلة وثيقة بشيع الهراطقة، وتأثرت المسيحية بشيعة شيوعية يهودية، وهي شيعة الأسينيين[77]. يقول عنهم فيلون Philon بأن «لا أملاك لهم ولا منازل، ولا عبيد ولا أراضي أو مواشي»، وكانوا يمارسون الزراعة. أما التجارة، فمحرمة عليهم. وعلينا اعتبار المسيحية، في بدايتها، ردة فعل من جماهير الشعب اليهودي العاملة، ضد سيطرة الطبقات التجارية الغنية. وقد عبَّر يسوع -الذي طرده التجار من الهيكل- عن حقد الجماهير اليهودية الشعبية على مضطهديهم، وعن عدائهم لسيطرة التجار الأغنياء. وشكل المسيحيون، في البدء، جماعات صغيرة قليلة الأهمية، لكنهم تمكنوا في القرن الثاني، وهو عهد البؤس المدقع في الإمبراطورية الرومانية، من تأسيس حزب قوي للغاية، و«في القرن الثالث، تقوّت الكنيسة بشكل خارق للعادة»[78]، وتضاعفت المعالم المسيحية في القرن الثالث في الإسكندرية، ولا جدال في الطابع الشعبي والمعادي للبلوتقراطية لدى المسيحية البدائية: «طوبى للفقراء لأن لهم مملكة الرب. وطوبى للجائعين لأنهم سيشبعون ...» «لكن بؤسا لكم أيها الأغنياء، بؤسا للذين يرتعون لأنكم سوف تجوعون...» هذا ما يقوله إنجيل القديس لوقا. ونرى الحزم نفسه في رسالة القديس يعقوب حين يقول: «والآن أيها الأغنياء، اذرفوا الدموع، أطلقوا الصيحات بسبب البؤس الذي ينتظركم. لقد تعفنت ثرواتكم وأكلت الديدان ثيابكم، وتبلل ذهبكم وفضتكم، فسيشهد صدؤهما ضدكم وسيلتهم أجسادكم كالنار... ها هي أجور العمال الذين حصدوا حقولكم والذين حرمتموهم من حقهم، ترتفع أصواتهم، ووصل زعيقها حتى يهوذا تعالى» (الإصحاح الخامس، 1-4).

وحاول قادة المسيحية، مع تطورها السريع، تمييع أعداء ضد البلوتقراطية، ويظهر إنجيل القديس متى التغير الذي طرأ، إذ يقول: «طوبى لفقراء العقول لأن مملكة السماء تخصكم، طوبى للعطشى للعدل، لأنهم سيرتعون».

«لقد أصبح الفقراء **فقراء العقول**، وصارت مملكة الله، مملكة **السماء**، ولا يتعطش الجائعون إلا **للعدل**. وتحولت الديانة الثورية للجماهير الشعبية إلى ديانة مؤاساة لتلك الجماهير، و ويشبِّه كاوتسكي هذه الظاهرة بالتحريفية الاشتراكية الديمقراطية. لكنه من الأصح تشبيه هذا التطور بالظاهرة الفاشية التي نعيشها اليوم، إذ تحاول الفاشية أيضا، استخدام «الاشتراكية» من أجل ترسيخ سيطرة الرأسمال المالي، ولا تتردد الفاشية أمام التلفيق الوقح، بغية خداع الجماهير، وبغية إظهار سيطرة أرباب الصناعة الثقيلة وكأنها «سيطرة العمال».

لكن «للثورة الفاشية» أيضا محتوى اقتصادي واجتماعي معين: إنها تضع حدا نهائيا للعهد الليبرالي، وتفتتح عهد السيطرة التامة للرأسمال الاحتكاري، أي مرحلة نقيض رأسمالية المنافسة الحرة. كذلك، لا يكفي القول بأن المسيحية أيضا أصبحت أداة لخداع الطبقات الفقيرة، بل أصبحت أيضا إيديولوجية طبقة الملاكين العقاريين التي استبدت بالسلطة المطلقة في عهد قسطنطين. ويوافق عهد انتصارها عهد الانتصار التام للاقتصاد الطبيعي، وانتشر الاقتصاد الإقطاعي في أنحاء أوروبا مع توسع المسيحية.

إنه لمن الخطأ الأكيد تحميل المسيحية مسؤولية سقوط الإمبراطورية، ولكن المسيحية زودت الطبقات التي قامت على أنقاض الإمبراطورية، بالسلاح الإيديولوجي «وأدان الاكليروس، في الشرق و الغرب، الربا بجميع أشكاله»[79] وبذلك قبضت المسيحية بين يديها بزمام كل مصالح الطبقة المالكة الجديدة التي تستمد ثرواتها من الأراضي فقط.

---

[76]- موفرس: الفينيقيون Movres

[77]- الاسينيون Esseniens: أعضاء طائفة دينية يهودية، نشأت في القرن الثاني قبل الميلاد، على ما يعتقد، واختفت في القرن الأول من تقويمنا. -المترجم-

[78]- روستوفتس: المرجع السابق.

علينا أن نبحث عن السبب الجوهري لإفلاس المسيحية «البروليتارية»، وانتصار المسيحية «الفاشية» في أسلوب الإنتاج المتخلف لذلك العصر، ولم تكن الظروف الاقتصادية ناضجة بعد لانتصار الشيوعية، ولم تؤد الصراعات الطبقية في القرنين الثاني والثالث لأية نتيجة لصالح الجماهير الشعبية.

لكن هذا لا يعني أن الطبقات الفقيرة قبلت بانتصار الكاثوليكية بدون مقاومة، وأفضل دليل على ذلك كثرة البدع الدينية، وإذا تشددت الكنيسة الرسمية بقمع هذه الهرطقات، فلأنها كانت تمثل –ولو جزئيا- مصالح الطبقات الفقيرة. يقول أحد الكتاب في القرن الرابع عن القسطنطينية: «هذه المدينة مليئة بالعبيد وبالمهنيين، وجميعهم لاهوتيون ضالعون، يبشرون في الدكاكين وفي الشوارع، فإذا ما رجوتم أحدا بتصريف النقود، أعلمكم بما يختلف الابن عن الأب، وإذا سألتم عن ثمن، يجيبكم بأن الابن أدنى مرتبة من الأب، وإذا سألتم عن الحمَّام، إذا كان معدّا، أجابوكم بأن الابن خلق من لا شيء»[80].

كانت تمثل المسيحية، في البدء -كما رأينا- إيديولوجية الجماهير اليهودية الفقيرة، وقد تكونت الكنائس الأولى، حول الكنيست، وكان لليهود- المسيحيين إنجيلهم الخاص، ويسمى «إنجيل» العبرانيين، لكنهم انخرطوا بسرعة، على الأرجح، في المجموعة المسيحية الكبيرة، وامتزجوا بجموع المتنصرين.

ومنذ القرن الثاني، وهو العهد الذي انتشرت فيه المسيحية على نطاق واسع، غابت عن الأسماع طائفة يهود الإسكندرية، وانضم أغلب يهود تلك المدينة للكنيسة، على الأرجح[81]، واكتسبت كنيسة الإسكندرية، لمدة من الزمن، مركز السيطرة داخل الدين الجديد وكانت كلمتها هي المسموعة في مجمع نيقوميديا.

وان تقبلت الفئات الفلاحية اليهودية تعاليم يسوع بحرارة، فقد اختلف الوضع بالنسبة للطبقات المسيطرة والتجارية التي كانت تمعن في اضطهاد الديانة الشيوعية البدائية. وبعد حين، عندما أصبحت المسيحية ديانة الملاكين الكبار، وعندما انحصرت معاداتها للبلوتقراطية في معاداة التجارة والربا، لم تفقد معارضة الطبقات اليهودية المرفهة، بالطبع، شيئا من حدتها، بل بالعكس، فقد راحت اليهودية تعي أكثر فأكثر دورها الخاص، فبالرغم من انهيار الإمبراطورية، لم تقترب التجارة من نهايتها، إذ كانت الطبقات المسيطرة بحاجة دائمة للكماليات الشرقية. وان لعب اليهود دورا تجاريا هاما، في العهود السابقة، فقد أصبحوا تدريجيا، الوسطاء الوحيدين بين الشرق والغرب. وأصبح **اليهودي** أكثر فأكثر مرادفا **للتاجر**.

لقد مكّن انتصار الاقتصاد الطبيعي وانتصار المسيحية إذن من إتمام مسيرة الانتقاء التي حولت اليهود إلى طبقة تجارية. وكان ما يزال هناك بالطبع، في نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية مجموعات يهودية، تهتم بشكل رئيسي بالزراعة، أو بتربية المواشي: في الجزيرة العربية وبابل وأفريقيا الشمالية، ولم يختف اليهود من فلسطين، وبعكس رأي المؤرخين والمفكرين المثاليين، لم يشتت الرومان يهود فلسطين في أنحاء العالم، بل رأينا للشتات أسبابا أخرى. ولاقى الأباطرة، عام 484، صعوبات كبيرة في قمع ثورة الفلاحين السامريين. وفي بداية القرن السابع، انقضّ اليهود على صور، وفتكوا بأهلها[82]. وفي عام 614، ساعدت الكتائب اليهودية في طبريا والناصرة و الجليل، ملك الفرس على احتلال القدس، وافنوا العديد من السكان. وعند الفتح الإسلامي، كان اليهود يشكلون حسب رأي كارو، أساس السكان الفلسطينيين[83]، وقد أدى الفتح الإسلامي، هنا، إلى نتائج شبيهة بالتي أحرزها في جميع البلدان المفتوحة .

وقد اندمج الشعب المغلوب على أمره، تدريجيا، بالفاتحين. وكما فقدت مصر تماما طابعها المتميز، وفي ظل السيطرة الإسلامية، جُرّدت فلسطين نهائيا من طابعها اليهودي. وحتى يومنا هذا، تذكّر بعض طقوس الفلاحين العرب في فلسطين، بأصلهم اليهودي. وفي بلاد أخرى، كانت ترضخ، عاجلا أم آجلا، جماعات من المزارعين والرعاة اليهود لضغوط دمجية، ومع التطور التاريخي، تتراءى لنا بوضوح، هذه الظاهرة الجوهرية.

---

[79]- جيبون: المرجع السابق Gibbon.

[80]- معروف أن الله في المسيحية أقانيم ثلاثة: الابن والابن والروح القدس. -المترجم-

[81]- شوبارت: المرجع السابق.

[82]- صاموئيل كراوس.

[83]- ج. كارو: تاريخ المجتمع والاقتصاد اليهودي في العصور الوسطى وفي الأزمنة الحديثة. 1908.

ولم تتمكن من مقاومة جميع محاولات الاندماج، سوى المجموعات اليهودية التي تتصف بالطابع التجاري الصرف، وهي عديدة في إيطاليا وبلاد الغال وجرمانيا، الخ. ماذا يتبقى إذن من قبائل الرعاة اليهود في الجزيرة العربية، ومن المزارعين اليهود في إفريقيا؟ لا شيء سوى الخرافات، وذلك بعكس جاليات اليهود التجارية، في بلاد الغال وأسبانيا وجرمانيا، التي تطورت وازدهرت.

لا يمكن القول إذن بأن اليهود قد استمروا **برغم** تشتتهم، بل بالضبط **بسبب** هذا التشتت، ولو لم يحصل الشتات قبل سقوط القدس، ولو بقي اليهود في فلسطين، فلا داعي للاعتقاد بأن مصيرهم كان سيختلف عن مصير سائر الأمم القديمة الأخرى، بل لاختلط اليهود، كالرومان و الإغريق، والمصريين، بالأمم المختلفة ولاعتنقوا دينها وعاداتها. وحتى لو استمر سكان فلسطين الحاليين بحمل اسم اليهود، لكان الشبه بينهم وبين العبرانيين القدماء، كالشبه بين سكان مصر وسوريا واليونان مع أسلافهم القدامى. فانهيار الإمبراطورية الرومانية أدى إلى انحلال جميع الشعوب، أما اليهود، فقد تمكنوا من البقاء، لأنهم استمروا –في العالم البربري الذي خلف روما- في حمل آثار التطور التجاري الذي ميز العالم القديم. وبعد ما تفتت عالم حوض المتوسط، وأصل اليهود ربط أجزائه المبعثرة.

د – اليهود بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية

يكمن إذن أساس الاستمرارية اليهودية في تحوّل الأمة اليهودية إلى طبقة. ففي عهد انهيار الإمبراطورية الرومانية، تزايدت أهمية دور اليهود التجاري، «وإن اشترك اليهود قبل سقوط الإمبراطورية، في التجارة العالمية، فقد وصلوا إلى ازدهار أعظم بعد انتهائها»[84]. أما بخصوص البائعين السوريين الذين يرد ذكرهم في ذلك العهد، فمن الأرجح أنهم كانوا يهودا أيضا، وقد كان هذا الالتباس شائعا في العصور القديمة. يتحدث أوفيد مثلا عن «العيد الأسبوعي الذي يحتفل به سوريو فلسطين وهو يوم تتوقف فيه الأعمال».

انتمى اليهود، في القرن الرابع، إلى الفئات الميسورة والغنية من الشعب. يقول يوحنا فم الذهب بأن لدى اليهود مبالغ طائلة من المال، وبأن لدى البطاركة ثروات ضخمة، إنه يروي عن ثروات اليهود وكأنها حدث يعلمه المعاصرون جيدا.

ولعب اليهود، خلال قرون طويلة، دور الوسطاء التجاريين الوحيدين بين الشرق والغرب، وتوطد مركز الحياة تدريجيا في أسبانيا وفرنسا. ويتحدث ابن خرداذبة (القرن التاسع)، وهو صاحب البريد العربي، في كتابه عن مسالك اليهود الرضاميين قائلا بأنهم «يتكلمون الفارسية والرومانية والعربية ولغات فرنكية وأسبانية وسلافية وأنهم ينتقلون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب، تارة برا وأخرى بحرا، يجلبون من الغرب الخصية والنساء العبيد والصبيان والحرير والفراء والسيوف، ومن بلاد الفرنك –الفرنجة- يبحرون في البحر الغربي نحو الفرما»[85]، قاصدين السند والهند والصين. وعند عودتهم، يحملون المسك وعود الندّ والكافور والقرفة، ومواد أخرى من البقاع الشرقية، فالبعض منهم يقلع نحو القسطنطينية لبيع البضائع، والبعض الأخر يتجه نحو بلاد الفرنك».

إنه لمن المؤكد أن قصائد تيودولف Théolduphe، (أسقف مدينة أورليان من 750 إلى 821، التي تدور حول ثروات الشرق، مردها استيرادات اليهود، وأسبانيا أيضا مذكورة في نص من مرسوم لويس التقي بشأن اليهودي أبراهام دي سارغوس... فاليهود إذن مورّدو التوابل والأقمشة الثمينة. ونرى في نصوص آغوبارد (مطران مدينة ليون من 770 إلى 840) أنهم يبيعون النبيذ أيضا ويهتمون، على ضفاف الدانوب، بتجارة الملح. وفي القرن العاشر، كان في حوزة بعض اليهود ممالح قرب نورنبرغ، ويتعاطون أيضا تجارة الأسلحة، ويستغلون، بالإضافة إلى ذلك، ثروات الكنيسة. أما اختصاصهم الرئيسي، فهو تجارة الرقيق الذي يباع قسم منهم في البلاد، أما معظمهم، فيصدرون إلى أسبانيا. وأصبح «اليهودي» و«التاجر» لفظين مرادفين، في ذلك العصر.

«ينبغي على التجار، اليهود منهم وغير اليهود، أنى أتوا، من هذا البلد أو ذاك، أن يدفعوا ضريبة عادلة، حين استيرادهم الرقيق أو البضائع، كما جرت العادة في ظل عهود ملوك آخرين». هذا ما ذكر في مرسوم للملك لويس.

---

[84]- ل برنتانو: المرجع السابق.

[85]- الفرمة Faramé مدينة مصرية تقع في الطرف الغربي من دلتا النيل، وقد كانت مزدهرة في ظل الامبراطورية الرومانية. -المترجم-

وكان اليهود في العهد الكارولنجي أهم الوسطاء بين الشرق والغرب، وقد هيأهم لهذا الدور وضعهم المتفوق في التجارة، منذ عصر انحطاط الإمبراطورية الرومانية، وكانوا يعاملون بالتساوي مع المواطنين الرومان، وقد شكل الشاعر روتوليوس بقوله الأمة المغلوبة تضطهد المنتصرين.

واستقر التجار اليهود، في أواسط القرن الرابع في مدن تونغر Tongres وتورني Tournai، وأقام الأساقفة، أفضل العلاقات معهم، وساندوا تجارتهم. وتوسَّل سيدوان آبولينيز إلى أسقف مدينة تورني (عام 470)، الرفق معاملة اليهود «لأن هؤلاء القوم يتعاطون أعمالا مفيدة»[86].

ويتحدث غريغوار دي تور، في القرن السادس، عن مستعمرات اليهود في كلرمون –فرّان ومدينة أورليان. وكان في مدينة ليون في ذلك العهد أيضا، مجموعة كبيرة من التجار اليهود. وفي رسالة «إنسولنتياجوريوم» شكا آغوبار مطران مدينة ليون، من أن اليهود يبيعون عبيدا مسيحيين في أسبانيا، أما الراهب آرونيوس (القرن الثامن) فيذكر يهوديا كان يسكن بلاد الفرنك ويجلب بضائع ثمينة من فلسطين.

إنه لجلي، إذن، أن اليهود كانوا تجارا بشكل رئيسي، في فرنسا، خلال القرون الأولى من العصور الوسطى. وفي الفلاندر، حيث كان يقطن اليهود منذ غزوات النورمان حتى الحملة الصليبية الأولى كانت التجارة بين أيديهم. وحوالي نهاية القرن التاسع، في هوي Huy، مجموعة يهودية كبيرة، وكان اليهود يحتلون فيها مركزا هاما، ويمارسون تجارة مزدهرة... وفي عام 1041، كانت التجارة في مدينة لييج، بين أيديهم، وفي أسبانيا «كانوا يسيطرون كلية على التجارة الخارجية. وتشمل هذه التجارة جميع غلال البلاد، ومنها النبيذ والزيت والمعادن: كما كانت تصلهم الأقمشة والتوابل من الشرق. وكان الأمر كذلك في بلاد الغال»[87].

وكان يهود بولونيا وروسيا الصغرى يقصدون أوروبا الغربية لبيع الرقيق والفراء والملح ولشراء جميع أنواع الأقمشة. وورد في مصدر عبراني، من القرن الثاني عشر، أن اليهود كانوا يبتاعون كميات كبيرة من أقمشة الفلاندر من الأسواق الرينانية ليقايضوها بالفراء في روسيا. وكانت التجارة اليهودية بينماينس Mayence وكييف -«أهم مركز تجاري في السهل الجنوبي»- مزدهرة جدا.

ومما لاشك فيه أنه كان في مدينة كييف مستعمرة تجارية هامة في ذلك العهد، إذ ورد في وثيقة مؤرخة عام 1113 «أن سكان المدينة أصروا على ضرورة حضور الإمبراطور مونوماك[88] إلى المدينة، في أقرب وقت، بحجة أن الشعب سوف ينهب البوايار[89] Boiars واليهود».

ويشهد الرحالة إبراهيم الطرطوشي، أيضا، باتساع التجارة اليهودية بين أوروبا والشرق، وكتب عام 973، عند زيارة له لمدينة ماينس «إنه لرائع أن نجد كميات كبيرة من التوابل المستوردة من الشرق الأقصى، في أقصى الغرب».

وفي رواية ذُكرت على لسان اليهودي بن غوريون، الواردة في كتب الجغرافي العربي – الفارسي القزويني وقصة رحلة اليهودي الأسباني إبراهيم ابن يعقوب في القرن العاشر، ورد ذكر لسعر القمح في كاراكوفيا وبراغ، ومناجم الملح التي يملكها اليهود. ويروي غومبلوفيز أن اليهود كانوا الوسطاء الوحيدين بين شواطئ بحر البلطيك وآسيا، وتشير وثيقة قديمة إلى خصائص الخزر، وهم قوم مغول قرب بحر قزوين، اعتنقوا اليهودية، كما يلي: «ليس لديهم عبيد يعملون في الأرض، لأنهم يبتاعون جميع حاجاتهم، بالمال، وكانت إيتيل، عاصمة الخزر، مركزا تجاريا كبيرا، تنطلق منها تجارة البضائع، قاصدة ماينس».

---

[86]- س ألمان تاريخ اليهود في بلجيكا حتى القرن الثامن عشر. انفرز S.Ullmann

[87]- بيداريد: اليهود في فرنسا وايطاليا وأسبانيا Bedarride

[88]- مونوماك: اسم قسطنطين التاسع. إمبراطور الشرق. -المترجم-

[89]- البوايار Boiars أسماء النبلاء القدماء في بلاد السلاف، بالأخص في روسيا. –المترجم-

ويروي هرمَن -الذي اعتنق المسيحية- في سيرته الخاصة، أنه عندما كان في سن العشرين، قبل تحوله عن اليهودية (حوالي عام 1127)، كان يسافر بانتظام من كولونيا إلى ماينس، للاهتمام بأعماله التجارية، لأن «جميع اليهود يتعاطون التجارة» وتصف عبارات الحاخام اليزربن ناثان أيضا خصائص ذلك العصر: « إن التجارة معيشتنا الرئيسية».

يشكل اليهود «الطبقة الوحيدة»، التي تستمد وجودها من التجارة، كما أنهم يشكلون، في الوقت نفسه، فضلا عن العلاقات التي يحافظون عليها فيما بينهم الرباط الوحيد، الدائم، بين الشرق والغرب»[90].

لقد حضي اليهود إذن، في القسم الأول من العصور الوسطى بوضع ملائم، واعتبروا جزءا من الطبقات العليا في المجتمع، أما وضعهم القانوني فلا يختلف كثيرا عن وضع النبلاء. وفي عهد شارل الأقرع، صدر مرسوم بيتر Pitres (عام 864) الذي يعاقب الأقنان والسُخرَة بضرب السوط، واليهود أو الأحرار بغرامة نقدية، إن تاجروا بالذهب والفضة غير الصافيين. «كان اليهود يشغلون، إذن، دورا اقتصاديا ضروريا، لم يكن بإمكان غيرهم تأديته، وتمثل ذلك الدور في التجارة»[91]. ولا يرى المؤرخون البرجوازيون، عادة، فرقا كبيرا بين التجارة والربا في العصور القديمة أو الوسطى، من جهة، والرأسمالية في عصرنا، من جهة أخرى. لكن الفارق بين التجارة في العصور الوسطى، والربا المرتبطة بها لا يقل أهمية عن الفارق الذي بين الملاك الرأسمالي الكبير، الذي ينتج للسوق، والسيد الإقطاعي، أو الذي بين البروليتاري الحديث والقن أو العبد. وفي عهد ازدهار اليهود التجاري، كان نمط الإنتاج الإقطاعي مسيطرا، وكان ينحصر الإنتاج، بصورة أساسية، في القيم الإستعمالية، لا في القيم التبادلية، مكتفيا كل ميدان بنفسه، ولا مبادلة إلا في بعض الكماليات، كالتوابل والأقمشة الثمينة، الخ. أما الأسياد، فكانوا يتخلون عن قسم من المواد الخام من أراضيهم، مقابل البضائع النادرة والآتية من الشرق. ولا يتنافى المجتمع الإقطاعي، القائم على إنتاج القيم الإستعمالية مع «الرأسمالية» بشكلها التجاري والربوي البدائي، بل يتممها. «إن التطور، المستقل ذاتيا، والمهيمن للرأسمال بصفته رأسمالا تجاريا، يطابق نظاما للإنتاج لا يلعب فيه الرأسمال أي دور، من وجهة النظر هذه يمكن القول أنه يتناسب تناسبا عكسيا مع التطور الاقتصادي للمجتمع... وطوال ما يقوم الرأسمال التجاري بتأمين تبادل منتجات الجماعات قليلة التطور، فإنه يحقق، ليس فقط ظاهريا، بل في الواقع، دائما تقريبا، أرباحا مفرطة مشوبة بالاحتيال. وهو لا يكتفي (أي الرأسمال التجاري) باستثمار الفرق بين كلفات الإنتاج في مختلف البلدان، حيث يدفع إلى التسوية بين قيم السلع، بل إنه يتملك الشطر الأكبر من فائض القيمة. وهو يتوصل إلى ذلك بصيرورته وسيطا بين الجماعات التي تنتج، قبل كل شيء، قيما استعمالية، والتي يُعتبر بيع هذه المنتوجات بقيمتها، إذا أهمية ثانوية بالنسبة إليها، أو بتعامله مع مالكي أرقّاء، مع إقطاعيين ومع حكومات استبدادية، تمثل كلها الثروة القائمة على التمتع بالمنتوجات»[92]. وفي حين أن الرأسمال التجاري أو المصرفي الحديث ليس، بالمعنى الاقتصادي سوى محلق وذيل للرأسمال الصناعي، ولا يقوم إلا باستملاك جزء من فائض القيمة المخلوقة في عملية الإنتاج الرأسمالي، فإن الرأسمال التجاري والربوي يحقق أرباحه باستثمار الفرق بين أكلاف الإنتاج في مختلف البلدان، وباستملاكه جزءا من فائض القيمة التي يسلبها الإقطاعيون من أقنانهم. «إنها دائما السلعة نفسها التي يتحول إليها المال في المرحلة الأولى، والتي تتحول، في المرحلة الثانية، إلى مزيد من المال»[93].

ولا يوظف التاجر اليهودي أمواله في الإنتاج، كما سوف يفعل، بعد عدة قرون، تجار مدن العصور الوسطى الكبيرة: إنه لا يبتاع مواد أولية، ولا يمول صناع الأقمشة، أما رأسماله التجاري، فليس إلا وسيطا بين منتوجات لا يسيطر عليها ولا يخلق ظروف إنتاجها.

وترتبط التجارة، عضويا، بالقرض بفائدة، أي بالربا. وإذ ترتب على الثروات المتراكمة في أيدي الطبقات الإقطاعية، الرفاه والتجارة الذي توفره، تصبح الرفاهية بدورها دليلا مميزا للثروة. وفي البدء، يتيح فائض الإنتاج المتراكم للسيد استيراد التوابل والأقمشة الشرقية والحرير، وتصبح هذه المواد، فيما بعد، وقفا على الطبقة المسيطرة. عندئذ تبدأ الظواهر تطغى غلى الباطن. وعندما أصبحت الغلات العادية لطبقة الملاكين غير وافية لإتباع نمط حياة اعتادوها، اقتضت الضرورة الاستدانة. وهكذا يلازم التاجر شخصا آخر: إنه المرابي. وفي العموم، لم يكن المرابي والتاجر، في تلك الفترة، إلا شخصا وحيدا. كان التاجر هو الشخص الوحيد الذي يملك المال الضروري ليقرض أغنياء البلاد المُبذرين. ولم يكن السيد وحده بحاجة للمرابي، فعندما يحتاج

-[90] هنري بيرن: محمد وشارلمان H.Pirenne

-[91] د. روشر: اليهود في العصور الوسطى W.Roscher

-[92] كارل ماركس: رأس المال، كتاب 3

-[93] كارل ماركس: المرجع السابق.

الملك إلى التعبئة الفورية للجيش، وفي حال عدم كفاية حاصل الضرائب الطبيعي، يضطر عندئذ إلى أن يقصد «رجل الدنانير». وعندما يصبح الفلاح عاجزا عن دفع ما يتوجب عليه بسبب المحل الزراعي، أو بعد وباء أو بسبب الرسوم المضنية والضرائب والسخرات، وعندما يكون قد استنفد بذوره، لا يعود بإمكانه تجديد أدوات العمل المهترئة، يضطر عندئذ إلى الاستدانة من المرابي.

إن ثروة المرابي ضرورية إذن لمجتمع يستند إلى الاقتصاد الطبيعي، إنها تشكل الاحتياط الذي يغترف منه المجتمع عندما تعترضه ظروف معينة «وينتمي الرأسمال المنتج بالفائدة، أو الرأسمال الربوي -إذا طبقنا عليه الاسم الذي يناسب شكله البدائي- ينتمي مع شريكه الرأسمال التجاري، إلى الأشكال القديمة للرأسمال أو أشكال ما قبل الإنتاج الرأسمالي، التي نجدها في تنظيمات المجتمع المختلفة»[94].

كان الملوك والأسياد الكبار يودعون إيرادات الضرائب والرسومات عند اليهود. هكذا برز يهود يشغلون مراكز أمناء الضرائب، أو جُباة الرسومات. وكان وزراء مالية الملوك في بداية العصور الوسطى من اليهود، في غالب الأحيان. ففي أسبانيا، وحتى أواخر القرن الرابع عشر، كان اليهود صيارفة كبارا، وفي الوقت ذاته أمناء الضرائب. وفي بولونيا، «فوّض الملوك إلى اليهود الوظائف المهمة في إدارة أملاكهم المالية، وفي عهدي كازيمير الأكبر، ولاديسلاس جاغلون، لم يوكل لليهود تحصيل الضرائب العامة فحسب، إنما أيضا ضمان الإيرادات التي كانت أهميتها تفوق الأموال ومناجم الملح الملكية. هكذا نعلم مثلا أن «وروتشليد» كراكوفيا، ويدعى لفكو، هو أمين خزانة ملوك بولونيين ثلاثة، وفُوّض، في القسم الثاني من القرن الرابع عشر، باستغلال ممالح «فيلزكا» و «بوشيا» وإدارة «قصر أموال» كراكوفيا»[95].

إن الاقتصاد الطبيعي إذن، بحاجة دائمة لليهود ما دام قائما، ولكن حين انهار ذلك الاقتصاد بدأ اضطهاد اليهود وتعرض وضعهم للأخطار لحقبة طويلة من الزمن.

[94]- كارل ماركس: المرجع السابق.

[95]- شيبر: التاريخ اليهودي Shipper: Jewish History

الفصل الثالث

عهد المرابي اليهودي

يتميز النظام الاقتصادي الذي سيطر في أوروبا الغربية حتى القرن الحادي عشر، بغياب الإنتاج المخصص للتبادل. وكانت المدن القليلة، المتبقية مند العهد الروماني، تؤدي، بصفة رئيسية، أعمالا إدارية وعسكرية. وكان مجمل الإنتاج مخصصا للاستهلاك المحلي فقط. وكانت أملاك الأسياد تلبي حاجاتها بنفسها ولم تتصل مع العالم الفسيح إلا بواسطة البائعين اليهود الذين كانوا يغامرون في تلك النواحي. ولم يكن دور الأوروبيين في التجارة، إلا دورا سلبيا.

لكن، مع مرور الزمن، ولاطراد استيراد البضائع الشرقية، قضت الضرورة بإنتاج المواد التبادلية، هكذا، دفع النمو التجاري إلى الأمام، بالإنتاج المحلي، وحلّ إنتاج القيم التبادلية، تدريجيا، محل إنتاج القيم الإستعمالية.

وانخفض استيراد جميع المواد، التي تنتج محليا، من الشرق، وتطور إنتاج القيم التبادلية، في البدء، حيثما توفرت الشروط المختلفة، لصناعة أو استخراج بعض المواد التي كانت مرغوبة، بشكل خاص في الخارج، أي **المواد الاحتكارية**. مثلا على ذلك، الصوف الإنكليزي وجوخ الفلاندر وملح البندقية والنحاس الدينانتي، الخ. وبسرعة، تطورت، في هذه الأماكن المحظوظة، «هذه الصناعات المخصصة، التي فاضت منتوجاتها في الحال، بفضل التجارة خارج البلاد»[96].

وصار للتجارة دور إيجابي بعد أن كان سلبيا. فانقطعت أجواخ الفلاندر وأقمشة فلورنسا في غزو العالم الفسيح، ولِنُدرة تلك المواد، فقد درّت على أصحابها أرباحا طائلة. وأدى تراكم الثروات السريع إلى نمو مطّرد للطبقة التجارية المحلية. هكذا أصبح الملح بحوزة أهالي البندقية وسيلة فعالة للثراء ولإخضاع الشعوب. ومند البدء، استخرج سكان هذه الجزيرة ملحا كان يطلب من كافة الشعوب الواقعة قرب الادرياتيك، مما أعطى البندقية امتيازات تجارية ونعما ومعاهدات مؤاتية.

وطوال المدة التي عاشتها أوروبا في ظل نظام الاقتصاد الطبيعي، كانت مبادرة التبادل التجاري بيد البائعين القادمين من الشرق، واليهود منهم بشكل خاص. وتمكن فقط الباعة المتجولين وبعض مجهزي قصور النبلاء و والاكليروس المتواضعي الحال، من الإفلات من مصير جماهير الاقنان البسطاء، المرتبطين بالأرض. ومكّن تطور الإنتاج المحلي، بسرعة، بروز طبقة قوية التجار المحليين، تولدت من الحرفيين. وخضع الحرفيون لطبقة التجار المحليين، بعدما استأثرت تلك الأخيرة، بتوزيع المواد الأولية، واستندت التجارة المحلية، أساسا، إلى الصناعة، بعكس تجارة اليهود، المنفصلة تماما عن عملية الإنتاج.

وفي كل مكان، سار النمو الصناعي والتوسع التجاري جنبا إلى جنب. «وحظيت البندقية بمركز تجاري وصناعي فائق الأهمية، وخدمت فباركها مصالح تجارها، بشكل لا مثيل له، في علاقاتهم مع الشرق. وعمت البندقية والمدن المجاورة، فبارك متنوعة الأصناف»[97]. «وأدّت» التجارة البرية التي امتدت من إيطاليا والفلاندر، إلى انتعاش حركة المرافئ. ففي إيطاليا والبندقية وبيزا وجنوى، وفي فلاندرا بروج. ومن ثم تطورت المدن الصناعية: مديريات اللومبارد وفلورنسا من جهة، غاند وايبرس وليل ودُبي وفالنسيان وبروكسيل، من جهة أخرى»[98].

وشكّلت صناعة الصوف أساس عظمة مدن العصور الوسطى وازدهارها، وكانت الاجواخ والأقمشة، من أهم البضائع في أسواق تلك العصور. ومن هذه الناحية، يظهر أيضا الفارق العميق بين رأسمالية العصور الوسطى والرأسمالية الحديثة. فهذه الأخيرة، تستند إلى ثورة هائلة في وسائل الإنتاج، وتلك إلى تطور إنتاج القيم التبادلية فقط.

---

[96]- هنري بيرن: الديموقراطيات القديمة في هولندا.

[97]- ج. د. دبنغ: تاريخ التجارة بين أوربا والشرق G.B.Depping

[98]- هنري بيرن أوروبا Pirenne.

وأدى تحويل اقتصاد العصور الوسطى إلى اقتصاد تبادلي، إلى سحق مركز اليهود في التجارة. فحلّ تجار مسيحيون محترفون محل التاجر اليهودي، الذي كان يستورد التوابل إلى أوروبا ويصدر الرقيق، وقدّمت لهم صناعة المدن الغذاء الرئيسي لتجارتهم.

واصطدمت تلك الطبقة التجارية المحلية، بعنف، باليهود القابضين على مركز اقتصادي بَطُل زمانه، وموروث من مرحلة سابقة للتطور التاريخي.

يرجع التناقض المتنامي بين التجارة «المسيحية» والتجارة اليهودية إذن إلى تعارض بين نظامين: نظام الاقتصاد التبادلي، ونظام الاقتصاد الطبيعي. وعليه فإن التطور الاقتصادي في الغرب هو الذي أدى إلى تقويض دور اليهود التجاري المرتكز على وضع إنتاجي متخلف.

وكان احتكار اليهود التجاري ينهار، كلما تطورت الشعوب التي كان استغلالها يغذي ذلك الاحتكار. طوال قرون، كان اليهود الأوصياء التجاريين على الشعوب الجديدة التي لم تكن تجهل فائدة دورهم، لكن كل وصاية طال عهدها تصبح مزعجة. وهكذا راحت شعوب بأكملها تتحرر، كالأفراد، بالصراع، من وصاية الشعوب الأخرى»[99].

ومع تطور الاقتصاد التبادلي في أوروبا، ومع نمو المدن والصناعة الحرفية، أُقصي اليهود تدريجيا من المراكز الاقتصادية التي كانوا يشغلونها. ورافق هذا الإقصاء صراعا وحشيا، قامت به طبقة التجار المحلية ضد اليهود. ومنحت الحروب الصليبية -التي كانت تعبر عن إرادة المدن التجارية في شق طريقها نحو الشرق- الفرصة لهذه المدن للقيام باضطهادات عنيفة ومذابح ضد اليهود. وابتداء من ذلك العهد، تعرّض وضع اليهود في مدن أوروبا الغربية للخطر.

ولم يصل التحول الاقتصادي، في البدء، إلا إلى بعض المدن المهمة، ولم تتأثر أملاك الأسياد إلا جزئيا بهذا التحول، واستمر النظام الإقطاعي بالازدهار، بينما لم تختف سبُل الثراء عند اليهود، إذ لازالت أملاك الأسياد تتيح لهم مجالا واسعا للعمل. وأصبح الرأسمال اليهودي -وقد كان رأسمالا تجاريا بشكل رئيسي في المرحلة السابقة- رأسمالا ربويا في معظمه، وكفّ اليهود عن تقديم البضائع الشرقية للسيد واستمر، لمدة معينة، يقرضه المال، لسد حاجياته. وإذا كانت كلمة «يهودي» مرادفة لكلمة «تاجر» في المرحلة السابقة، فقد بدأت تقترن تدريجيا بكلمة مراب.

وانه لخطأ جسيم الادعاء بأن اليهود لم يشرعوا بالاهتمام بالتسليف إلا بعد إقصائهم عن التجارة، كما يقول أغلب المؤرخين، فالرأسمال الربوي شقيق الرأسمال التجاري. وفي بلدان أوروبا الشرقية، حيث لم يُقص اليهود عن التجارة، نجد -كما سنرى بعد حين- عددا لا بأس به من المرابين اليهود»[100]. وقد أدى إبعاد اليهود عن التجارة، في الواقع، إلى تمركزهم في إحدى الحرف التي كانوا قد مارسوها سابقا. ولئن كان اليهود قد ملكوا –في حقب مختلفة- أراضي، فهذا لا يمكن أن يكون حجة جدية في تأييد أطروحة المؤرخين اليهود التقليدية. وإذا لم تكن الملكية اليهودية دليلا على تعدد أعمال اليهود، فعلينا إذن اعتبارها ثمرة للعمليات الربوية والتجارية[101].

ونجد في السجلات التجارية، الخاصة باليهودي الفرنسي هيلو -الذي عاش في بداية القرن الرابع عشر في فرانش كونتي، كروما في عداد ممتلكاته، لكن نستخرج بوضوح من دفاتره أن زراعة الكرمة لم تكن مهنته الأساسية، بل كانت هذه الكروم حاصل عملياته المركنتيلية.

وفي عام 1360، عندما دعا ملك فرنسا اليهود الفرنسيين للعودة إلى أراضيه أثار ممثلهم، ويدعى ماناسي، موضوع الحماية الملكية للكروم و البهائم، التي ستنتقل إلى أيدي اليهود، من جراء رهون لم تسدد قيمتها. وفي خلال الخلافات اللاهوتية الكبيرة

---

[99]- روشر: اليهود في العصور الوسطى Roscher

[100]- يبرهن مثال بولونيا على سطحية المخطط المعتاد للمؤرخين اليهود، الذين يفسرون وظيفة اليهود التجارية أو الربوية كنتيجة للاضطهادات التي لاقوها. فمن حرم يهود بولونيا من التعاطي بالزراعة والخرف؟ كانت التجارة والمصارف كلها بين أيدي اليهود في بولونيا، قبل المحاولات الأولى التي قامت بها المدن البولونية في الصراع المعادي لليهود.

[101]- «إنه لمن الخطأ الظن بأن اليهود حرموا من امتلاك الأراضي. ففي مدن العصور الوسطى، كان لليهود الذين يجنون الأرباح من التجارة منازلهم الخاصة، وأراض حول المدن، ولكن لا يظهر أنهم زرعوا تلك الأراضي. وكلما حصلوا على أرض كرهن، كانوا يستعجلون بيعها، ليس لأنه محظور عليهم امتلاكها، بل لأنهم ليسوا بحاجة لها. لكننا نجد أحيانا في السجلات كروما وبساتين تخص اليهود، وكانت غلال تلك الأراضي تباع بسهولة». ه. كونوف

بين اليهود والمسيحيين في أسبانيا، عاب المسيحيون على اليهود كونهم أثروا، بفضل عمليات «الربا، واستحوذوا على الحقول والبهائم... إنهم يملكون ثلاثة أرباع الحقول وأراضي أسبانيا»[102].

وكان انتقال ممتلكات النبلاء إلى أيدي اليهود عملية عادية في ذلك العهد، هذا ما حصل لقرية ستريزوف في بوهيميا، فقد كانت تخص نبيلين، انتقلت تسديدا لديونهما، إلى أيدي اليهوديين فاتر ومركلن (1382)، كما انتقلت قرية زلاماني اوجزد، في مورافيا، إلى أيدي اليهودي آرون دي هراديك، وقرية نيفيروفو في ليثوانيا، إلى أيدي اليهودي ليفون سالوميك ،الخ.

وما دامت ملكية اليهود العقارية تمثل بالنسبة إليهم محض ميدان للمضاربات، فقد كان من المحتم أن يكون لها طابع مؤقت، لأن الطبقة الإقطاعية توصلت باكرا إلى سن قانون يحظر رهن الأملاك غير المنقولة لدى اليهود.

وكان الأمر على خلاف ذلك حيثما جرت تبدلات اقتصادية واجتماعية حقيقية وحيثما تخلى اليهود عن عملياتهم التجارية، ليصبحوا ملاكي أراضي حقيقيين، وكان عليهم بالتالي، عاجلا أم آجلا، التحول إلى دين آخر.

وفي بداية القرن الخامس عشر، بذل ملك بولونيا جهده لإقناع اليهودي فولتشكو، الذي توصل إلى امتلاك عدة قرى، «بالاعتراف بعمى بصيرته، والانضمام إلى الدين المسيحي المقدس»، ولهذا الحدث معنى بليغ، إذ أن ملوك بولونيا كانوا يكتنفون الدين اليهودي بعنايتهم، ولم يكن لتخطر لهم قط فكرة «نَصرَنة» التجار والصيارفة اليهود، وبالمقابل كان وجود ملاك عقاري يهودي في العصور الوسطى أمرا غير طبيعي، وهذا ما ينطبق عامة على المرابي المسيحي.

بالطبع، ليس لهذه القضية أية علاقة بالحماقات العرقية، وإنه لمن السخف الادعاء، مع سومبارت، أن الربا سمة مميزة للعرق «اليهودي» فالربا، الذي يلعب دورا هاما في مجتمعات ما قبل الرأسمالية كما رأينا، قديم قدم الإنسانية تقريبا، وقد مارسته جميع الأعراق والأمم. ويكفي أن نشير إلى الدور المهم الذي لعبه الربا في المجتمعات الرومانية والإغريقية.

إن الادعاء بأن اليهود قد تعاطوا الربا نظرا لمؤهلاتهم العرقية، هو قلب للموضوع رأسا على عقب. ولا يمكن تفسير الوضع الاقتصادي لجماعة اجتماعية معينة بامكاناتها «الغريزية» أو بإيديولوجيتها، بل بالعكس أن وضعها الاقتصادي يفسر بامكاناتها «الغريزية» أو بإيديولوجيتها، بل بالعكس أن وضعها الاقتصادي يفسر بسبب مؤهلات كل من هاتين المجموعتين للدور الاقتصادي الذي كان عليها أن تلعبه، بل تكوّنت اديولوجية كل من هاتين الطبقتين وامكانتها، تدريجيا، بفعل أوضاعها الاقتصادية.

كذلك الأمر بالنسبة لليهود، فمؤهلاتهم «الغريزية» للتجارة لا تفسر وضعهم الاقتصادي، بل أن وضعهم الاقتصادي هو الذي يفسر مؤهلاتهم التجارية. وفي الواقع، يشكل اليهود مزيجا عرقيا متنوعا جدا، وقد تمثلوا عبر تاريخهم عناصر عرقية غير سامية متعددة، ففي انكلترا، «جلب الاحتكار الربوي لليهود ثروات ضخمة لهم مما دفع بعض المسيحيين للتهوّد، من أجل الإسهام في الاحتكار اليهودي للقروض»[103].

فاليهودية إذن نتيجة انتقاء وانتخاب اجتماعي، وليست «عرقا له مؤهلات غريزية للتجارة». لن أولوية العامل الاقتصادي والاجتماعي لا تنفي أبدا تأثير العامل النفسي.

وكما أنه من الصبيانية اعتبار وضع اليهودية الاقتصادي نتيجة «لمؤهلات اليهود»، كذلك من الصبيانية اعتباره نتيجة للإضطهادات وللقوانين التي تحذر مهن أخرى غير التجارة والربا. «وتقول كتابات عدة عن حياة اليهود الاقتصادية في العصور الوسطى، أنهم عُزلوا مند البدء من **الحرف وتجارة** البضائع، وحرموا من امتلاك الأملاك، لكن هدا الادعاء ليس إلا أسطورة. فالواقع أنهم كانوا يسكنون خلال القرن الثاني والثالث عشر، في معظم مدن ألمانيا الكبيرة، ويقيمون بين المسيحيين، ويتمتعون

---

[102]- شيبتير: التاريخ اليهودي (التاريخ الاقتصادي).

«شكل اليهود طبقة اجتماعية تملك ثروات ضخمة، اكتسبتها من الصناعة والتجارة، ومن العمليات المصرفية بشكل خاص». ر. بالسبر: تاريخ أسبانيا. باريس 1938.

[103]- ل. برنتانو.

بنفس الحقوق المدنية، وفي خلال مرحلة بأكملها، كان لليهود في كولونيا القدرة على إلزام المسيحي –الذي له على يهودي دعوى- بالامتثال أمام القضاة اليهود ليحاكم، استنادا للقانون العبري.

انه لمن الخطأ أيضا الادعاء بعدم قبول اليهود في التعاونيات الحرفية. وفي الحقيقة كانت عدة تعاونيات ترفض ما يسمى «بالأولاد اليهود»، كمتدربين، لكن، لم يكن معمولا بهذا الرفض في جميع التعاونيات. والدليل على ذلك هو وجود الصاغة اليهود، حتى في الفترة التي أصبحت فيها الأنظمة التعاونية أكثر قساوة. والحقيقة أن عدد الحدادين والنجارين كان ضئيلا بالنسبة لحرفيي العصور الوسطى، والسبب في ذلك هو قلة اليهود الذين يسمحون لأولادهم بمزاولة تلك المهن. ولم يكن سبب رفض اليهود، في بعض التعاونيات، بغضا دينيا أو حقدا عنصريا، بل لأن مهن المرابين والباعة المتجولين كانت «غير شريفة»، وكانت التعاونيات ترفض قبول أبناء رجال الأعمال والمرابيين والباعة المتجولين اليهود، تماما كما ترفض أبناء الأجراء البسطاء والملاحين وحياكي الكتان[104].

كان المجتمع الإقطاعي، أساسا، مجتمع طوائف، فهو يريد من كل إنسان «أن يبقى في مكانه». لقد حارب ربا المسيحيين، كما جعل مستحيلا انتقال البرجوازيين إلى طبقة النبلاء، كما نظر أيضا باحتقار إلى النبيل الذي يتدنى فيمارس مهنة أو يتعاطى تجارة. وفي سنة 1462، طُرد الدكتور هان فِنتَر من مدينة نوردلنغن، لأنه تعاطى الربا بواسطة يهودي. وفي نفس المدينة، وبعد ثلاثين عاما، عُرض برجوازي، من عائلة كنكِل، على منصة (وهو جهاز يُعرض عليه المحكومون في مكان عام) وطُرد من البلد، لأنه مارس «مهنة اليهودية». وهدد مجمع بَمبرغ، عام 1491، بطرد كل مسيحي من المجموعة المسيحية، إن مارس الربا بمفرده أو بواسطة يهودي. وفي عام 1487، سُن قانون في سيليزيا، يقضي بوضع كل مسيحي، يتعاطى الربا، تحت تصرف المحكمة الملكية، ويعاقب عقابا رادعا لغيره.

ولم يتبدل موقف المجتمع المسيحي بالنسبة للقرض بالفائدة، طوال المدة التي بقي فيها البناء الإقطاعي صلبا، لكن التحولات الاقتصادية العميقة، التي بحثناها سابقا، قلبت معطيات الموضوع، فقد دفع النمو الصناعي والتجاري بالمصرف إلى دور لا غنى عنه في الاقتصاد وأصبح المصرفي الذي يموّل التاجر أو الحرفي عنصرا مهما في النمو الاقتصادي.

كانت خزينة المرابي في العهد الإقطاعي ذخيرة ضرورية، لكنها غير منتجة. «وانقسمت الأشكال الأساسية التي سار في ظلها الرأسمال الربوي في مجتمع ما قبل الرأسمالية –هذه الأشكال هي ثانوية في المجتمع الرأسمالي، ولا تحدد طبيعة الرأسمال المنتج للفائض- إلى قسمين: يقتطع الربا إما من القروض التي تسلف للكبار، وعادة الملاكين العقاريين الذين يبددون ثرواتهم، وأما من القروض التي تسلف للمنتجين الصغار، مالكي أدوات عملهم، أي الحرفيين، وخاصة الفلاحين الذين كانوا يشكلون في ذلك العهد الطبقة الأكثر أهمية»[105].

كان المرابي يقرض الإقطاعيين والملوك لرفاهيتهم ولمصاريف الحرب، ويُقرض المزارعين والحرفيين ليتمكنوا من تسديد الرسومات والمدفوعات المستحقة عليهم، الخ. ولا تخلق الأموال التي يقرضها المرابي فائضا للقيمة، بل تمكنه من الاستيلاء على قسم من فائض الإنتاج الجاهز.

أما وظيفة المصرفي فمختلفة، فهو يساهم مباشرة في إنتاج فائض القيمة. إنه منتج، إنه يمول المشاريع التجارية والصناعية الكبيرة. فبينما كان القرض في العهد الإقطاعي، قرضا **استهلاكيا**، بشكل أساسي، أصبح القرض **إنتاجيا وتداوليا** في عهد التطور التجاري والصناعي.

هناك إذن فرق أساسي بين المرابي والمصرفي، إذ يشكل الأول عنصر القرض في العهد الإقطاعي، والثاني عنصر القرض في عهد الاقتصاد التبادلي. وجهل هذا الفرق الجوهري يؤدي بجميع المؤرخين تقريبا إلى الخطأ. إنهم لا يميزون المصرفي في العصور القديمة عن المصرفي اليهودي في إنكلترا خلال القرن الحادي عشر، وعن روتشيلد، أو حتى فوجر في عصرنا. «يقول نيومن أن الفرق ما بين المرابي والمصرفي، هو في أن الأول يقرض الفقير والثاني يقرض الغني، فهو لا يرى أن الأمر يتعلق فقط بمسألة فقير أو غني، **إنما الفرق مابين نمطين اجتماعيين في الإنتاج، وبين البنيات الاجتماعية التي تقابلهما**»[106].

---

[104]- لونوف.

[105]- كارل ماركس: رأس المال. المجلد الثاني.

أصبح هذا التمايز واضحا، بلا شك، في المرحلة الرأسمالية بحصر المعنى، لكن «علاقات التاجر بالمُقرض في الأشكال الاجتماعية السابقة هي نفسها علاقات المقرض بالرأسمالي الحديث، ولا تنجو هذه العلاقة من انتباه الجامعات الكاثوليكية. وقد اعترفت جامعات ألغَلا وسدلامنك وانغولشتات وفريبورغ – بريسغو وماينس وكولونيا وتريف، الواحدة تلوى الأخرى، بشرعية فائدة الأموال المقدمة **للتجارة**»[107].

وكلما يتطور الاقتصاد، يحتل المصرف مراكز أكثر صلابة، بينما يفقد المرابي اليهودي تدريجيا مركزه. واختفى المرابي اليهودي من مدن الفلاندر التجارية الغنية، لأن «اليهود، بعكس اللومبارديين، **لم يمارسوا إلا الربا، ولم يلعبوا دور الوسطاء في عمليات التجارة**»[108].

وبعد إقصائهم من التجارة في أوروبا الغربية، في القرن الثالث عشر، تابع اليهود تطوير عملياتهم الربوية في المناطق التي لم يبلغها الاقتصاد التبادلي بعد. ففي إنكلترا، على عهد الملك هنري الثاني (القسم الثاني من القرن الثاني عشر) غاص اليهود في أعمال الربا، إنهم إجمالا، أثرياء كبار، يتكون زبنائهم من الملاكين العقاريين الكبار، ومن أشهر هؤلاء الصيارفة اليهود آرون دي لنكولن، وقد كان واسع الأعمال في نهاية القرن الثاني عشر، وكان له في ذمة الملك هنري الثاني مبلغ مئة ألف إسترلينية، وهي كمية تعادل ميزانية المملكة الإنكليزية السنوية، في ذلك العهد.

وانتقل قسم من أراضي النبلاء إلى أيدي المرابين اليهود، بفضل معدل الربا، المرتفع جدا، إد يتراوح بين 43 و86 بالمئة، لكن كان لهم شركاء أقوياء و...متطلبون. فقد دعم ملوك إنكلترا أعمال اليهود، لأنها تشكل بالنسبة لهم، موردا ماليا مهما، وكانت تشكل جميع القروض التي تُعقد مع اليهود في «السكاكريوم جورديوم»Saccarium Judaeorum يُدفع عليها رسم قدره 10 بالمئة يعود للخزنة الملكية، ولكن هذه المشاركة الشرعية لم تكف الملوك، فكانوا يستعينون بالذرائع العديدة لاختلاس أموال اليهود. وكان الربا الذي مارسه اليهود يساهم، باستمرار، في تضخيم الخزنة الملكية. ومما كان يضر بمصالح اليهود كونهم كانوا يقرضون الملوك، ود فطن ورثة آرون دي لنكلن لذلك عام 1187، عندما استولى ملك إنكلترا على أملاك هذا المصرفي الثري.

وانتقم النبلاء، المختلسة أموالهم، بتدبير مجازر اليهود. ففي عام 1189، جرت مذابح اليهود في لندن ولنكلن وستمفورد، ودمر النبلاء، عام 1190، بقيادة ماليبيس «السكاكاريوم جودوريوم» في يورك، وحُرقت الكمبيالات، وانتحر اليهود المحاصَرون في القصور. لكن استمر الملك في حماية اليهود، حتى بعد موتهم... فقد حول لنفسه المبالغ المتوجبة لليهود، على اعتبارهم «عبيد خزنته»، وكلف موظفين اختصاصيين بتنظيم جدول لجميع الديون.

وفي بداية القرن الثالث عشر منح الملك النبلاء الإنكليز قانون «الماغنا كارتا» لذي أتى ببعض الإصلاحات في نظام القروض، بالرغم من ذلك، نشبت فتن جديدة ضد اليهود، عامي 1262 و1264.

وفي عام 1290، طرد جميع سكان إنكلترا اليهود -ويقارب عددهم الثلاثة آلاف- وصودرت أملاكهم. ولم يختلف كثيرا وضع اليهود الاقتصادي في فرنسا، عنه في إنكلترا، وعددهم هنا يقارب المئة ألف. «عند ارتقاء فيليب أوغست العرش (1180) وخلال السنين الأولى من حكمه، كان اليهود أثرياء وكثُرا في فرنسا. ويشير المؤرخ إيغور أن اليهود اكتسبوا نصف باريس تقريبا... وكانت تمتد اعتماداتهم إلى القرى والمدن والضواحي وإلى جميع الأنحاء. واستملك اليهود ثروات عدد كبير من المسيحيين، بسبب الديون»[109].

وتعاطى اليهود الربا في شمال فرنسا، بشكل خاص. وفي مقاطعة البروفنس، وحتى القرن الثالث عشر، كانت مساهمة اليهود في التجارة ما تزال مهمة جدا، وكان يهود مرسيليا يوطدون علاقات تجارية مع أسبانيا وشمال إفريقيا وصقلية وفلسطين، إذ كانوا يملكون سفنا ويستوردون، كأسلافهم الكارولنجي، التوابل والرقيق.

---

[106]- كارل ماركس: المرجع السابق.

[107]- كارل ماركس: المرجع السابق.

[108]- هنري بيرن: تاريخ بلجيكا، بركسل 1900-1932.

[109]- دبنغ: المرجع السابق.

لكن ليس كل ذلك إلا آثار مرحلة ولّى زمانها، فالربا يشكل، على ما يبدو، الوظيفة الاقتصادية الرئيسية لليهود في فرنسا في خلال القرن الثالث عشر. وقد عين في كل مدينة كاتب عدل يهتم بأعمال القروض، بعدما بلغت فائدة الربا حوالي 43 في المئة. وكان الزبائن الرئيسيون للصيارفة اليهود -حتى مرسوم «مليون» (1230) الذي منع اليهود من الإقراض برهن على الأملاك غير المنقولة- من الأمراء والأسياد، ففي بداية القرن الثاني عشر، كان اليهودي سليمان، من مدينة ديجون، مقرضا لأكبر أديرة فرنسا، وكان يتوجب على كونت مون بيلييه لليهودي، بنديت، مبلغ 50000 قرش. وفي رسالة إلى ملك فرنسا، أعرب البابا انوسانت الثالث عن سخطه لكون اليهود يمتلكون أملاك الكنيسة ويستولون على الأراضي والكروم.

وإذا كان وضع اليهود الاقتصادي في فرنسا شبيها بوضعهم في إنكلترا، فقد كان مركزهم السياسي مختلفا، إذ كانت السلطة المجزأة تسلمهم إلى جملة من الأمراء والأسياد، وكان اليهود خاضعين إلى جملة من الضرائب والرسومات تغني الأقوياء، ووضعت وسائل عدة قيد التنفيذ لابتزاز أكبر عدد ممكن من اليهود، فالتوقيفات الجماعية والأحكام المتكررة والطرد، كل دلك كان حجة لاستلاب واسع للأموال. وكان ملوك فرنسا يطردون اليهود تارة، ويستقبلونهم أخرى، كل ذلك للاستيلاء على أموالهم.

إننا لا نعلم بالضبط وضع اليهود الاجتماعي والاقتصادي في أسبانيا الاسلامية. فمما لاشك فيه أنهم كانوا ينتمون للطبقات الغنية، ويقول أبو اسحق الالفيري: «عند وصولي إلى غرناطة، وجدت بأن اليهود يحتلون مراكز قيادية ويتقاسمون العاصمة والمقاطعات، ويحتل هؤلاء الملعونون المراكز العليا في الإدارة ويهتمون باستيفاء الضرائب ويعيشون في الرفاهية، بينما أنتم، أيها المسلمون، ترتدون الأسمال». وفي أسبانيا المسيحية، في قشتالة، كان اليهود يحتلون مراكز الصيارفة وأمناء الضرائب ومجهزي الملك، وكانت المَلَكية تحميهم لأنهم كانوا يدعمونها اقتصاديا وسياسيا. ففي بداية القرن الثاني عشر، كانت تبلغ نسبة الفائدة، وهي هنا أدنى منها في بلاد أخرى، 33 وثلث في بالمئة، وناضل النبلاء، في جمعيات وطنية عدة من أجل تخفيض الفائدة، لكنهم كانوا يصطدمون دائما بمعارضة الملوك، ولم يتوصلوا إلى نتائج إيجابية، في ذلك الصدد، إلا في عهد الفونس التاسع.

ونشأ وضع مشابه في الآراغون، فكان يهودا دي كافاليرا مثلا حيا «للرأسمالي» اليهودي الكبير، في القرن الثالث عشر. كان يلتزم الملّاحات ويصك النقد ويجهز الجيش ويملك أراض شاسعة وعددا وافرا من القطعان، وقد مكنت ثروته من بناء أسطول حربي لصد العرب.

ومكن تأخر النمو الاقتصادي في أسبانيا، اليهود من الحفاظ على مراكزهم التجارية، مدة أطول منها في إنكلترا وفرنسا. وتشير وثائق مؤرخة في القرن الثاني عشر إلى أن يهودا من برشلونة سافروا حتى البوسفور. وفي عام 1105 منح الكونت برنارد الثالث احتكار استيراد الأرقاء الصقليين إلى ثلاثة يهود، يعملون بالتجارة ويملكون سفنا في برشلونة. وإنما في القرن الرابع عشر، عندما «تحولت برشلونة إلى مخزن واسع وورشة كبيرة»[110]، طرد اليهود كافة من التجارة .

وساءت أوضاعهم إلى حد أنهم اجبروا على دفع رسوم من أجل المرور بتلك المدينة. «كان التعساء اليهود يدخلون برشلونة كبضاعة، عوضا عن أن يتاجروا فيها»[111].

وتوسع الربا اليهودي في الآرغون، إلى حد أن حركات واسعة حدثت في صفوف النبلاء والبرجوازية، ضد اليهود.

وامتدت سيطرة التجارة في ألمانيا حتى منتصف القرن الثالث عشر، وربط اليهود ألمانيا بهنغاريا وايطاليا واليونان وبلغاريا، فكانت تجارة الرقيق مزدهرة حتى القرن الثاني عشر، ويُذكر في التعرفات الجمركية لمدن فالنشتات وكوبلنز بأن على بائعي الأرقاء اليهود، دفع أربعة دنانير عن كل رقيق. وتشير وثيقة من عام 1113، عن يهود مدينة لوباخ «إنهم أغنياء جدا ويتعاطون تجارة واسعة مع أهالي البندقية وهنغاريا والكروات».

وازدادت أهمية المدن الألمانية، ابتداء من القرن الثالث عشر، وأدى إقصاء اليهود عن التجارة -كما حصل في أماكن أخرى، وللأسباب نفسها -إلى تحولهم إلى الأعمال المصرفية. وتجمَّع محور الثقل الربوي اليهودي على النبلاء. وتشهد وثائق نورنبرغ بأن متوسط الدين، المعقود لدى اليهود، كان يرتفع حتى 282 غولدن، بالنسبة لأهل المدن، وإلى 1672، بالنسبة للنبلاء. وحدث

---

[110]- هنري بيرن:مدن العصور الوسطى.

[111]- ج.ب. دينغ: المرجع السابق.

الأمر نفسه فيما يتعلق بكمبيالات مدينة أولمن السبع والثمانين التي كانت تخص مصارف يهودية، فمن أصل 173.2 غولدن، التي كانت تمثلها، كان النبلاء يدينون بـ90 بالمئة بدفعها. وفي عام 1344، أقرض المصرفي اليهودي فيفلان، كونت مدينة زفاييروكن 1090 ليرة، وفي عام 1339، أقرض فيفلان نفسه، بالتعاون مع يعقوب دانييل، مبلغ 61000 فلورن لملك إنكلترا إدوارد الثالث.

وطلب الإمبراطور فريديرك الثالث، عام 1451. من البابا نيقولا الخامس، منح امتياز لليهود «للسكن في النمسا ومزاولتهم التسليف مقابل فائدة من أجل رفاهية النبلاء». واحتل اليهوديان لوبلن ونزكلو في فيينا، في القرن الثالث عشر، مراكز «أمناء خزنة الدوق النمساوي»، وهي من الوظائف المهمة.

لكن لم تدم تلك الحالة طويلا. لقد كان الربا يزعزع النظام الإقطاعي، شيئا فشيئا، ويفلس كافة طبقات الشعب، بدون أن يدخل اقتصادا جديدا، عوضا عن القديم. وهو يتميز عن الرأسمال بكونه محافظا. «للربا والتجارة نمط إنتاجي معين، لا يولدانه، بل يبقيان خارجه، ويحاول الربا الإبقاء على ذلك الوضع، حتى يتسنى له الاستمرار في الاستغلال... ويكدس الربا الأموال، حيثما تكون وسائل الإنتاج مبعثرة. إنه لا يغير نمط الإنتاج، لكنه يتعلق به كطفيلي، إنه ينهكه ويضايقه ويجعل ظروف الإنتاج أكثر بؤسا... إن الربا يستغل، لكنه لا ينتج كرأسمال»[112]. وبالرغم من هدا المفعول المدمر يبقى الربا ضروريا في الأنظمة الاقتصادية المتخلفة، لكنه يؤدي إلى الجمود الاقتصادي، وهذا ما نلاحظه في عدة بلدان آسيوية.

وتعود صعوبة احتمال الربا في أوروبا الغربية إلى كونه يتنافى مع الأشكال الاقتصادية الجديدة. فقد دخل الاقتصاد التبادلي الحياة الريفية، وأدى النمو الصناعي والتجاري، في المدن، إلى تراجع الأسلوب الإقطاعي القديم في الأرياف وانفتح سوق فسيحة أمام المنتجات الزراعية، مما أدى إلى تراجع ملموس في أشكال القنانة وفي الضرائب والمستندة إلى الاقتصاد الطبيعي.

«لم تحتفظ القنانة بشكلها البدائي، إلى في المناطق القصيَّة والبعيدة عن التيارات التجارية الواسعة، بينما ضعفت في الأماكن الأخرى، إن لم نقل أنها اضمحلت. ويمكننا القول، أنه ابتداء من القرن الثالث والرابع عشر، تشكلت، أو كانت في طور النشوء، طبقة ريفية في أوروبا الغربية والوسطى، من الفلاحين الأحرار»[113].

كانت القرون، الثاني والثالث والرابع عشر، عهد تطور الربا اليهودي في كل أنحاء أوروبا الغربية وفي قسم من أوروبا الوسطى. وأدى التطور الاقتصادي إلى انهياره السريع. وجرى الطرد النهائي لليهود في نهاية القرن الثالث عشر من إنكلترا وفي نهاية القرن الرابع عشر من فرنسا، وفي نهاية القرن الخامس عشر من أسبانيا. وتعكس هذه التواريخ اختلاف وتيرة التطور الاقتصادي في تلك البلدان، فالقرن الثالث عشر هو عهد الازدهار الاقتصادي في إنكلترا، وفي القرن الخامس عشر، «أثرت الممالك الأسبانية ونمت تجارتها وكثرت الخراف في الأرياف، وأصبح الصوف الأسباني منافسا للصوف الإنكليزي، في تجارة الشمال، وازداد تصديره باضطراد نحو البلدان الواطئة -أي هولندا- وابتدأت تربية الخراف تعطي طابعا مميزا لقشتالة، مما أدى إلى ثراء النبلاء فيها، أما حديد بلباو وزيت الزيتون والبرتقال والرمان، فقد ازداد هي الأخرى تصديرها هي الأخرى نحو الشمال»[114].

وأخلت الإقطاعية، تدريجيا، المكان للنظام التبادلي، مما كان يؤدي باستمرار إلى تقلص ميدان النشاط الربوي اليهودي. **وأصبح الربا ثقلا لا يحتمل، لأن الحاجة إليه تدنت**. وكلما وفرت الأموال، تبعا لرواج البضائع، زادت قسوة الصراع ضد وضيفة اقتصادية، لم تجد مبررا لها إلا في عهد الجمود الاقتصادي، حين كانت ثروة المرابي تشكل ذخيرة ضرورية للمجتمع.

أما الآن، فابتدأ الفلاح ببيع منتوجاته وبدفع الأموال النقدية لسيده. ومن أجل سد نفقة كمالياتهم المتنامية، كان من مصلحة النبلاء تحرير الفلاحين، واحلال الريع النقدي محل الريع العيني المستقر «ويقتضي التحول -المحلي بادئ الأمر، والقومي نسبيا فيما بعد- من الريع العيني إلى الريع النقدي، نموا أكثر أهمية للتجارة، ولصناعة المدن و للإنتاج البضاعي بشكل عام، وبالتالي للتداول النقدي»[115].

---

[112]- كارل ماركس: رأس المال، المجلد الثالث.

[113]- هنري بيرن:تاريخ اوروبا.

[114]- هنري بيرن: المرجع السابق.

أما تحول كل طبقات المنتج إلى منتجين لقيم تبادلية وإلى مالكي نقد، فقد جعلها تقف، بالإجماع، ضد الربا اليهودي الذي تزداد صفته الإختلاسية وضوحا، بسب طابعه البالي. واتخذ الصراع ضد اليهود أشكالا أكثر فأكثر عنفا، فكان على المَلكية، حامية اليهود التقليدية، أن ترضخ أمام المطالب المتكررة لمؤتمرات النبلاء والبرجوازية. كما كان الملوك، في الأصل يغترفون أكثر فأكثر باستمرار من صناديق البرجوازية، تلك الطبقة التي ستحتكر عما قريب القسم الأكثر أهمية من الأملاك غير المنقولة، وانخفضت تدريجيا أهمية الإيرادات التي كان يقدمها اليهود للملوك، (هذا دونما حسابان لطرد اليهود الذي كان دائما عملية مربحة للغاية).

وهكذا طُرد اليهود من جميع البلدان الغربية، إنها هجرة من البلدان المتطورة إلى بلدان أوروبا الشرقية المتخلفة. وأصبحت بولونيا، الرازحة في معمعان الإقطاعية، الملجأ الرئيسي لليهود المطرودين من كل مكان، وفي بلدان أخرى، في ألمانيا وإيطاليا، بقي اليهود في المناطق الأقل تطورا، وعند سفر بنجمان دي توديل، كانت المراكز التجارية، كمدن بيزا وأمالفي وجنوى، شبه خالية من اليهود، بينما كانوا عديدين جدا في المناطق الأقل تخلفا من إيطاليا. وكانت ظروف التجارة والصيرفة اليهودية أكثر ملاءمة في دول الكنيسة، منها في الجمهوريات التجارية الغنية، كالبندقية وجنوى وفلورنسا.

طرد الاقتصاد البضاعي، إذن، اليهود من مراكزهم الأخيرة وأصبح اليهودي، «صيرفي النبلاء» مجهولا تماما في أوروبا الغربية، حوالي أواخر العصور الوسطى. وتمكنت بعض المجموعات اليهودية الصغيرة، هنا وهناك، من التشبث ببعض الوظائف الاقتصادية الملحقة، وأصبحت «المصارف اليهودية» «بيوتا للرهون»، يستقرض منها للبؤساء) إنه الانهيار التام. فقد أصبح اليهودي مرابيا صغيرا، يقرض فقراء المدن والأرياف، مقابل رهونات منخفضة القيمة. لكن، مادا يعمل بالأشياء المرهونة التي لا تسترد، يجب بيعها... فأصبح اليهودي جوالا يبيع السلع، وبائعا للرثاث. .وولت مرحلة الازدهار القديمة تماما.

ومنذ دلك الوقت، بدأت عهد «الغيتو»[116] والإضطهادات القبيحة والإذلال... لقد حُفرت صورة هؤلاء البائسين -المرتدين بزات وملابس مضحكة، والذين، كالبهائم، يدفعون الرسومات للمرور، في المدن، والعبور فوق الجسور، بذل وهوان-مدة طويلة في ذاكرة شعوب أوروبا الغربية والوسطى.

علاقات اليهود بطبقات المجتمع الأخرى

أثّر تطور الوضع الاجتماعي والاقتصادي لليهود تأثيرا بالغا على العلاقات التي كانت تربطهم ببقية الطبقات الاجتماعية الأخرى. ففي عهد أوجهم التجاري، كانوا بحمى الملوك والنبلاء، ولم تكن علاقتهم بالفلاحين ذات أهمية تذكر، وبالعكس اتسمت علاقاتهم بالطبقة البرجوازية بالعداء، مند بروز تلك الطبقة على مسرح التاريخ.

وبعدما أُقصي عن التجارة، تركز «الرأسمال» اليهودي في الربا فقط، وقد أدى ذلك الوضع الجديد إلى تبدل موقف النبلاء والملكية تجاه اليهود. وكان ينتقل الأسياد في كثير من الأحيان -في سبيل الدفاع عن أملاكهم المهددة- إلى صراع، لا هوادة فيه ضد المرابين الذين يستنزفونهم. واستمر الملوك في «حماية اليهود» بينما كانوا يستخدمونهم، في الواقع، لاغتراف إيرادات البلاد من أجل أغراضهم الشخصية. لكن بقيت أوضاع اليهود محتملة نسبيا، طوال المدة التي لم يتغلغل فيها الاقتصاد التبادلي داخل الريف.

فقد اتفقت جميع طبقات المجتمع على اضطهاد اليهود وطردهم، حينما بدأت الرأسمالية تهيمن على الريف، وعندما توسعت مجالات أعمال الأسياد والفلاحين، وأسهم انتصار الاقتصاد المستند إلى النقد، في دحر « رجال المال» القديم، وبعدما أقصي اليهود عن دورهم، كصيارفة للنبلاء، توصل بعض منهم إلى التمركز في «ثقوب» الاقتصاد. وبعدما أصبحوا يعملون في بيوت التسليف، وصاروا بائعي أسمال وجوّالين وبائعي رثاث، عاشوا حياة تاعسة في «الغيتو» السوداء، عرضة للحقد ولاحتقار

[115]- كارل ماركس: رأس المال.

[116]- «الغيتو»: أسست «الغيتو» حديثا وليست قديمة كما هو المفهوم السائد، ولم يسجن يهود فرانكفورت إلا عام 1462 في الغيتو. «لم تحدث أبدا إجراءات مماثلة في العصور الوسطى بل بالعكس، كان بامكان اليهود اختيار مساكنهم، وكان بوسعهم البقاء حيثما يشاؤون في جميع أنحاء المدينة». وعلينا أن نميز بين الأحياء اليهودية و«الغيتو». وإن عُرفت الأولى في حقب مختلفة من التاريخ اليهودي، فإن الثانية مؤسسة نشأت منذ الحقبة التي تحول فيها اليهودي إلى «مراب صغير»، هكذا يشكل الغيتو في بولونيا استثناء وليس قاعدة. لكن هذا لم يمنع الهمجية الهتلرية من إعادة اليهود البولونيين إلى «الغيتو».

الشعب. ولم تستمر علاقة اليهود إلا مع الفقراء والحرفين والفلاحين، وقد كانت تلك العلاقة تتوطد تدريجيا. أما الشعب، الذي يستنزفه الملوك والأسياد، والمجبر على رهن أسماله الأخيرة عند اليهود، فقد كان يوجه غضبه أحيانا نحو جدران «الغيتو». وكان الأسياد والبرجوازيون الأغنياء، الذين ينتفعون من اليهود لاستغلال الشعب، يستخدمون تلك الفتن الشعبية لابتزاز «عبيد خزنتهم».

أ- الملكية واليهود

عندما أهدى عدو اليهود، «غونزالو ماتيغيز»، إلى ملك قشتالة ثلاثة ملايين قطعة ذهب، شرط أن يطرد اليهود، أجاب الأسقف دون جيل قائلا «إن اليهود ثروة للملك، ثروة حقيقية: وأن تريد أن تطردهم... إنك عدو للملك، بقدر ما أنت عدو اليهود...». وفي عام 1307، بعدما أصدر الكهنة القشتاليون قرارا بتحريم الربا اليهودي، عارض الملك وضع العقبات أمام اليهود. يذكر مرسوم يتعلق بهذا الموضوع أن «اليهود يخصُّون الملك الذي يدفعون له الضرائب، ولهذا السبب، فإنه ليس ممكنا قبول أي تقييد لحياتهم الاقتصادية، لما في ذلك من مضرّة بالخزينة الملكية».

واتخذت حماية الملوك لليهود في بولونيا مقاييس غير مألوفة في ذلك العهد، ففي عام 1504، صرح ملك بولونيا ألكسندر بأنه «يتصرف مع اليهود، كما يليق بالملوك والعظماء الذين يجب ألا يتميزوا فقط بسماحتهم حيال المسيحيين، بل أيضا اتجاه معتنقي الأديان الأخرى».

ويقول ملك بولوني آخر، يدعى كازيمير جاغلون، أنه «يعمل بما ينص عليه مبدأ التسامح المنزل في الشريعة الإلهية».

وليس من الصعب فهم هذا الموقف، إذ كان اليهود يشكلون موردا للمداخيل مرتفعا جدا بالنسبة للملوك. فمثلا مكّن الممولون اليهود الإخوة رافيا في أسبانيا ملوك قشتالة من إنهاء الحرب والانتصار على المسلمين، وساند صيارفة آخرون ملوك أسبانيا في صراعهم ضد النبلاء. وكانت منظمة أميرية خاصة تعمل لاستيفاء الضرائب من اليهود في عدة بلدان. ففي إنكلترا، أجاز «السكاكاريوم جودوريوم» تسجيل كافة أعمال اليهود، وبواسطته كانت تتم عملية استيفاء ديونهم، وكان يديره مجمع مؤلف من سبعة أعضاء، بينهم ثلاثة من اليهود، ومسيحيان وموظفان يعيِّنهما الملك، وكانت كل عملية دَين تدرّ عشرة بالمئة على الخزنة الملكية.

وكان من الطبيعي ألا تكتفي الملكية بهذه الحصة الهزيلة، فاتخذت الوسائل الملائمة، كالمصادرات الاستثنائية، لتضاف إلى الضرائب العادية. وكان اليهود، قانونيا، عبيد الخزينة الملكية، وعبيد خزينة الأسياد في البلاد التي كانت فيها السلطة السياسية مجزأة. وأصبح سبب وجودهم ملء صناديق العظماء. وتشير الشرائع الانكلو-سكسونية إلى أن «اليهود وأملاكهم يخصون الملك». ويعبِّر تشريع أسبانيا الشمالية بالأسلوب نفسه قائلا «أن اليهود عبيد الملك، وهم دائما ملك الخزينة الملكية».

كانت العملية تجري بسهولة كبرى: فاليهود يستنزفون الأسياد، والملوك يسلخون اليهود. وكي يتمكن الملوك من ذلك، كان عليهم أن يحافظوا على أوضاع اليهود، ولهذا السبب، حمى الملوك اليهود، وشجعوا مشاريعهم بكافة الوسائل الممكنة.

لكن، إن كان للملك -كممثل للدولة- مصلحة في حماية اليهود، فعلينا ألا ننسى أنه في الوقت نفسه سيدا كبيرا، مما يعني أنه كان أحد مديني اليهود، وفي دوره هذا، كان الملك يرغب حقا في وضع حد لمشاريع اليهود، مما كان دائما يشكل عملية رابحة. لكن بينما فشلت إرادة الأسياد الصغار في التحرر من ديون اليهود ورغباتهم، بسبب الحماية الملكية لهم، لم يكن عند «السيد الكبير» (الملك) قيود خارجية مماثلة يجب تخطيها. «كان في جسده روحان»: فمن ناحية، كان عليه، كملك، أن يقاوم مطلب النبلاء والبرجوازية، وأن يعارض مذابح اليهود وعمليات طردهم. ومن ناحية أخرى كان يستفيد، بكونه ملاكا عقاريا كبيرا، من اضطهاد اليهود.

وكان عند الملوك وسائل عدة «لاستخراج» المال من عبيدهم اليهود، ومنها التوقيفات الجماعية، كان يُسجن اليهود عند أول إشارة ولا يطلق سراحهم إلا بعد دفعهم مبالغ طائلة. بهذه الوسيلة استولى ملك فرنسا، فيليب الثاني أوغست، عام 1180، على مبلغ 15000 مارك من اليهود. وحصّل الكونت الفونس دي بواتييه 20000ليرة في مناسبة مشابهة، وكانت تستعمل وسائل أخرى، فكان يتهم اليهود بتسميم الآبار وامتصاص دماء المسيحيين في احتفالاتهم الدينية. وفي عام 1320، حُكم على يهود فرنسا بجزية قدرها 150000 ليرة، بحجة تسميم الآبار.

وتتمثل أنجح العمليات في طرد اليهود ومصادرة أملاكهم، ثم إعادة قبولهم، مقابل مبالغ طائلة. ففي عام 1882، طرد فيليب أوغست جميع اليهود من مملكته، وصادر أملاكهم غير المنقولة، وقد مكنهم من العودة، بعد مضي خمسة عشر سنة، وبعد أن دفعوا له مبلغ 150000 مارك، مقابل هذا «الإحسان». وفي عام 1268، سن ملك فرنسا، لويس التاسع، مجددا، قانونا يقضي بطرد اليهود من فرنسا ومصادرة ثرواتهم، وبعدئذ بوشر الحوار مع معاوني الملك، وأبطل القرار مقابل هدايا جزيلة.

أما طرد اليهود عام 1306، فقد درّ على ملك فرنسا فيليب لوبيل، مبلغ 228460 ليرة، وهو مبلغ ضخم في ذلك العهد. وبعدما دعي اليهود مجددا للعودة، عام 1310، دفعوا مقابل هذا الإحسان الجديد مبلغ 22500 ليرة. لكنهم وجدوا أنفسهم، بعد انقضاء ست سنوات، مجبرين على سلك طريق النفي.

وانتهى تاريخ يهود فرنسا واللنغيدوك عام 1394، بطردهم النهائي، وقد رافقته الخاتمة العادية، في مصادرة أملاكهم.

ولم تقتصر هذه الوسائل على يهود فرنسا، ففي عام 1379، سجن الأمراء النمساويون جميع اليهود الخاضعين لحكمهم، ولم يتمكن هؤلاء من التحرر إلا بعد أن دفعوا مبالغ طائلة. واستعان الأمراء بتحريضات الفلاحين ضد اليهود عام 1387 لالزام اليهود بدفع مبلغ 16000 مارلك. يبدوا إذن أن موقف الملوك والأمراء من اليهود متناقضا. وفي نهاية المطاف، عدّل التطور الاقتصادي هذا الموقف، فحيثما يلعب اليهود دورا ضروريا في الحياة الاقتصادية، وحيثما لم يتطور الاقتصاد التبادلي إلا قليلا، كان من مصلحة الملوك حماية اليهود والدفاع عنهم ضد أعدائهم. هكذا ظهرت الملكية دائما في بولونيا كأشد نصير لليهود.

وفي البلدان الأكثر تطورا، حيت انخفض تدريجيا دور الربا، لم يعد الملوك يهابون نهب اليهود. وبعد فترة وجيزة، تجسدت أهم قوة مالية في البرجوازية المستندة إلى التطور الاقتصادي، مما أدى إلى زوال كل حظوة اليهود بالنسبة للملوك، فماذا يمثل «الصيارفة اليهود» أمام صيارفة كفوجر أو الميديسيس؟ يقول «شيبر» عن أهمية هؤلاء «الصيارفة اليهود»: «فيما يتعلق بأهمية رؤوس أموال الصيارفة اليهود في إيطاليا: لم نجد الرأسماليين اليهود إلا عائلتين ثريتين حقا. لكن ماذا تمثلان إن قارناهما بالكبار، كالمديسيس، الذين كانوا يملكون نصف مليون «فلورون»، حوالي عام 1440، أو أوغوستو شيجي الذي خلف 800000 «دوكا» عام 1520.

وبعد مدة، لم يكن تحت تصرف الصيارفة اليهود سوى بضعة آلاف من «الفلورون»، ولم يعد لهم عند الملوك أي نفوذ، فانتهى إلى الأبد عهد الكبار اليهود الذين كانوا يدعمون السلطة الملكية ضد أعدائها في الداخل والخارج. «أجبرت مصاريف الحرب المتنامية –والتي كانت تزداد كلفة مع اتساع دور المرتزقة والأسطول- لدولة والأمراء على البحث عن موارد جديدة لتغدية الخزينة. ومنذ ذلك العهد لم يبق هنالك إلا وسيلة واحدة، هي التوجه نحو عامة الشعب، مما يعني مطالبة المدن بتقديم أموالها»[117].

وأدى انهيار مركز اليهود الاقتصادي، نتيجة «رسملة» الاقتصاد، إلى ضياع الحماية التي منحها الملوك والأمراء لليهود، واشترك الملوك، عمليا، باضطهاد اليهود ونهبهم.

ب- النبلاء واليهود.

كان النبلاء، في بداية العصور الوسطى، بحاجة ماسة لليهود، إذ كان هؤلاء هم المجهزين الرئيسين بالمواد الشرقية. وفيما بعد، أصبح النبيل المُسرف، الذي يحيا بدون حساب، بحاجة لليهود كذخيرة مادية، على أهبة الاستعداد دوما لإرضاء أهوائه، وكان اليهودي يشكل، بالنسبة للأسياد الأقوياء، كما كان بالنسبة للملوك، إيرادا مهما. وقبل أن تفرض الملكية نفسها كقوة لا جدال فيها على النبلاء، نشبت مشاجرات عدة بين الأمراء والأسياد والملوك من أجل امتلاك اليهود.

وفي القرن الثاني عشر تردد كلام كثير عن الدعوى بين الكونتيسة بلانش والملك فيليب أوغست، بشان اليهودي كرلسن، الذي التجأ إلى أراضي الملك، هربا من الكونتيسة.

117- هنري بيرن: المرجع السابق.

وامتلك البارونات اليهود، مقلدين الملوك. وعندما كان يذكر عائداته، كان البارون يقول: هؤلاء اليهود «لي»، كما يقول «أملاكي». وكان تيبو، كونت دي شمباني، كالملك فيليب، مقتنعا بحقه في امتلاك اليهود القاطنين في أملاكه. وفي عام 1198، عقدا تعهدا فيما بينهما ينص على عدم إمساك أي منهما اليهود الذين يخصون الآخر.

وانتشرت عمليات العقود، بشأن اليهود، سريعا، في القرن الثالث عشر. وبدل إقامة دعاوى طويلة، تعاهدا الأمراء والملوك على تسليم اليهود الذين يلجأون إلى أراضيهم. ونص عقد مشابه، عام 125، على أنه يجوز للملك وللأمراء المحافظة على حقوقهم بالنسبة لليهود «الذين هم كالعبيد».

«وفيما بعد، أصبح اليهود وكأنهم في سوق المزاد. وابتاع فيليب الثاني من أخيه كونت دي فالوا، يهود كونتيته كافة، بعد أن تقاضى معه بشأن ثلاثة وأربعين يهوديا كان قد طالب بملكيتهم. وابتاع منه، عدا ذلك، يهوديا من مدينة روان، يكسبه 300 ليرة كل فصل»[118].

«وكما أنه من حق الأمراء المنتخبين[119] استثمار جميع مناجم الذهب والفضة والقصدير والملح في أراضيهم، كان من حقهم أيضا قبول اليهود وامتلاكهم»، هذا ما عبرت عنه «براءة مذهبة» من الإمبراطور الجرماني، عام 1356.

وبعد مدة، نازعت المدن الألمانية، التي كانت تزداد ثراء، الملوك والأمراء، في حق تملك اليهود، واتفقت المدن التي كانت تجني أرباحا من استغلال اليهود، فيما بينها، كما اتفقت الملكية مع الأمراء.

إنه لمن الطبيعي أن الذين كانوا يستفيدون من الربا اليهودي كانوا يعارضون تحول اليهود إلى المسيحية. والحقيقة أن الدين انعكاس لدور اقتصادي ما، فقد قاد اعتناق اليهود المسيحية إلى تخليهم، آليا، عن مهنتهم. «وأدت المناقشات التي قام بها المهتدون الجدد إلى تحول مفاجئ لعدد من اليهود، إن لم يكن إلى إقناع الحاخمين المساهمين في النقاش. وقد وصل الأمر إلى حد أن الأسياد والأساقفة احتجوا مرارا عند الملك بسبب انتزاع اليهود من أيديهم، وبالتالي حرمانهم من إيرادات مهمة، وقد توسل الأسقف بالنسيا عند الملك، بعد محاضرة ألقاها يهودي مهتد يدعى يهودا نوسكا –تلك المحاضرة التي أدت إلى تحول عدد كبير من اليهود- لمساعدته، لأن عائداته ستنخفض كثيرا»[120].

أما الملك الإنكليزي، غليوم الثاني الذي كان يضمن اليهود عائدات المراكز الأسقفية الشاغرة، فقد أجبر المهتدين منهم على العودة إلى اليهودية، حتى لا يفقد الأرباح التي كان يجنيها منهم.

ومن أجل منع تحول اليهود عن دينهم، سن ملك إنكليزي آخر، وهو هنري الثاني، قانونا يقضي بضم أملاك اليهود الذين يعتنقون المسيحية إلى التاج، ليعوض عن الخسائر التي كان يلحقها اليهود بالملك في حال انتقالهم إلى المسيحية.

إننا نرى، انطلاقا من هذه النقطة، سذاجة المؤرخين المثاليين الذين يتخيلون أن كل جهود المسيحية كانت ترمي إلى هداية اليهود الذين يظنون أن سبب آلام اليهود هو مقاومة هؤلاء لتلك الجهود. وهكذا قووم اندماج اليهود الديني طوال المدة التي كان فيها دورهم الاقتصادي ضروريا، وعندما أصبحت اليهودية لا فائدة اقتصادية منها بدأت بالاندماج أو الانقراض.

بالطبع، كانت فئة ضئيلة من النبلاء تستفيد من الربا اليهودي. أما بالنسبة لأغلبية الأسياد الإقطاعيين، فقد كان اليهودي سببا مباشرا في إفقارهم. وكي يتمكن الملك أو الأمير من استنزاف اليهود، كان يجب إذن إبقاء أغلبية النبلاء تحت وطأة اليهودي.

كان النبلاء مجبرين على التخلي، لصالح اليهود، عن جزء من فائض القيمة التي كانوا ينهبونها من الفلاحين، لكنه من الجلي أنهم سوف يحاولون استرجاعها عند أول سانحة، وكان دين النبلاء عند المرابين اليهود يحتوي بذور اصطدامات دموية. ففي عام 1189، نشبت فتن شبت فتن معادية لليهود في عدد من المدن الإنكليزية، ومنها لندن ولنكلن، الخ. وفي عام 1190، انفجرت

---

[118]- بيداريد: المرجع السابق Bedarride.

[119]- الأمراء الألمان الذين لهم حق المساهمة في انتخاب الإمبراطور.

[120]- بيداريد: اليهود في فرنسا وايطاليا وأسبانيا.

مأساة مدينة يورك، وأغار الفرسان المستدينون من اليهود اليوركيين، تحت إشراف ماللبيد، على اليهود، «والسكاكاريوم جودوريوم». وأحرقت البوالص التي وجدت في «السكاكاريوم»، وحوصر اليهود الملتجئون إلى القصور، وانتحروا جماعيا فيما بعد. وجرت الخاتمة العادية، فأستملك الملك ديون المنتحرين، نظرا لكون اليهود عبيد خزينته. وساهم الملاكون العقاريون، المستدينون من اليهود، في تنظيم المجازر التي جرت ضد اليهود عام 1264 في لندن، والتي أدت إلى القضاء على 550 يهوديا. وجرى الأمر نفسه في المدن الأخرى وهوجم «السكاكاريوم» في مدينة كانتربوري.

كانت جمعيات النبلاء في أنحاء أوربا تعترض دوما على الربا اليهودي، وتبين مطاليبهم المتعددة، بوضوح، موقع الإقطاعيين تجاه اليهود.

في القسم الثاني من القرن الثالث العشر، عرض «الكورتيس»[121] القشتاليون ثلاثة مطالب على الملك:

1-تنظيم عملية الدين اليهودية، والحد من الفائدة التي يفرضها المرابون.

2-حرمان اليهود من حقهم في وراثة الأرضي.

3-إصلاح الإدارة المالية وعزل الموظفين والوكلاء اليهود.

وعمت مطالب النبلاء التقليدية هذه كافة البلدان الأوربية، إذ كانت ترمي إلى الحد من فائض القيمة التي كان النبلاء مضرين لتسليمها لليهود، وإلى حرمانهم من تملك الأراضي وخلق الصعوبات أمام وصولهم إلى جهاز الدولة.

ولم يتوصل النبلاء الإسبان إلى نتائج في هذا الميدان، إلا في القرن الرابع عشر. ففي عام 1328، خفض الملك ألفونس التاسع معدل الفائدة إلى 25 بالمئة وألغى ربعا من حق اليهود في الديون. وفي عام 1371، انخفض حق اليهود في الديون مرة أخرى. ورفع «الكورتيس» الآراغواني احتجاجات متوالية بشأن معدل الفائدة المرتفع الذي كان يطلبه اليهود. وقد حصل ذلك على التوالي أعوام 1235 و1241 و1283 و1292 و1300.

واحتج «كورتيس» البرتغال عام 1361 على الربا اليهودي الذي أصبح ثقلا على الشعب لا يطاق.

«كان النبلاء والطبقات العليا في إسبانيا يبغضون اليهود، بسبب وظائفهم في الدولة، حيث كانوا يظهرون كأدوات ذليلة للملكية وبسبب ضمان استيفاء الضرائب والرسومات التي كانت تزيد بدون انقطاع من ثروات اليهود»[122].

وفي بولونيا أيضا، تسارعت مطالب النبلاء والإكليروس ضد الربا اليهودي. وطالب مؤتمر إكليريكي، عُقد عام 1420، الملك باتخاذ إجراءات ضد «الربا اليهودي الباهظ». وفي عام 1423، سن لاديسلاس جاغلون قانون فارتا، حرم فيه اليهود تعاطي عمليات الرهن. وفي عام 1454، حدد قانون نيسزاوا آجال القروض التي يمنحها اليهود لثلاث سنوات. وتمكنت مجامع النبلاء أيضا من حرمان اليهود من الوصول إلى وظائف الدولة.

وسعى النبلاء البولونيون إلى تحقيق أهداف النبلاء الإسبان نفسها، وهي الحد من مجموع فائدة الربا وضمان أملاكهم وعزل اليهود من وظائف الدولة.

بالاضافة إلى الأسباب الإقتصادية، صعدت الأسباب السياسية من جراء عداء النبلاء ضد اليهود. «ففي عام 1469، إحتج «الكورتريس» على قبول اليهود في الضمان، وعلى حماية الملوك لهم. وجائت الأحكام الصورية والمجازر لتساند ضغط النبلاء على الملكية».

---

[121]- Cortés: أي محافل النبلاء -المترجم-

[122]- شيبِّر: المرجع السابق.

كان يشكل اليهود، حقا، دعما قويا للملكية المطلقة الموجهة بشكل رئيسي ضد النبلاء. وساهم فائض القيمة الذي يكتسبه اليهود من النبلاء في تجذيب تنجير قيود لهم. وكان اليهود يقرضون الأموال «للبارونات» الصغار. ولذلك كان هؤلاء يبغضونهم. أما الكبار منهم، فكانوا يرون في اليهود أحد المصادر المالية الرئيسية التي تتكل عليها إستقلالية الملوك.

وكان الدعم المالي الدي يقدمه اليهود للملوك، ضروريا لصراعهم ضد النبلاء، ولمقاومتهم إحتياجات المدن المتنامية. وقد مكن اليهود الملوك، في بادئ الأمر، من تجهيز الجيوش المرتزقة المكلفة التي التي بدأت تحل مقام جماعات النبلاء المسلحة غير المنظمة. وكانت هذه الجيوش تخدم في البدء، السياسة الخارجية. هكذا مكنت مالية اليهود ملوك إسبانيا من الإنتصار على العرب. «في عام 1233، أقرض الصيرفي اليهودي، يهودا كافاليرا، الملك الآرغواني، مبلغا كبيرا من المال مكنه من تجهيز أسطول ضد العرب. وفي عام 1279، جمع كافاليارا أموالا لتنظيم جيش هزم به العرب في فالنسيا»[123].

لكن ماهو أخطر من ذلك، في نظر النبلاء، وما كان يزيد من حقدهم، هو الدعم الذي قدمه اليهود للملكية في صراعها ضد الإقطاعيين.

لقد تحدثنا عن الأخوين رافيا، الذين أمدا الجيش بالمال والسلاح، خلال الحروب الداخلية التي شنها الملك ضد النبلاء المتمردين في كاتالونيا. ولم يكن ممكنا تسامح النبلاء مع اليهود عن هذا الصنيع. وسقط الإخوان رافيا، وكثيرون من خلفائهما، ضحيا القتلة.

وبشكل عام، كان صراع النبلاء ضد اليهود أقل عنفا مما كان عليه بين البرجوازية واليهود. فالمضمون الإجتماعي المختلف يؤثر في أشكال صراع كل طبقة وفي حدته، فبينما لم يزل الملاك العقاري بحاجة للمرابي، وهو يرمي فقط إلى الحد من أعماله، لمس البرجوازي، أو حتى النبيل المتبرجز. أن هذا المرابي يشكل أكثر فأكثر، حاجزا لايُحتمل.

ج- البرجوازية واليهود:

كان الإحتكار التجاري اليهودي من أكبر الحواجز التي إعترضت البرجوازية الناشئة. وكان شرط تطورها يكمن في تهديم التسلط التجاري اليهودي.

ولا يتعلق الأمر بصراع بين مجموعتين قوميتين أو دينيتين من أجل السيطرة التجارية، بل بصراع بين طبقتين، تمثل كل منهما نظاما إقتصاديا مختلفا. وليست المنافسة هنا –التي يقال عنها قومية- إلا انعكاسا للمرحلة الانتقالية من الاقتصاد الإقطاعي إلى الاقتصاد التبادلي. كان اليهود يسيطرون على التجارة في العهد «الذي كان فيه الملاكون الكبار يبتاعون المصنوعات الدقيقة والمواد الكمالية بسعر مرتفع، مقابل كميات كبيرة من المواد الخام المنتجة في أراضيهم». ووضع التطور الصناعي في أوروبا الغربية حدا لاحتكاراتهم .

وانتصب التجار المحليون، في صراعهم ضد اليهود، ضد وظيفة اقتصادية بالية، كانت تظهر أكثر فأكثر كاستغلال أجنبي لا يطاق.

وتعرضت علاقات الطبقة التجارية مع اليهود، بعد طرد هؤلاء من التجارة، إلى تبدل جذري. فقد كان التسليف اليهودي، بصفة رئيسية، استهلاكيا، ولم يكن التجار يستعينون بالصيارفة اليهود من أجل أعمالهم التجارية، بل نمت مؤسسات مصرفية كبيرة، كالميديسيس والستيجي والفوجر، في المدن الكبيرة. وبعد مدة، حينما تغلغل الاقتصاد التبادلي في الميادين الريفية، طُرد المرابون اليهود بتأثير المصارف المسيحية الكبيرة المتغلغلة. ومثلما حل الاقتصاد التبادلي محل التجارة لما قبل الرأسمالية في المدن، كذلك أدى التغلغل الرأسمالي في الميدان الإقطاعي إلى طرد المرابي.

وتبدل موقف التجار الكبار تماما تجاه اليهود عندما أصبح هؤلاء، عند تضاؤل دورهم الإقتصادي، مرابين صغار يقرضون الحرفي والحانوتي. ولم يعد اليهودي، في ذلك العهد، ينافس التاجر الثري أو المصرفي، بل كان يثير اهتمام التجار والصيارفة باعتباره مصدر ربح مهم، ووسيلة لإضعاف الطبقات الشعبية التي كان التجار والصيارفة في صراع معها. وبات التجار الكبار

[123]- شيبِّر: المرجع السابق.

يتنازعون مع الملوك والأسياد على اليهود. وانتقلت المدن الألمانية، بشكل خاص، إلى هجوم شامل للاستيلاء على الأرباح التي تقدمها «الوليمة» اليهودية للأمراء.

وتشتت «الوليمة» اليهودية تدريجيا، ابتداء من القسم الثاني من القرن الثالث عشر، وابتدأت المدن الألمانية، المزهرة في ذلك العصر، بالمطالبة بحصتها. ومكانها صراعها العنيد ضد الأسياد الإقطاعيين من اكتساب جملة من الحريات، كالمحاكم المستقلة والإدارة الذاتية، وتوجه انتباهها الآن نحو «الوليمة» اليهودية، وأخذت تبذل جهدها لاقتلاع تلك الوليمة من أيدي الأسياد والإمبراطور.

وحصلت مدينة كولونيا، عام 1252، من رئيس أساقفتها على حق اكتساب ثلث الضرائب المجبية من يهود المدينة، وأجاز أسقف مدينة «ورمز»، عام 1273، للمجلس المدني قبول اليهود وفرض الرسوم عليهم. وفي 7 آذار 1456، أدخل الأسقف بوكارد، يهود مدينة هالبرشتاد، مدة ثلاث سنوات في مجلس المدينة.

وتمكنت المدن من الاستيلاء على «الوليمة» اليهودية، من قبل مدينة ماينس عام 1259، وراتيرسبون في نهاية القرن الثالث عشر، ونورنبرغ، عام 1315، وسبير، عام 1315، وزوريخ عام 1335، وفرانكفورت، عام 1337، وستراسبورغ، عام 1338، الخ.

وانتهى صراع القوى الثلاث، أي النبلاء والإمبراطور والمدن إلى تسوية، دفع اليهود ثمنها. لقد كان عليهم أن يدفعوا:

أ- للإمبراطور:

1-الضريبة العادية (كان يؤدي اليهود حتى عام 1240 خمس الضريبةالعادية).

2- «فينِنج»Phennig ذهب يدفعه كل يهودي أو يهودية يملك أكثر من عشرين «غولدن».

ب- للنبلاء:
1- الضريبة السنوية.

2- الضريبة الاستثنائية.

ج- للمدن.

يحدد مقدار الضريبة الخاصة بكل يهودي عند استلامه «رسالة المواطنية». وبالإضافة إلى الضرائب التي ذكرناها، أضيفت ضرائب أخرى استثنائية. واستُعملت وسائل مشابهة التي رأينها في بلدان أوروبية أخرى، لسلب اليهود أكبر كمية ممكنة من الأموال. وشكلت الفتن الشعبية والفلاحية أيضا فرصة فريدة لإجبار اليهود على دفع مبالغ طائلة، مقابل الحماية التي تؤمن لهم.

وأدى تعاظم قوة المدن إلى ازدياد سلطتها على اليهود.«ففي عام 1352، وبعد إذن من الإمبراطور إلى مدينة سبيير، تملكنا، بدون استثناء، اليهود الذين يسكنون عندنا، وأصبحوا ملكا لنا، أجسادا وأملاكا».

وفي عام 1352، نص اتفاق بأن على مدينة فرانكفورت أن تدفع نصف الأرباح التي تجنيها من اليهود، للإمبراطور. وفي نورنبرغ، كانت ترتفع حصة الإمبراطور إلى الثلثين. وكان صراع الطبقات، الذي كان يهدف إلى تقاسم الأرباح المتأتية من استغلال اليهود، يرتد أحيانا ضد هؤلاء. «يُذكر في وثيقة تاريخية بأن أسقف مدينة كولونيا، أراد احتكار فوائد «الوليمة» اليهودية إلى الأبد»، مما أدى إلى طرد اليهود من تلك المدينة، وأذلّ الأمراء «يهود الأباطرة»، والبرجوازيون، يهود الأمراء.

د- علاقات اليهود بالحرفيين والفلاحين.

كلما أصبح الربا موضع اهتمام اليهود الرئيسي، توثقت علاقاتهم باطراد مع الجماهير الشعبية، وكانت تلك العلاقات تتأزم باستمرار. ولم تكن حاجات الرفاهية لتدفع الفلاح أو الحرفي للإستقراض من المرابي اليهودي، بل كان البؤس المدقع، فكان الفلاحون يرهنون أدوات العمل الضرورية، من أجل تأمين رزقهم. هكذا يمكننا تفهم الحقد الذي أبداه الإنسان العادي تجاه اليهودي، إذ كان يرى فيه سبب إفقاره المباشر، هذا بدون رؤية الإمبراطور أو الأمير أو البرجوازي الغني ممن كانوا يثرون بفضل الربا اليهودي. وفي ألمانيا، اتخذ الربا اليهودي شكله الأكثر «شعبية» ولاسيما في القرنين الرابع والخامس عشر، مما أدى إلى ظهور الحقد ضد اليهود وإلى المجازر وإلى «حرائق» اليهود.

«علينا أ، نعتبر الإضطهادات ضد اليهود، خلال العصور الوسطى، والتي كانت ترمي، بشكل رئيسي، إلى إبادة الخونة، أشكالا بدائية لما نسميه الآن بالثورة الاجتماعية»[124].

حصلت أولى الفتن المهمة ضد اليهود بين أعوام 1336 و1338، وقامت بقيادة الخمار سيمبرلن «ملك الفقراء»، فامتدت من الألزاس إلى بافاريا والنمسا وبوهيميا. لكن خلال سنوات «الموت الأسود»، أي مابين أعوام 1348 و1350، أحدث التعصب المقرون بالحقد، أضرار رهيبة. «ففي ستراسبورغ بشرت الجمعيات الحرفية بإفناء اليهود. لكن مجلس المدينة المؤلف، في غالبيته من الطبقات العليا التي كانت تجني فوائد مرتفعة من الربا، رفضت الموافقة على ذلك. وخطب بعض البرجوازيين، ككونراد فون فننبرغ، والثري ستورم، والحرفي الثري شفارير لصالح اليهود، لكن الجمعيات الحرفية لم تتخلّ عن المطالب الموجهة ضد اليهود. وفي نهاية الأمر، أرجئت القضية إلى المؤتمر سينعقد عام 1343، يشترك فيه مندبون عن الكنيسة والنبلاء والمدن، أما الكنيسة والفرسان، فقد أيدوا مطالب الجمعيات الحرفية، رغبة منهم في التخلص من الديون». مما أدى إلى الإعلان بأن اليهود خارجون على القانون «واشتعلت حرائق اليهود في أنحاء الألزاس».

وحاولت الطبقات العليا في مدن ماينس وكولونيا حماية اليهود، لكنها تعرضت لموجة سخط شعبية عارمة. ويُذكر في وثيقة تاريخية عن مدينة أوغسبورغ ما يلي: «في عام 1384، بعد أن ذبح برجوازيو مدينة نيدلينغن جميع يهود المدينة، استولوا على أملاكهم، وتحرر المدينون لليهود من ديونهم، ومن عدادهم «الكونت» إيتنغن الذي أعيدت له ديونه وبوالصه، وقد قام الجمهور بهذه الأعمال، بالرغم من إرادة مجلس المدينة».

ورافقت ثورات الفلاحين مجازر اليهود، ففي عام 1431، شهر فلاحو البالاتينا السلاح على مدينة «ورمز»، وفرضوا على مجلس المدينة تسليمهم اليهود «لأنهم أفقروهم وجردوهم من ثيابهم الأخيرة». وعارض المجلس تحقيق هذه المطالب، لأنه كان يستفيد من الربا اليهودي. ودخل الأسياد في مفاوضات مع المجلس، ليظفروا بالفوائد المتراكمة من فقر الفلاحين.

واتسمت الفتن ضد اليهود في كاتالونيا وجزر البالبار بنفس الطابع، وثار الفلاحون، الذين يعيشون في بؤس مدقع والمستدينون من اليهود، بسبب ثقل الضرائب، من أجل التحرر من الديون، وحرقوا السجلات القضائية.

---

[124]- روشر: اليهود في العصور الوسطى Roscher.

الفصل الرابع

اليهود في أوروبا الغربية والشرقية .

1- اليهود في أوروبا الغربية، بعد عصر النهضة.

(نظرية سومبارت)

لقد قرع اكتشاف العالم الجديد، والموجة التبادلية العظيمة التي لحقته، ناقوس موت العالم الإقطاعي الحرفي المغلق. وبلغ الاقتصاد البضاعي مرحلة أعلى، كسر فيها بقايا العهود السابقة، وهيأ نمو «المانيفاتورة» والصناعة الريفية، أُسُس الرأسمالية الصناعية. وحلة مدينة أنفير، التي أصبحت خلال مدة من الزمن، مركز التجارة العالمي، محل المراكز الصناعية الحرفية القديمة ومحل تجارة العصور الوسطى التي اتجهت نحو الانحطاط.

وفي كل مكان، ومع أن ذلك حدث في عهود وأشكال مختلفة، ترافق سقوط الاقتصاد المستند إلى إنتاج القيم الإستعمالية، بانهيار وظيفة اليهود الاقتصادية والاجتماعية. عندئذ، اضطر قسم كبير من اليهود إلى مغادرة أوروبا الغربية، للبحث عن ملجأ في البلدان التي لم تتغلغل فيها الرأسمالية، وبشكل خاص، نحو أوروبا الشرقية وتركيا. أما القسم الآخر فقد اندمج وذاب في السكان المحليين، ولم يكن هذا الاستيعاب عملية سهلة دائما. فقد بقيت التقاليد الدينية مسيطرة مدة طويلة، بالرغم من زوال الوضع الاجتماعي الذي كان مرتكزها. وخلال قرون طويلة، صارعت محاكم التفتيش بعنف وهمجية التقاليد اليهودية التي استمرت في ممارستها جماهير المؤمنين المسيحيين الجدد.

واكتسب اليهود، الدين اندمجوا في طبقة التجار، بعض الشهرة، تحت اسم «مسيحيين جدد»، وخصوصا في أمريكا ومدن بوردو وأنفير. وحتى القسم الأول من القرن السابع عشر، كانت مزارع السكر الكبيرة في البرازيل بين أيدي اليهود. وبفضل مرسوم 2 آذار 1768، أتلفت جميع السجلات المتعلقة بالمسيحيين. وساوى قانون 24 آذار 1773، حقوقيا، بين «المسيحيين» الجدد والقدامى.

وفي عام 1730، كان لليهود في سورينام 115 مزرعة من أصل 344. وبعكس العهود السابقة، لم يحمل نشاط يهود أمريكا طابعا اقتصاديا متميزا، ولم يختلف بشيء عن نشاط المسيحيين. ولا يتميز التاجر «المسيحي الجديد» إلا قليلا عن التاجر «المسيحي القديم»، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليهودي مالك المزرعة. ولهذا السبب، زالت بسرعة الفروقات الحقوقية الدينية والسياسية.

وفي القرن التاسع عشر، لم يبق في أمريكا الجنوبية إلا حفنة من اليهود، وتم اندماجهم بالسرعة نفسها في فرنسا وإنكلترا. وأعتبر التجار اليهود في مدينة بوردو –الذين قيل عنهم «أنهم يسيطرون على الشوارع بأكملها، ويقومون بعمليات تجارية ضخمة»- اعتبروا أنفسهم أنهم مندمجون تماما مع السكان المحليين. «فالذين يعرفون اليهود البرتغاليين في فرنسا وهولندا وإنكلترا، يعلمون أنهم يعتبرون أنفسهم مندمجين مع جميع الشعوب إلى حد كونهم جزءا منها»، هذا، على عكس ما يذهب إليه السيد فولتير من أنهم يكنُّون حقدا مريرا لجميع الشعوب التي يحتكون بها، أما صحة معرفة أصلهم البرتغالي أو الأسباني، فهي مسألة تدخل في نطاق الدراسة الإكليركية». ولا يعترف اليهود المندمجون بالغرب بأية قرابة مع اليهود الذين مازالوا يعيشون في ظروف الإقطاعية. وفي رسالة وجهها بعض اليهود البرتغاليين إلى السيد فولتير، يقول بأن «الشبه بين اليهودي من لندن واليهودي من القسطنطينية، كالشبه بين هذا الأخير والحاكم الصيني، ويهودي من مدينة بوردو لا يشبه أبدا يهوديا آخر من مدينة ميتز». «ولا يمكن للسيد فولتير جهل حذر اليهود البرتغاليين أو الأسبان من الاختلاط، بالزواج أو المصاهرة أو أي شيء آخر، مع يهود الأمم الأخرى».

وإلى جانب اليهود الفرنسيين والهولنديين، الذي يسير اندماجهم التام بصورة بطيئة وأكيدة، نرى في أوروبا الغربية، إلى جانب ذلك ولاسيما في إيطاليا وألمانيا، يهودا يعيشون في «الغيتو»، ويلعبون، بصفة رئيسية، دور المرابين الصغار والجوّالين، إنهم البقية المحزنة من الطبقة التجارية اليهودية القديمة، إنهم مُهانون ومضطهَدون وخاضعون لمحظورات لا حصر لها ولا عد.

لقد عرض سومبارت نظريته عن «اليهود والحياة الاقتصادية»، مستندا بالأخص إلى الدور الاقتصادي –الذي لا بأس بأهميته- الذي لعبته الفئة الأولى من اليهود. وقد أوجز نظريته بهذه العبارات: «دفع اليهود النهضة الاقتصادية في البلدان والمدن التي استقروا فيها إلى الأمام، وأودوا إلى الانحطاط الاقتصادي بالبلدان التي هاجروها». «إنهم مؤسسو الرأسمالية الحديثة».

«لا وجود للرأسمالية الحديثة أو الثقافة الحديثة بدون تشتت اليهود في بلاد الشمال». «إن مسيرة إسرائيل مشابهة لمسيرة الشمس، فحيثما تصل أشعتها، تزدهر حياة جديدة، وكل ما تفتح قبلا، يتعفن في الأماكن التي تهجرها»[125].

هكذا يعرض سومبارت نظريته، وبصورة شعرية، وفيما يلي الحجج التي نسندها:

1-«إن أعظم حدث عالمي، علينا أن نتذكره، قبل أي شيء آخر، هو طرد اليهودي من أسبانيا والبرتغال (1492، 1495 ،1497) ، علينا ألا ننسى بأنه قبل يوم واحد من سفر كولومبوس من بالوس «لاكتشاف أمريكا» كما يقولون، (3 آب 1492)، هاجر 300000 يهوديا من أسبانيا».

2- في القرن الخامس عشر طُرد اليهود من أهم المدن التجارية في ألمانيا: من كولونيا (1424-1425) ، من أوغسبورغ (1439-1440) ، من ستراسبورغ (1438) من ايرفورت (1458) ، من نورنبرغ (1448) من أولم (1499)، من راتيسبون (1519). وفي القرن السادس عشر، حدث لهم الشيء نفسه في عدة مدن إيطالية، فطردوامن صقلية، عام 1492، ومن نابولي، عام 1540-1541، ومن جنوى والبندقية، عام 1550. وقد تطابق انحطاط هذه المدن مع رحيل اليهود.

3- في نهاية القرن السادس عشر، اتصف النمو الاقتصادي في هولندا بنهضة رأسمالية، واستقر «المرّان»[126] البرتغاليون الأوائل في أمستردام عام 1597.

4- انتعشت مدينة انفير لفترة وجيزة من الزمن كمركز تجاري عالمي، وكبورصة عالمية، بالضبط بين وصول «المرّان» ورحيلهم.

إن حجج سومبارت هذه، تدحض نفسها بسهولة.

إنه لمن الحماقة أن:

1- نرى في تلازم سفر كريستوف كولومبوس «لاكتشاف أمريكا»، وطرد اليهود من أسبانيا، دليلا على أن انهيار البلدان التي هجرها اليهود. «لم تنحط أسبانيا والبرتغال، اقتصاديا، في القرن السادس عشر، في ظل عهد شارل الخامس و مانوييل، بل بالعكس، بلغت أوج تاريخها، وظلت أسبانيا، حتى بداية حكم فيليب الثاني، أعظم قوة في أوروبا. أما الثروات التي كانت تصلها من المكسيك والبيرو، فلا تقدّر»[127].

إن حجة سومبرات الأولى مستندة إذن إلى مغالطة فاضحة.

2- فيما عدا ذلك، تساهم الأرقام التي يوردها سومبارت عن توزع اللاجئين اليهود القادمين من أسبانيا في تقويض نظريته. فاستنادا إلى ما يورده، هاجر 122000 يهودي من أصل 165000 أي 72 بالمئة من الذين طردوا من أسبانيا، هاجروا نحو تركيا والبلدان الإسلامية. لقد كان إذن على «روح اليهود الرأسمالية» أن تعطي هنا، أكثر نتائجها أهمية، وغني عن القول، حتى لو أردنا التحدث عن نهضة اقتصادية للإمبراطورية العثمانية في ظل عهد سليمان القانوني، أن هذا البلد قد بقي حتى عهد قريب، بعيدا عن المناخ الرأسمالي، مما يعني أن أشعة الشمس ظهرت... باردة جدا؟ وصحيح أن عددا لا بأس به من اليهود (حوالي 25000) قد استقر في هولندا وهمبورغ وإنكلترا، لكن هل يمكننا الإقرار بأن السبب نفسه قد أدى إلى نتائج معاكسة تماما؟

---

[125]- ورنر سموبارت: اليهود والحياة الاقتصادية 1923.

[126]- المرّان أو Marranes: إنهم اليهود الأمناء لليهودية بالرغم من ممارستهم الظاهرية للطقوس المسيحية. وقد وجدوا في قشتالة والبرتغال. -المترجم-

[127]- برنتانو: بداية عصر الرأسمالية.

3- تفسر المطابقة التي يلاحظها سومبارت في انهيار المدن الألمانية بسهولة، عن طريق عكس العلاقة السببية. فلم تن الإجراءات المتخذة بحق اليهود سببا في انهيار المدن، بل اتُخذت هذه الإجراءات لانهيار المدن. ومن ناحية أخرى، لم يكن ازدهار بعض المدن نتيجة للهجرة اليهودية التي توجهت، بشكل طبيعي، نحو المدن الغنية. «فمن الواضح أن العلاقة السببية هي عكس ما تدّعيه نظرية سومبارت»[128].

إن دراسة دور اليهود الاقتصادي في إيطاليا وألمانيا ، في أواخر القرنين الخامس عشر والسادس عشر، تؤكد تماما صحة هذه النظرة. فمن الواضح أن بيوت التسليف والرهن وأعمال المرابين اليهود كانت محتملة، مادام الوضع الاقتصادي لهذه المدن جيدا نسبيا. وكان كل تأزم في الحالة الاقتصادية يثقل كاهل السكان بالربا، فيتجه غضب هؤلاء في الدرجة الأولى نحو اليهود.

4- إن مثال هولندا لا يدحض، وهذا صحيح، نظرية سومبارت، لكنه بالوقت نفسه لا يؤكدها. فإذا سلمنا بأن ازدهار هولندا قد تسارع مع وصول «المرّان»، فليس هناك ما يجيز لنا أن نرى في وصولهم سببا لهذا الازدهار. فلو اعتمدنا هذا المقياس، فكيف يمكننا تفسير انحطاط هولندا في القرن الثامن عشر؟ ويبدو، فيما عدا ذلك، أن ثمة مبالغة في الدور الاقتصادي الذي لعبه اليهود في هولندا. وبصدد «شركة الهند الشرقية الهولندية»، التي لعبت دورا رئيسيا في ازدهار هولندا، يقول سايو «ليس لليهود، على أي حال، دور في تأسيس أول شركة مساهمة حديثة فعلا أي «شركة الهند الشرقية الهولندية». إنهم لم يساهموا إلا بقدر ضئيل لا يعدو الواحد بالمئة في رأسمالها، ولم يلعبوا دورا يذكر في نشاطها خلال السنوات اللاحقة».

هل يبنبغي أن نستطرد؟ هل من الضروري تبيان النمو الاقتصادي الهام في إنكلترا، بالضبط في المرحلة التي تلت طرد اليهود؟ «لو كانت العلاقة السببية التي وضعها سومبارت صحيحة؟ كيف إذن نفسر أن الشعب الجنوبي «الصحراوي» القاطن في روسيا وبولونيا، بالرغم من أهمية عدده، لم يحدث بتأثيره نهضة اقتصادية عند الشعوب الشمالية»[129].

إن نظرية سومبارت خاطئة تماما إذن: فهو يدعي دراسة دور اليهود الاقتصادي، لكنه يفعل ذلك على هواه، مرتبا التاريخ على طريقته الخاصة. إنه يعرض أطروحة عن اليهود وعن الحياة الاقتصادية **بشكل عام**، بدون أن يهتم إلا بفترة وجيزة جدا من تاريخهم.

لقد بنى سومبارت نظريته عن اليهود **بشكل عام**، وعن الحياة الاقتصادية، لكنه لم يعرض إلا لأقلية من اليهود الغربيين الذين كانوا يسيرون في طريق الاندماج التام.

وفي الواقع، وحتى الدور الذي لعبه اليهود الغربيون مطابقا لما يدعيه سومبارت، فلقد كان من الواجب ضرب الصفح عن هذا الدور، من أجل فهم المسألة اليهودية في عصرنا الحاضر. فلولا تدفق اليهود الشرقيين على أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر، لذاب اليهود الغربيون تماما، وذلك منذ مدة طويلة في الوسط المحيط بهم.

هناك ملاحظة أخرى حول نظرية سومبارت: فلو شكل اليهود سببا في الازدهار الاقتصادي، ولو أدى رحيلهم إلى انهيار المدن والبلدان التي يتركونها اقتصاديا، كيف يمكننا إذن تفسير الاضطهاد المتواصل الذي تعرضوا له طوال العصور الوسطى؟ هل نفسر تلك الاضطهادات بالدين؟ لكن إذ ذاك، لما كان وضع اليهود متينا جدا في أوروبا الغربية، وفي بداية العصور الوسطى، وحتى القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقية؟ كيف نفسر إذن ثراء اليهود خلال قرون طويلة في البلدان الأكثر تخلفا من أوروبا، في بولونيا وليتوانيا؟ والحماية القوية التي منحها لهم الملوك؟ أنفسر اختلاف وضع اليهود باختلاف درجة التعصب الديني؟ كيف يمكننا أن نقر بأن هذا التعصب الديني برز بأكثر حدّة في البلدان الأكثر تطورا؟ وكيف نفسر أن تصاعد الشعور اللاسامي في بولونيا حدث بالضبط في القرن التاسع عشر؟

علينا إذن أن نبحث عن أسباب الاختلاف القائم في درجة حدّة التعصب الديني، وبذلك نكون مقودين إلى درس العوامل الاقتصادية، فالدين يفسر الاضطهادات ضد اليهود، كما تفسر الطاقة المنومة النوم. ولو لعب اليهود، حقا، الدور الذي نسبه إليهم سومبارت، لأصبح من العسير عندئذ أن نفهم لماذا كان نمو الرأسمالية شؤما عليهم على ذلك الحد.

---

[128]- ل. برنتانو: المرجع السابق.

[129]- ل. برنتانو: المرجع السابق.

إنه لمن الخطأ إذن أن نعتبر اليهود مؤسسي الرأسمالية الحديثة، فمما لاشك فيه أنهم ساهموا في نمو الاقتصاد التبادلي في أوروبا، لكن دورهم الاقتصادي المميز توقف بالضبط حينما بدأت الرأسمالية الحديثة بالتكون.

2 – اليهود في أوروبا الشرقية حتى القرن التاسع عشر

مع بروز فجر الرأسمالية الصناعية، كانت اليهودية الغربية في طريقها إلى الزوال. ولم تقم الثورة الفرنسية، بتحطيمها آخر العقبات القانونية التي كانت تحول دون دمج اليهود، إلا بتكريس وضع قائم. إلا أنه ليس من باب المصادفة على الإطلاق أن يتوافق زوال المسألة اليهودية في الغرب مع بروز المشكلة بحدة مضاعفة في أوروبا الشرقية، ففي العهد الذي كان فيه اليهود يتعرضون للقتل والموت حرقا في أوروبا الغربية، لجأ عدد كبير منهم إلى البلدان التي لم تتغلغل إليها الرأسمالية بعد. وكانت الغالبية العظمى من اليهود تعيش، في بداية القرن التاسع عشر، في شرقي أوروبا، وخاصة في ما كان يشكل أراضي جمهورية بولونيا الملكية. ففي جنة النبلاء الخاملة هذه، وجدت طبقة التجار اليهود مجالا رحبا للعمل. وطوال قرون طويلة، لعب اليهودي دور التاجر والمرابي والخمار ووكيل السيد الإقطاعي والوسيط في جميع الأمور، ومثلث المدن اليهودية الصغيرة، الغارقة في بحر من القرى الفلاحية، المتاخمة في الغالب لقصور الإقطاعيين البولونيين، دور الاقتصاد التبادلي في مجتمع إقطاعي صرف. لقد عاش اليهود، كما يقول ماركس، في مسام المجتمع البولوني وظل ذلك الوضع سائدا طوال المدة التي بقي فيها التنظيم الاجتماعي والسياسي في بولونيا على حاله. ففي القرن الثامن عشر، وبعد الفوضى السياسية والانحطاط الاقتصادي، وجهت إلى الإقطاعية البولونية ضربة قاضية، في نفس الوقت الذي اهتز فيه المركز التقليدي الذي احتله اليهود في أوروبا الشرقية. وبعد شارفت المسألة اليهودية على الاختفاء في الغرب، انتفضت بعنف في شرق أوروبا. فاللهب الذي قارب الانطفاء هنا، تلقى دفعة من الحيوية من الحريق الذي شب هناك، وأدى تدمير مركز اليهود الاقتصادي في أوروبا الشرقية إلى هجرة يهودية جماعية. ففي كل مكان، وتحت أشكال وصورة متعددة، بثت أمواج المهاجرين من أوروبا الشرقية روح الحياة من جديد في المسألة اليهودية. ومن هذه الناحية، يشكل تاريخ اليهود، في أوروبا الشرقية خاصة، العامل الحاسم في القضية اليهودية المعاصرة.

تعود العلاقات التجارية ليهود أوروبا الشرقية وبوهيميا وبولونيا وروسيا الصغرى إلى العهد الكارولنجي، فالشبكة التجارية التي أقامها اليهود في بداية العصور الوسطى، بين آسيا وأوروبا، امتدت بهذه الطريقة، عبر حقول بولونيا وسهوب أوكرانيا. وكان اليهود الشرقيون، كمشايعيهم الراضاميين، يقايضون المواد الثمينة من آسيا، كالتوابل والحرير، بمواد أوروبا الخام، فشكلوا العنصر التجاري الوحيد في مجتمع زراعي صرف. ففي العهد الكارولنجي، كان النظام الاقتصادي لأوروبا بأسرها متقاربا، وكان الدور الاقتصادي الذي لعبه اليهود الشرقيون والغربيون متشابها بالتالي. ولم يفترق تاريخهم إلى بعدة مدة من الزمن.

وتشهد حكايا أسفار إبراهيم بن يعقوب (965) على نمو التجارة اليهودية المتعاظم في براغ، في خلال القرن العاشر. فقد كان اليهود يصلون من الشرق الأقصى وبيزنطة، حاملين أنواعا مختلفة من البضائع الثمينة والنقود البيزنطية، فيبتاعون القمح والقصدير والفراء. وتصور وثيقة يعود تاريخها إلى عام 1090 يهود براغ كتجار وصيارفة يملكون مقادير كبيرة من الفضة والذهب، وتصفهم بأغنى تجار في العالم. وتشير أيضا وثائق تعود إلى أعوام 1124 و 1222 إلى تجار الرقيق من اليهود، وغيرهم، قادمين من الشرق الأقصى، عابرين الحدود بالقوافل. وكانت نسبة الفائدة عند الصيارفة اليهود في براغ، وهم ذوو أعمال واسعة، تتراوح بين 108 و180 بالمئة. ويشير المؤرخ غالوس، أنه في عام 1085 كانت جوديث، امرأة الأمير لاديسلاس هرمن في بولونيا، تجهد في افتداء الأرقاء المسيحيين لدى التجار اليهود. وسلطت حفريات أجريت في القرن الماضي الأضواء على أهمية الدور الاقتصادي الذي لعبه اليهود في تلك الحقبة من تاريخ بولونيا، وقد عُثر على نقود بولونية تحمل حروفا عبرية، يعود تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهذا دليل كاف على أن التجارة البولونية كانت بين أيدي اليهود. ولم تمر الاجتياحات التترية في القرن الثالث عشر بدون أن تترك أثرا على يهود بولونيا وروسيا. لكن منذ عام 1327، على إثر امتياز من ملك بولونيا فلاديسلاس لوليتيك، توافد تجار هنغاريون يهود إلى كراكوفيا. وخلال القرون التي تلت، لم تتناقض تجارة اليهود في بولونيا، بل بالعكس ازدادت توسعا.

وكما جرى في أوروبا الغربية، ترافق نمو التجارة مع ازدهار الربا. وكان النبلاء هنا أيضا -وهم الزبائن الرئيسيون للمرابين اليهود- يجهدون في الحد من الربا اليهودي، بعكس الملوك الذين كانوا يشجعونه، «لأن العبيد، يتوجب عليهم دائما، وهم عبيد الخزينة، أن يملكوا مالا جاهزا لخدمتنا». وفي «مجمع» عام 1347 ، اصطدم النبلاء، الذين أرادوا تخفيض نسبة الفائدة التي كانت تبلغ أحيانا 108 بالمئة، بمقاومة حازمة من الملكية.

وفي عام 1456، أعلن الملك كازيمير جاغلون أنه، بحمايته لليهود ، إنما يستوحي الشرائع الدينية التي تفرض عليه المسامحة. وفي عام 1504، أعلن ألكسندر، ملك بولونيا، أنه يتصرف حيال اليهود، كما يليق «بالملوك والعظماء الذين يتميزون بالتسامح، ليس فقط حيال معتنقي الدين المسيحي، بل أيضا حيال معتنقي الأديان الأخرى».

وفي أحوال كهذه، كان محتما أن تتطور وأن تزدهر أعمال اليهود، وقد تمكن المرابون اليهود، في القرون الثالث والرابع والخامس عشر، من الاستيلاء على جزء من الأراضي التي تخص النبلاء. وفي عام 1389، أصبح اليهودي «سابوتي» مالكا لجزء من أراضي «كافيلوفو». وفي عام 1390، استلم أيوسمان وهو يهودي من كراكوفيا أملاك الأمير «ديفيز دي بسلفيك» على سبيل الرهن. واستولى موشكو، وهو يهودي من مدينة بوزن، عام 1393، على أملاك بونيكز، وفي عام 1397، رُهنت أراضي آبيجيز عند اليهودي أبراهام، في مدينة بوزن أيضا. وقد تملك اليهود أراضي النبلاء هذه بشكل كامل. هكذا، ففي المثل الأخير، ولدى محاولة النبيل مهاجمة الأملاك المنتقلة إلى أبراهام، أكدت المحكمة حق اليهودي في التملك، وعاقبت المعتدي بغرامة قاسية. وفي عام 1404، قضى قرار من المحكمة. بحق اليهودي شمرلن من كراكوفيا في الملكية المطلقة والدائمة لثلاث ضيع رُهنت لديه.

كان أكثر «الصيارفة» أهمية يقطنون في مدينة كاراكوفيا، مقر الملوك، ويعتمدون في الدرجة الأولى، **على الملوك والأمراء الإقطاعيين والأساقفة**. هكذا اقترض كازيمير الأكبر من الصيارفة اليهود مبلغا ضخما، يقدر ب 15000 مارك. وكان لويس، ملك هنغاريا، مدينا للمرابي لفكو من كاراكوفيا، مرة ب 30000 «غولدن» وأخرى ب 3000. وكان الملك لاديسلاس جاغلون والملكة هوفيغ مدينين له أيضا بمبالغ ضخمة.

لم يكن «لفكو» مصرفيا كبيرا فقط، إنما كان أيضا من كبار الملتزمين في المملكة. فقد ضمن بيت المال وصك النقود وملاحات فيلزكا وبوشينا، وكان يملك، في كاراكوفيا، منازلا ومعملا للجعة. وككل المواطنين العظام، أنعم عليه بلقب «فيرديسكريتوس» - أي الرجل المميز-.

كان ربا الصيارفة اليهود الكبار، كميسكو وجوردن دي بوزن وآرون، الذين تمكنوا من جمع أملاك شاسعة ومن الاستيلاء على القرى والأراضي، يثير موجة الاحتجاجات لدى النبلاء. وهكذا حدد قانون فارتا (1423) الربا اليهودي. وبعد أن منع قانون فارتا القروض، مقابل رهونات غير منقولة، أُجبر اليهودي ألكسندر، عام 1432، الذي رُهنت لديه، عام 1427، قرى دمبروفكا وسولوكوف، مع قسم من الموجودات الحية، بقرار من المحكمة، أجبر على إرجاع هذه الأملاك إلى صاحبها المستدين منه.

لكن لم يخضع اليهود والملوك بسهولة للوضع القائم، فتمكنوا بعد صراع مرير من إلغاء قانون فارتا، ليعود الصيارفة إلى توسيع دائرة أعمالهم. هكذا، رهن الملك، عام 1444، عند الصيرفي شينا، قصره في لمبرغ. وكان في عداد زبائن هذا المرابي الأمير زويد ريغيلا، والإقطاعي ستريزكا الذي رهن لديه قرية فينيكي، الخ.

ولم يرض النبلاء بالهزيمة، فعاودوا الهجوم، ونجحوا في إجبار الملك على سن قانون نيسنراوا، عام 1454، الذي فاق قانون فارتا شدة. ومع ذلك –وهذا كاف لتبيان الفارق الأساسي القائم في هذا المجال بين بولونيا وأوروبا الغربية –لم تتوصل الترتيبات «الأكثر» تعسفا إلى وضع حد للربا اليهودي. وعلى العكس من ذلك شهدنا، إبداء من عام 1455، نهضة في التجارة المصرفية مردها، بشكل خاص، إلى هجرة اليهود من مورافيا وسيليزيا، وبلدان أخرى، وتدل قرارات كاراكوفيا على أنه ابتداء من عام 1460، جرت عودة إلى العقود الربوية تُذكر بأيام لفكو وشمرلن. وكان فيشِل، وهو أكثر الصيارفة ثراء، والمتزوج من الصيرفية رشكا، من براغ، يمد بالأموال الملك البولوني، كازيمير جاغلون وخلفاءه البرخت وألكسندر. وبينما توصل النبلاء، في أوروبا الغربية، إلى التخلص في كل مكان من الربا اليهودي، بفضل دخول الاقتصاد التبادلي والوفرة النقدية، .. لم يتمكنوا من ذلك في أوروبا الشرقية، حيث يسيطر الاقتصادي الطبيعي. وبقي المصرف اليهودي قائما بالرغم من كل الأخطار التي تعرض لها.

وأخرت حالة البلاد المتخلفة عملية التطور التي شاهدناها في بلدان أوروبا الغربية، إقصاء اليهود من التجارة، انزواؤهم وحصرهم في مزاولة الربا. ولم تكن الطبقة البرجوازية والمدن إلا في بداية نموها، وبقي الصراع بين البرجوازية واليهود في شكله الجنيني، ولم يؤد إلى نتائج فاصلة. وإلى جانب الحرفيين، الذين يعانون الويل من الربا اليهودي، انضم التجار، ومع نمو المقاطعات كانت تتولد خلافات جديدة مع اليهود. وسبَّب الحرفيون مجازر اليهود في كاراكوفيا عام 1403 وفي بوهيني عام 1445، غير أن هذه الصراعات بقيت عَرضية. ولم تؤد في أي مكان إلى القضاء على العنصر اليهودي، بل بالعكس أخذت أوضاع اليهود تتعزز في القرنين السادس والسابع عشر واستمرت التجارة اليهودية في الازدهار .

وفي القسم الثاني من القرن الرابع عشر، طُرح مشروع «شركة» لثلاثة يهود من لمبرغ، هم شلومو وسزفجا ويعقوب، لتوريد بضائع إيطالية إلى مجلس المدينة في لمبرغ. وأصبح اليهود، مع بداية القرن الخامس عشر، مجهزي البلاط الملكي. وفي عام 1456 صادر حاكم كامينيك، ويدعى بودولسكي، بضائع مشرقية قيمتها 600 مارك من التجار المتوجهين من المراكز التجارية على البحر الأحمر إلى بولنيا. وكان اليهودي كاليف جودايوس من كافا يُدخِل من جمرك لمبرغ كميات كبيرة من البضائع الشرقية. وكان اليهود البيزنطيون والإيطاليون، مندينة كافا، يقومون برحلات عدة إلى بولونيا. وبالرغم من تهديم المستعمرات الإيطالية على البحر الأسود (عام 1475) تابع اليهود إقامة علاقات مع الشرق. وابتداء من عام 1467 كان اليهودي دافيد، من القسطنطينية، يمون مدينة لمبرغ بالبضائع الشرقية، بصورة متواصلة. ونلاحظ أيضا نهضة تجارة الرقيق في روسيا الصغرى بين أعوام 1440-1450، ففي عام 1449، ذكرت سجلات العدالة الروسية حادثا لافتا للنظر، إذ طالب اليهودي مردخاي، في غاليث، بإعادة عبد فر منه بواسطة القضاء.

وكان تجار مدن كافا والقسطنطينية اليهود يترددون فقط على الأسواق الكبيرة في مدن لمبرغ ولوبلن، وبالإضافة إليهم، كان يؤمها اليهود المشتتون في المدن والقرى الروسية والبولونية لشراء البضائع الشرقية وتصريفها في البلدان التي كانوا يأتون منها. وكان التجار اليهود يجتازون طرق لمبرغ ولوبلن المؤدية إلى بولونيا الصغرى والكبرى وحتى الحدود السيليزية، ويعبرون هذه الحدود ويحيون تجارة نشيطة مع بوهيميا وألمانيا. وتشير رسائل مؤرخة في عام 1588 إلى أن الجلد والفراء كانا ينقلان من كاراكوفيا إلى براغ، وتُقرض الأموال مقابل فوائد ورهونات.

وكانت سوق لوبلن بمثابة نقطة التقاء بين التجار اليهود البولونيين وللتوانيين. فقد كان التجار اليهود يصدرون من لتوانيا الجلود والفراء و الخشب والعسل، ويبتاعون من سوق لوبلن التوابل المستوردة من تركيا والمواد المصنوعة الآتية من أوروبا الغربية. وتشير سجلات مدينة دانتزيغ إلى تجار يهود ليتوانيين كانوا يصدرون الأخشاب والشموع والفراء والجلود بين سنوات 1423 و1436.

كان وضع اليهود الليتوانيين أفضل من وضعهم في بولونيا. ونَعِم اليهود حتى إتحاد لوبلن (إتحاد بولونيا وليتوانيا) وبنفس الحقوق الممنوحة للسكان الأحرار. وكانت تتمركز بين أيديهم التجارة الكبيرة والمصرف والجمارك الخ. ودرّ عليهم ضمان الضرائب ثروات ضخمة، وكانت ثيابهم تتلألأ بالذهب ويحملون سيوف الأشراف.

وتشير مراسيم صدرت في لتوانيا، إلى أن اليهود ضمنوا تقريبا، بين الفترة الواقعة بين أعوام 1463 و1494، كافت مكاتب الجمارك الخاصة بدوقية ليتوانيا في مدن بيليك وبرينسك برشكزن واوردنو وكييف ومينسك ونفغوردو وجيتومير. وتذكر حجج، تعود لعامي 1488-1489، بعض اليهود من تروك وكييف يقومون باستثمار ملاحات الدوقيات الكبرى، وفي الحقبة نفسها، ابتدأ، اليهود بالعمل في «الحانات»، وهي مهنة تسير، في القرى البولونية والروسية، متوازية مع تجارة الربا.

ولقد كان لحكم النبلاء الفوضوي في بولونيا أثره على وضع اليهود، فقد بقي مركزهم في القرن السادس عشر صلبا، لكنهم انتقلوا، تدريجيا، من الرقابة الملكية إلى رقابة صغار وكبار الإقطاعيين. ومع تضاؤل أهمية الملوك، فتش اليهود عن حماة أقل شهرة ولكن أكثر أمنا. وقد اشتكى الملك سيجسموند إلى المجمع، عام 1539، بقوله أن نبلاء مملكتنا يريدون الاستحواذ على كل فوائد اليهود القاطنين في الضياع والقرى والممتلكات، وهم يطالبون بحق محاكمتهم. وعلى هذا نجيب: «إذا تخلى اليهود عن إمتيازات المحاكم الذاتية التي منحهم إياها أجدادنا الملوك، والتي أكدناها لهم، يتخلون في الواقع عن حمايتنا، وبما أنه لا يعود لنا أية فائدة منهم، فلا مبرر لفرض مساعدتنا لهم بالقوة».

من الواضح أن اليهود تخلوا عن «هذه المساعدات»، لأن الملكية فقدت السلطة الحقيقية في هذا البلد الذي سيطر عليه النبلاء.

وتوطدت أوضاع اليهود في القرن السادس عشر، فحصلوا مجددا على جميع الحقوق التي أريد سلبهم إياها في القرن السابق، وتحسنت أوضاعهم الاقتصادية.

وحرمت قوة النبلاء المتنامية اليهود من حماية الملوك. استعمل الإقطاعيون كافة الوسائل لحثهم على زيادة نشاطهم الاقتصادي. وكان التجار والمقرضون بالفائدة والوكلاء المديرون أملاك النبلاء وخاناتهم ومعمل الجعة في غاية النفع للإقطاعيين الذين

يقضون أوقاتهم في الخارج، في الإفراط في المسرف والبطالة. «بنى اليهود المخازن والخانات في جميع المدن الصغيرة والإقطاعات التي تخص النبلاء. وكان اليهودي يتصرف بحرية تامة، إذا استطاع اكتساب الرضى في نظر السيد»[130].

وبشكل عام، كان مركز اليهود الاقتصادي بحالة ممتازة، لكن وضعهم إزاء النبلاء قوّض أسس الاستقلالية اليهودية المتطورة جدا التي وجدت في بولونيا. «أدت الظروف السياسية والاقتصادية العامة لبولونيا إلى تشكيل دولة ضمن دولة، عاش فيها اليهود محافظين على مؤسساتهم الدينية والإدارية والقضائية الخاصة. وكوّن اليهود طبقة خاصة تنعم باستقلال داخلي مميز»[131].

وحدد مرسوم أصدره سيجسموند أوغست (آب 1551) أسُس استقلالية اليهود في بولونيا الكبرى على الشكل التالي: يحق لليهود أن يختاروا، بعد اتفاق فيما بينهم، من يدير شؤون الحاخامين والقضاة، وتوضع قوى الدولة القمعية تحت تصرفهم في الحالات الموجبة.

وكان لكل مدينة أو قرية يهودية، مجلس خاص بالمجموعة، ويضم المجلس أربعين عضوا في التجمعات الكبرى، وعشرة في الصغرى منها، ويُنتخب هذا المجلس بطريقة التصويت المزدوج. وكان نشاطه واسعا جدا، فهو يتولى جباية الضرائب وإدارة المدارس والمؤسسات وتنظيم المسائل الاقتصادية والاهتمام بالعدالة. وتمتد سلطة كل مجلس –المسمى «كاحال»- إلى يهود القرى المجاورة، وكان لمجالس المدن الكبرى سلطة على التجمعات الصغيرة. وبهذه الوسيلة، ولدت تشعبات المجموعة المسماة «بالغاليلوث».

سبق لنا التحدث عن «فادا آربا آراتزوث»، أي «الجمعية العامة لمجالس اليهود»، (المؤلفة من أربعة بلدان: بولونيا وروسيا الصغرى وبودوليا وفولهينيا)، التي كانت تجتمع في فترات منتظمة وتشكل برلمانا حقيقيا.

وفي القرن السابع عشر بدأت أسس استقلالية اليهود بالاهتزاز، ولهذا التزعزع صلة مع تفاقم وضع اليهودية البولونية التي بدأت تشعر بالتأثيرات السيئة للفوضى التي يتخبط فيها المجتمع الإقطاعي البولوني. وأدى التعديل الجزئي الذي طرا على وضع اليهود، نتيجة لتدني السلطة الملكية، إلى اتصالهم، أكثر من قبل، بالجماهير الشعبية المستعبَدة. فاليهودي الذي صار وكيل أعمال للنبيل أو خمارا، أصبح مكروها من الفلاحين كالأسياد أو أكثر. لأنه غدا الأداة الرئيسية لاستغلالهم، فأدى ذلك الوضع، عجلا، إلى انفجارات اجتماعية عنيفة، خاصة في أوكرانيا، حيث كانت سلطة النبلاء البولونيين أقل متانة منها في بولونيا. وبوجود السهوب الشاسعة، تمكن الفلاحون من الانضمام إلى التجمعات العسكرية القوزاقية لتحضير ساعة الانتقام.

«كان الوكيل اليهودي يبذل جهده للاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الإنتاج، واستغلال الفلاح إلى أقصى حد. وكان الفلاح في روسيا الصغرى يكن حقدا عميقا للملاك العقاري البولوني، وذلك لسببين: كونه سيدا من ناحية، وبولونيا من ناحية أخرى. وربما أحس بكره أعنف نحو الوكيل اليهودي، الذي يلقاه باستمرار، فيرى فيه في نفس الوقت، خادما مقيتا للسيد و رجلا «غير مسيحي» يفترق عنه بدينه ونمط حياته»[132].

وأدت الثورة القوزاقية الرهيبة في شميلنك، عام 1648، إلى إفناء 700 مجموعة يهودية، ودلت هذه الثورة، في الوقت نفسه، على هشاشة المملكة البولونية الفوضوية، وهيأت تجزئتها، وابتداء من عام 1648، عرفت بولونيا غزوات واضطرابات داخلية مستديمة.

وانتهت الفترة الممتازة التي عرفتها اليهودية مع زوال الحالة الإقطاعية القديمة في بولونيا. وأدت المذابح والفوضى السائدة في أنحاء البلاد إلى استحالة أي نشاط اقتصادي طبيعي.

واهتزت أسس الإديولوجيا اليهودية القديمة مع تأزم مركز اليهود، وأدى البؤس والإضطهادات إلى نشوء أرض خصبة للتصوف. وحلت دراسة «القبالة» Cabale محل التلمود، وأخذت الحركات المِسيَّة، كحركة «سابتي زيفي» بالانتشار.

---

[130]- غريتز: تاريخ اليهود Graetz

[131]- غريتز: المرجع السابق Graetz

[132]- غريتز: المرجع السابق.

إنه لمن المهم التذكير بتحول فرانك وأتباعه إلى المسيحية. وقد «طالب الفرنكيون بإعطائهم أرضا خاصة لأنهم لا يريدون استغلال الفلاحين أو العيش من الربا واستثمار الخمارات. وكانوا يودون بالأحرى العمل في الأرض»[133].

ولم تتوسع تلك الحركات كثيرا لأن وضع اليهودية لم يتقوض نهائيا بعد. ففي نهاية القرن الثامن عشر، ابتدأ صرح المجتمع البولوني بالانهيار، تحت الضربات القاسية للفوضى الداخلية والانحطاط الاقتصادي والتدخل الخارجي، فطُرحت على اليهودية مسائل الهجرة والانتقال إلى مهن أخرى (أي مهن لها علاقة بالإنتاج).

[133]- غريتز: المرجع السابق.

الفصل الخامس

تطور المسألة اليهودية في القرن التاسع عشر

في بداية القرن التاسع عشر تمركز اليهود، بغالبيتهم العظمى، في بلدان أوروبا الشرقية المتخلفة، وحينما قُسمت بولونيا كان فيها أكثر من مليون يهودي. وبعد الإحصاء الروسي لعام 1818، كان التقسيم الاجتماعي لليهود الشرقية، كالآتي:

	تجار	حرفيون	مزارعون
أوكرانيا	86.5 بالمئة	12.1 بالمئة	1.4 بالمئة
ليتوانيا وروسيا البيضاء	86.6 بالمئة	10.8 بالمئة	2.6 بالمئة
المجموع	86.5 بالمئة	11.6 بالمئة	1.9 بالمئة

تشير النسبة المئوية للحرفين والمزارعين إلى بداية تمايز اليهود الاجتماعي. لكن، بشكل عام، لم تكن بنية اليهود الشرقيين الاجتماعية قد خضعت لتغيرات مهمة، بل ظلت كما كانت عليه خلال قرون طويلة. وتشكل بعض روايات الجنود الذين اشتركوا في معركة نابليون في روسيا شهادات قيِّمة تتعلق بحياة اليهود في بداية القرن التاسع عشر. «كان الكثير منهم كما يقول فون فورتنباغ، يضمنون ويديرون أملاك الإقطاعيين ويستثمرون الحانات، وكان كل شئ بين أيديهم: فهم يقرضون الأموال للأسياد والفلاحين ويبتاعون البضائع من ليبزغ». ويعطي جندي فرنسي آخر، يدعى بويبسك، **في رسائل عن حرب روسيا**، معلومات هامة عن دور اليهود في حياة البلد الاقتصادية، «كانوا الوسطاء بين الفلاحين والأسياد وكان الأسياد يضمنونهم حاناتهم ويلزمونهم ببيع المشروبات المصنوعة في أملاكهم. وكان على الفلاحين، بمناسبة الأعياد والعماد والدفن والزواج، أن يشتروا على الأقل سطلا من المشروبات الروحية ويبيعهم اليهود بالدين، فارضين فوائدة مرتفعة. وكانوا يتدخلون في كافة العمليات التجارية في المنطقة، إلى جانب كونهم صيارفة». ويتحدث الكاتب عن علاقات عمل دائمة تربط اليهود البولونيين بإخوانهم الألمان، فهم يستخدمون بريدهم الخاص ويتلقون معلومات سرية عن أعمال البورصة في كافة أنحاء أوروبا.

ويقول مؤلف «رحلة ملازم موسكوبي ، من تريستا إلى القسطنطينية. عام 1810»، «علينا أن نسمي بولونيا، بدون أي تحيز، مملكة يهودية، إنهم يشكلون أغلبية السكان في المدن الصغيرة والكبيرة. ومن النادر أن نجد مدينة لا يهود فيها. وتتولى الحانات اليهودية على الطرقات الكبرى. وباستثناء بعض الأملاك التي يديرها الأسياد أنفسهم، كانت غالبية هذه الأملاك مرهونة أو مضمنة لليهود، فهم يمتلكون رساميل ضخمة ولم يكن بمقدور أحد الاستغناء عن مساعدتهم . ولم يفلت من الديون إلا بعض الأسياد الأثرياء».

وكتب كاملنين في «سجلات عن روسيا الجنوبية والغربية» يقول «أن يهود القرى يكتفون بضمان الطواحين ومعامل الجعة والحانات، ونادرا ما نرى قرية بدون «ضامن» يهودي، إلى حد أن الإحصاءات، غالبا ما خلطت بين «الملتزم» واليهودي، وربطت الحرفة بالقومية أو بالدين. وبدلا من أن يكتب «لا يهودي في القرية»، كان يستعاض عنها ب «لا ملتزم في القرية».

غير أن هؤلاءالكتاب، في محاولة وصفهم الحاضر، لم يرسموا إلا صورة للماضي. فقد كان وضع اليهود التقليدي في أوروبا الشرقية ينجرف، ببطء شديد، في مجرى الاقتصاد الرأسمالي. وقد حطم النظام الجديد النظام القديم، حتى قبل أن يحل محله تماما، وتقدم انحطاط الإقطاعية على حلول الأشكال الرأسمالية الجديدة. «بينما تطلّب التنامي العددي لليهود مصادر جيدة للعيش، تزعزعت المراكز الاقتصادية القديمة. وشعر اليهود الذين ألفوا، خلال قرون طويلة، الاقتصاد الطبيعي بالأرض تميد تحت أقدامهم، فقد كانوا استأثروا طويلا بعمليات التبادل. ولكن مع بداية «رسملة» روسيا وبولونيا ، بات الملاكون العقاريون يهتمون بأنفسهم بمختلف فروع الإنتاج، مما أدى إلى الاستغناء عن اليهود. وفي هذا الوضع، لم تجد سوى أقلية من اليهود الأغنياء مجالا منسبا للعمل».

وعانت الغالبية العظمى من اليهود، المؤلفة من صغار التجار وأصحاب الحانات والجوالين، كثيرا من الوضع الجديد. وبدأت مراكز التجارة الإقطاعية القديمة بالاضمحلال، وحلت مدن صناعية وتجارية جديدة محل المدن الصغيرة والأسواق المحلية وبدأت برجوازية محلية بالنمو.

ووصل الوضع الاقتصادي للجماهير اليهود إلى حالة ضيق فظيعة، حتى قبل تقسيم بولونيا، إلى حد أن مسائل تحويل البنية الاقتصادية لليهود ونزوحهم، طرحت من تلقاء نفسها. وكانت الهجرة في ذلك العهد، مقصورة على التنقل داخل حدود الدول التي تقاسمت بولونيا. وسعت جماهير اليهود إلى ترك المناطق المنهارة والمتخلفة من المملكة الإقطاعية القديمة، التي باتت إمكانيات العيش فيها تتردى باستمرار، لتجد موارد رزق جديدة في المناطق الأكثر تطورا من الإمبراطوريات وارثة بولونيا. ففي عامي 1776 و1778، طلبت بعض الجاليات اليهودية البولونية إذنا من الحكومة الروسية بالهجرة إلى هناك. «في بداية القرن التاسع عشر تدفق سيل واسع من المهاجرين من بولونيا القديمة نحو روسيا»[134]. وشهدنا الوضع نفسه في المناطق الملحقة بروسيا والنمسا. وتوجه اليهود نحو برلين وفيينا ونحو جميع المراكز التي تنبض فيها حياة اقتصادية جديدة وحيث تقدم لهم التجارة والصناعة منافذ جديدة وواسعة. «وتبين هجرة يهود بودوليا وفولهينيا وروسيا البيضاء وليتوانيا، نحو روسيا، ثم هجرة اليهود البوزنانيين والبولونيين إلى إنكلترا، وحتى إلى أمريكا، أن يهود أوروبا الشرقية بحثوا عن بلدان يهاجرون إليها منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر»[135]. وسارت إرادة الهجرة هذه بالتوازي مع الجهود التي بُذلت لجعل اليهود «مواطنين صالحين»، وذلك بتعويدهم على الأوضاع الجديدة، وبجعلهم حرفيين ومزارعين. وكان في جدول الأعمال اليومي «للمجمع الكبير» البولوني بين عامي 1784 و1788 ، مسألة «إنتاجية» اليهود.

واعتبرت جميع الحكومات، التي ورثت جزءا من اليهودية البولونية، التركيب الاجتماعي لليهود تركيبا شاذا. فبُذلت محاولات عدة لتحويل اليهود إلى عمال مصانع، وخصصت الجوائز للحرفين الذين يشغِّلون الصناع اليهود. وتلقى هؤلاء الصناع أيضا تشجيعا ماليا.

بالإضافة إلى ذلك أرسل ألوف من اليهود لاستصلاح الأراضي في بعض المناطق الروسية. وتمكنت هذه القرى اليهودية، بالرغم من الصعوبات الكبرى التي واجهتها في البداية، من التأقلم على مر الزمن.

« اتسم تطور الشعب اليهودي في خلال القرن الأخير بعاملين رئيسين: عامل الهجرة وعامل التمايز الاجتماعي... فقد أدى انحطاط النمط الإقطاعي والملكية الرقية، بالتوازي مع نمو الرأسمالية، إلى خلق مصادر جديدة للعيش، ولكنه دمر، وبقدر أكبر بكثير، المراكز الوسيطية التي كان يعيش منها القسم الأكبر من الشعب اليهودي. ودفعت هذه العوامل الجماهير اليهودية إلى تغيير أماكن إقامتها ومظاهرها الاجتماعية وأجبرتها على البحث عن مكان جديد في العالم ومركز جديد في المجتمع.

ولم تكن عملية تحويل اليهود إلى منتجين، في بداية القرن التاسع عشر، إلا في مستهلها. فمن جهة، تتابع انهيار الاقتصاد الإقطاعي ببطء كاف لكي يتيح لليهود التعلق لمدة من الزمن بمراكزهم القديمة، ومن جهة أخرى كان نمو الرأسمالية ما يزال متسما بأشكال بدائية، مما أتاح لعدد كبير من اليهود أن يجدوا مجالا رحبا للعمل في التجارة والحرف، فلعبوا دور الوسطاء التجاريين الناشطين في الصناعة الرأسمالية الفتية وساهموا في «رسملة» الزراعة.

يمكننا أن نعتبر، بشكل عام، أن انخراط اليهود في المجتمع الرأسمالي حتى نهاية القرن التاسع عشر وابتداء من نهاية ذلك القرن، حصل العكس واضطرت جماهير غفيرة من اليهود على ترك أوروبا الشرقية، وكان المعدل السنوي للهجرة اليهودية، كالآتي:

من عام 1830 إلى عام 1870، من 4 إلى 5 آلاف مهاجر.

من عام 1871 إلى عام 1880، من 8 إلى 10 آلاف.

من عام 1881 إلى عام 1900، من 50 إلى 60 ألفا.

من عام 1901 إلى عام 1914، من 150 إلى 160 ألفا.

134- لسزنسكي: الشعب اليهودي خلال المئة سنة الأخيرة.
135- لسزنسكي: المرجع السابق.

خلال المرحلة الأولى، التي امتدت حتى عام 1880 نشهد، بشكل خاص، هجرة داخلية تتوجه نحو المدن الكبرى. فبين عامي 1830 و1880، حيث كانت الهجرة السنوية لا تتعدى 7000 نسمة، ازداد عدد اليهود من 3281000 إلى 7763000 نسمة. هذا الازدياد الطبيعي الهام تم استيعابه بغالبيته داخل البلدان التي كان يقطنها اليهود. فماذا حدث ابتداء من عام 1881 وخاصة ابتداء من عام 1901، حتى بلغت الهجرة رقما مدهشا بلغ من 150000 إلى 160000 نسمة في السنة؟ وما هي أسباب هذا التغيير؟

لقد تسارعت «رسملة» الاقتصاد الروسي بإصلاح عام 1863، وابتداأ الإنتاج الزراعي يتوجه أكثر فأكثر نحو الأسواق، وتراخت قيود الرق والإكراه القطاعي وتسارع التمايز الاجتماعي في القرى فتحول قسم من الفلاحين إلى مزارعين موسرين، بينما سقط قسم آخر منهم إلى صفوف البروليتاريا.

وأدت «رسملة» الزراعة إلى افتتاح سوق محلية هامة لوسائل الإنتاج (آلات.. الخ) وللمواد الاستهلاكية. وأدى الإنتاج الرأسمالي الزراعي إلى:

1-تقسيم العمل داخل القطاع الزراعي، كنتيجة للتخصص في مختلف الفروع.

2-طلب متزايد للمواد المصنوعة من قبل الفلاحين الموسرين ومن الجماهير البروليتارية التي لا تملك سوى سواعدها للعيش والمضطرة إلى شراء أود حياتها.

3-يتطلب الإنتاج الزراعي للسوق استعمالا متزايدا للآلات، مما يؤدي إلى تطوير صناعة أدوات الإنتاج.

4-أدى تزايد إنتاج أدوات الإنتاج إلى تزايد الجماهير البروليتارية في المدن، مما ساهم أيضا في توسيع سوق المنتجات الاستهلاكية.

وفتحت الإمكانيات الضخمة للسوق الداخلية الفرصة أمام الجماهير اليهودية المطرودة من مراكزها الاقتصادية القديمة للاندماج في الاقتصاد الرأسمالي، وانتشرت الورش والصناعات الصغيرة انتشارا واسعا.

وبينما وجد الحداد أو الفلاح غير اليهودي الطريق لدخول المصانع أو المناجم، تدفقت جموع البروليتاريا اليهود على المصانع الصغيرة التي تنتج مواد استهلاكية.

ولكن هناك فرقا جوهريا بين تحول الفلاح أو الحداد إلى عامل في صناعة المعادن، وبين تحول البائع اليهودي على حرفي أو عامل في الخياطة. فالنمو الرأسمالي لفروع الصناعة الثقيلة يترافق **بتحول في الظروف المادية للإنتاج**. فلا يتغير فقط هدف أداة الإنتاج، بل يتغير أيضا **شكلها**، وتتحول الأداة البدائية إلى آلة حديثة ومتقنة. وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بأدوات الاستهلاك، إن شكل الثوب لا يتغير سواء أكان منتجا للاستعمال الشخصي أو للسوق المحلية أو للسوق العالمية، كما لا تتبدل الأدوات. وليس الأمر على هذه الصورة بالنسبة للأداة التي تتحول إلى آلة أكثر فأكثر اتقانا، **وتتطلب توظيف رساميل متعاظمة**.

فمن أجل إقامة صناعة الآلات، يجب منذ البدء توظيف رساميل كبيرة. وهذا، وخاصة في البدء، بطول فترة العمل. «تبعا لطول أو قصر مدة العمل –أي أيام العمل المتواصلة واللازمة في فرع ما لإنتاج مادة مصنوعة- التي يتطلبها الإنتاج أو الفائدة المرجوة، يستلزم ذلك مصروفا إضافيا ودائما من الرساميل الجارية (الأجور والمواد الأولية والتوابع..)»[136].

لهذا السبب، يتمن إنتاج أدوات الإنتاج منذ البدء في مشاريع رأسمالية كبيرة، بينما يمكن لإنتاج أدوات الاستهلاك أن يتم، كالسابق، في نفس الورشة الحرفية.

ولا تقوم الصناعة الكبيرة بطرد نمط الإنتاج القديم (محترفات ووسائل عمل قديمة) في الميدان الاستهلاكي إلا بعد فترة من الزمن ولا يتحقق ذلك إلا بعد اختراع آلات عمل متقنة تفرض وجودها أيضا في قطاع وسائل الاستهلاك. ويلعب هنا تطور الرأسمال الثابت دورا مهيمنا. وبهذه الطريقة تتساوى ظروف الإنتاج في القطاعين الرئيسيين من الاقتصاد. «إن كون الآلة البخارية تنقل قيمتها، بصورة متقطعة ويوميا إلى نتاج عمل متقطع، منسوجات، مثلا، أو خلال ثلاثة أشهر، إلى نتاج عمل إنتاجي متواصل، إلى

[136] كارل ماركس: راس المال: المجلد الثاني

قاطرة، لا يغير شيئا من ضرورة تقديم الرأسمال اللازم لشراء آلة بخارية.. ففي الحالتين، ربما لا تستبدل الآلة البخارية إلا بعد عشرين سنة»[137].

ولقد ولّد تحرير الفلاحين في روسيا، سوقا واسعة للمواد المصنوعة وحل محل الاقتصاد الذي كان لا يزال في قسمه الأكبر إقطاعيا، إنتاج القيم التبادلية، وابتدأت روسيا تتحول إلى مخزن لأوروبا بأسرها. ونمت بسرعة المدن التي تحولت إلى مراكز تجارية وصناعية.

وهاجر اليهود، بكثرة، من المدن الصغيرة لكي يستقروا في تجمعات المدن الكبيرة، حيث ساهموا بقوة، في تطوير التجارة والصناعة الحرفية لوسائل الاستهلاك. ففي عام 1900، شكل اليهود في بولونيا الأغلبية المطلقة في إحدى عشرة مدينة، من أصل إحدى وعشرين مدينة مهمة، ورافق هجرة اليهود إلى المدن الكبرى، تمايز اجتماعي زعزع الأسس التقليدية اليهودية.

وأدى نمو قطاع وسائل الإنتاج إلى «مكننة» الزراعة والصناعة الخفيفة. وبدأت الآلات تنافس، بشكل حاد، ورش الحرفيين اليهود الصغيرة. وحوالي نهاية القرن الماضي هاجر عدد كبير من العمال غير اليهود نحو المدن الكبرى حيث خفت وثيرة ازدياد السكان اليهود أو توقفت نهائيا. وأدت «مكننة» الصناعة وتحديثها إلى انهيار الصناعة الحرفية اليهودية التي كانت نمت بفضل توسع السوق الداخلية.

كان من الصعب على الحرفي اليهودي أن يصمد أمام الجماهير الفلاحية المتدفقة من الأرياف، ذات المستوى المعيشي المنخفض، والتي اعتادت، منذ زمن بعيد، العمل الجسدي الشاق. لا شك أن بعض العمال اليهود، الذين تخطوا جميع الصعوبات، وجدوا عملا في الصناعات «المكننة»، لكنهم اضطروا، بغالبيتهم، إلى أخذ طريق الهجرة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتشابكت عملية تحويل التاجر اليهودي الما قبل رأسمالي إلى عامل حرفي مع عملية أخرى، هي قضاء الآلة على العامل اليهودي. وأثرت هذه العملية الأخيرة على العملية الأولى، إذ أن الجماهير اليهودية، المبعدة من المدن الصغيرة، لم يعد بمقدورها التحول إلى صفوف البروليتاريا، مما أجبرها على الهجرة. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نفسر السبب الرئيسي لازدياد الهجرة اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبينما أدى انحلال الاقتصاد الإقطاعي القديم وولادة السوق الداخلية إلى نتائج **متشابهة** بالنسبة إلى الجماهير اليهودية وغير اليهودية، أدت «مكننة» الصناعة وتمركزها إلى نتائج معاكسة. من هنا، تأتي أيضا بعض النوازع الأخرى للهجرة اليهودية والهجرة بشكلها العام. فالهجرة اليهودية أتت متأخرة نسبيا، وسارت نحو التزايد، بينما حدث العكس بالنسبة للهجرة بشكلها العام. ففي ألمانيا مثلا، كانت الهجرة السنوية تتراوح بين مئة ومئتي ألف شخص، بين أعوام 1880 و1992، ولم تتعدّ العشرين ألفا في بداية القرن العشرين. ويفسر تدني الهجرة الألمانية الكبير، بالنمو الهائل الذي شهده الاقتصاد الألماني في ذلك العهد. وبشكل طبيعي، تقودنا ظاهرة إبعاد اليهود عن الصناعة إلى الحديث عن البروليتريا اليهودية.

يشكل تمركز الطبقة العاملة اليهودية في الصناعات الاستهلاكية، بدون منازع، ظاهرة ملموسة في بنية الشعب اليهودي الاقتصادية والاجتماعية. إن تشغيل عدد ضئيل من العمال اليهود في مراحل الإنتاج الصناعي الأولي، والتضخم الكبير في نسبتهم المئوية في المراحل الأخيرة، يدل دلالة واضحة على ما اصطلح على تسميته بالشذوذ اليهودي. ولا يتأتى ضعف القاعدة الاقتصادية للبروليتاريا اليهودية عن عامل ذاتي فقط، بل أيضا، وبصورة مستمرة، نتيجة للتطور التقني. ولم يعان العمال اليهود فقط من جميع الصعوبات الملازمة للصناعة الحرفية، وبالأخص من الهزال الاجتماعي، والعمل الموسمي ومن الاستغلال المطرد، والشروط الرديئة للعمل، لكنهم تعرضوا أيضا للطرد المتزايد من مراكزهم الاقتصادية.

يتميز اقتصاد الرأسمالي بالتنامي المطرد للرأسمال الثابت، على حساب الرأسمال المتحرك، أي بازدياد أهمية الرأسمال المكون من وسائل الإنتاج وانخفاض أهمية الرأسمال المخصص لدفع إيجار قوة العمل. وتؤدي عملية التطور الاقتصادي هذه إلى النتائج المعروفة، من قضاء الآلة على العامل وانهيار الورشة الحرفية أمام المصنع وتناقص الوزن النوعي لتلك الفئة من الطبقة التي تنتج سلعا استهلاكية لصالح الفئة الأخرى العاملة في مصنع وسائل الإنتاج.

ويصف الاقتصاد الرسمي عملية التطور هذه، كالآتي:

---

[137] كارل ماركس: المرجع السابق.

«إن الشيء الوحيد المؤكد –والمهم جدا- هو أن النمو الاقتصادي في المئة والخمسين سنة الأخيرة تحوّل في اتجاه اطّراد الأهمية النسبية للرأسمال الثابت، وتدني الأهمية النسبية للرأسمال المتحرك»[138].

وكلما كان الإنسان بدائيا، ازدادت أهمية العمل الذي يمكنه من إشباع رغباته الآنية. وينعكس الأمر كلما تطورت الإنسانية، إذ يتجه اهتمامها، أولا، نحو الأداة ثم نحو الآلة التي تضاعف، بصورة هائلة، المقدرة الإنتاجية.

وتكون الأداة، في البدء، متممة للإنسان، ثم يصبح هذا الأخير متمما لها.

ولا يرمي هذا التذكير بالتطور الاقتصادي المعروف جيدا إلا إلى التشديد على الأهمية الفاصلة للوضع الخاص للطبقة العاملة اليهودية بحيث يمكننا الانتقال مباشرة إلى موضوعنا. إن المسألة التي تطرح نفسها فورا، والتي لم تلاق العناية الكافية حتى الآن، هي إيجاد السب أو الأسباب التاريخية لهذا الوضع.

في دراسة لسزنسكي المعمقة، والخاصة بالاقتصاد اليهودي في بداية القرن التاسع عشر، يتحدث في كتابه «**الشعب اليهودي خلال المئة سنة الأخيرة**»، عن التقسيم المهني للحرفيين اليهود وغير اليهود في ذلك العهد، فيقول:

«إن إلقاء نظرة سطحية على الإحصائيات المقارنة تكفينا لنلاحظ أن المهن الأقل قابلية للتطور إلى صناعة كانت محصورة بين أيدي الحرفيين اليهود، بينما انحصرت المهن الأكثر قابلية لهذا التطور بين أيدي الحرفيين غير اليهود. ويشكل غير اليهود في غاليسيا 99,6 بالمئة من صانعي الأقفال و99,2 بالمئة من الحائكين و98,2 بالمئة من الحدادين و98,1 بالمئة من غزّالي النسيج (بينما كان اليهود يشكلون 94,3 بالمئة من الخياطين و88 بالمئة من صانعي الفراء). وشكلت المهن الأربع الأولى الركيزة التي قامت عليها، فيما بعد، صناعات النسيج والتعدين.

«ولولا هؤلاء العمال المتخصصين، الذين ورثهم الإنتاج الثقيل عن الصناعات الحرفية، لما أمكن قيام تلك الصناعات. إنما في هذه الواقعة التاريخية ينبغي البحث عن السب الرئيسي لدخول اليهود بأعداد قليلة في الصناعة الثقيلة. فمن الطبيعي جدا أن نرى أن الكادرات العمالية الأولى التي وجدت في صناعات التعدين والنسيج قد تشكلت بصورة مطلقة من غير اليهود. وكان لهذه الجماهير العمالية من غير اليهود جاذبية طبيعية لدى السكان غير اليهود، نظرا للتقارب الديني والقومي والنفسي، بينما ساد التنافر بينها وبين الجماهير اليهودية، التي ظلت بالنسبة لها غريبة، على كافة الأصعدة.»

يساهم شرح لسزنسكي في إنارة الموضوع الذي يشغلنا، ويبين لنا السبب الرئيسي والملحّ للبنية المهنية الخاصة التي امتازت بها الطبقة العمالية اليهودية، غير أنه بدوره يضعنا أمام مسألة جديدة، أو أنه يطرح المسألة القديمة على مستوى آخر، فإذا كنا نرى الآن بوضوح، في العامل اليهودي الحالي، وارث حرفيي القرن الثامن عشر، يتوجب علينا إيجاد التفسير الملائم للتركيب المهني المختلف عند الحرفيين اليهود وغير اليهود في ذلك العصر. لماذا تعاطى الحرفيون اليهود الخياطة، بينما تعاطى غير اليهود منهم الحدادة؟ لماذا كان هؤلاء ممثلين، بصفة خاصة، في المهن المرتبطة **بالإنتاج**، بينما بقي الحرفيون اليهود محصورين في قطاع الملبوسات، أي منتجين **للاستهلاك**؟ إن طرح السؤال على هذا النحو، يعني حله تقريبا.

كان الاقتصاد الطبيعي، السائد أوروبا في ذلك العهد، مقتصرا على إنتاج القيم الاستعمالية، مما أدى إلى الغياب التام تقريبا لتقسيم العمل إلى مهن مختلفة.

وكانت كل عائلة تكفي نفسها أو تنتج تقريبا كل ما هو ضروري لتلبية حاجاتها. ويصف فاندر فيلد الحالة هذه كالآتي:

«كانت كل عائلة تكفي نفسها بنفسها تقريبا، وتقطن في منزل خشبي صغير، مقتطع من غابة قريبة، وتحصل حيث هي على القش والطين، وتستعمل الفحم بصورة رئيسية للتدفئة، كما تستعمل أيضا اللزان والخشب الملتقط من الجوار. إنها تغزل محصولها من الكتان أو القنب، ثم تحوكه وتحوله إلى ملبوسات، وتتغذى بما تنتج من القمح والبطاطا والخضار، فهي تطهو خبزها وتصنع ما تحتاجه من الخمر والبيرة وتقوم بتجفيف تبغها، وتقايض بعض ما لديها من البيض والزبدة، مقابل البضائع النادرة التي تحصل

[138]- م.آنسيو، بحث في الاقتصاد السياسي M.Ansiaux.

عليها من الخارج، كالشموع والزيوت والكماليات، والحديد، الخ.. وبالاختصار، فهي تنتج تقريبا كل ما تستهلكه وتستهلك كل ما تنتجه، ولا تبيع إلا الضروري للغاية، لسد عجز مصاريفها المالية المحدودة»[139].

وكان الشيء نفسه يحدث على نسب مختلفة في الضيع القطاعية. ومن الواضح أن نظاما اقتصاديا كهذا، إن لم يستبعد بصورة مطلقة كل أنواع التخصص المهني، فإن المهن القليلة التي تجد لها متسعا تكون بالضرورة نتيجة ظروف استثنائية جدا.

«علينا اعتبار أعمال الحدادة والخزف، أول حرف أنشئت كمهن خاصة، لأنها تتطلب، منذ البدء، اتقانا أكبر، وأدوات عمل خاصة. وقد انصرف حرفيون متخصصون، حتى عند الشعوب الرُحّل، إلى مهنة الحدادة»[140].

إننا نفهم إذن بسهولة أنه حتى في عهد الاقتصاد الطبيعي كانت مهن الحياكة والحدادة منتشرة في القرى وتعم المدن التي كانت في أوروبا الشرقية أشبه بمراكز عسكرية وإدارية.

ففي غاليسيا وبوكوفين، وفي أقسام عدة من هنغاريا ورومانيا وترنسيلفانيا، كما عند الشعوب اليوغسلافية، لم يكن ثمة حرف غير الحدادة، حتى عهد قريب»[141].

فالحرف غير اليهودية، في أوروبا الشرقية، هي إذن نتيجة أسباب خاصة تقتضي، في مجتمع يرتكز على الاقتصاد الطبيعي (غير التبادلي) أن يكون ثمة تبادل في الخدمات.

وكانت نقطة انطلاق الحرفة اليهودية مختلفة، **فهي قد ولدت في الظروف الخاصة للمدينة اليهودية الصغيرة، وأنتجت من أجلها.**

ومن يقول مدينة يهودية صغيرة في القرن الثامن عشر، فكأنه يقول تجمع تجار صغار وخمارين وصيارفة ووسطاء من جميع الأنواع[142].

لم يكن الحرفي اليهودي يعمل إذن من أجل الفلاحين، **المنتجين**، بل من أجل التجار والصيارفة **الوسطاء**. علينا أن نبحث هنا، إذن، عن السبب الجوهري في التكوين المهني المميز للبروليتاريا اليهودية وأسلافها، الحرفيين اليهود. فالحرفي غير اليهودي لا ينتج للفلاح أصنافا استهلاكية، لأن هذا الأخير يكفي نفسه، كما رأينا.

وبالعكس، فإن إنتاج السلع الاستهلاكية هو الشاغل الرئيسي للحرفي اليهودي، لكون زبنائه يتألفون من رجال متخصصين بتجارة الأموال والبضائع أي غير منتجين بالأساس. فإلى جانب الفلاح نجد الحرفي الحداد غير اليهودي، وبجانب رجل المال، الخياط اليهودي.

وفي التحليل الأخير، فإن الفارق المهني بين الحرفيين اليهود وغير اليهود متأت من الفارق الموجود في ميدان نشاط كل منهم.

إن هذا التفسير، هو، بالضرورة هيكلي، وككل هيكل، يسمح بفهم الحوادث بشكلها العام، لكنه لا يستطيع التعبير بدقة عن نوع الحياة الواقعية. لكن إرادة تصوير الحياة، بتعقيدها وتفاصيلها، يؤدي إلى جعل فهم الأنماط العامة التي تتحكم فيها شبه مستحيل. ولهذا

---

139 -أ. فاندرفيلد: الهجرة الريفية والعودة إلى الحقول: Vandervelde 1903.

140 -أ. مندس: الحرفة عند اليهود في عهود التوراة A.Mendes.

141 م. أنسيو: المرجع السابق.

142. لم يقطن كافة اليهود في المدن الصغرى، لكن دورهم الاجتماعي في المدن الكبيرة أو القرية هو نفسه الدور الذي يقومون به في المدن الصغيرة. وتميز هذه الأخيرة، بطابعها الخاص، على أفضل وجه دورهم الاجتماعي هذا. وحسب الإحصاء الحكومي لعام 1818تبين ما يلي:

في أوكرانيا «وبيلوروسيا»:
86,2 بالمئة من اليهود كانوا تجارا.
11,6 بالمئة من اليهود كانوا حرفيين.
1,9 بالمئة من اليهود كانوا مزارعين.

في غاليسيا عام 1820:
18 بالمئة من التجار كانوا يهودا.

السبب فإن علم الاجتماع ملزم على التنقل بدورة تامة ومستمرة من الواقع إلى الهيكل النظري، وبالعكس. ومن يعب على الهيكل النظري عدم قابليته لتبيان الحياة بشكلها المتنوع، لا يفهم بالضبط هذا الترابط الديالكتيكي.

ونستطيع الملاحظة أيضا أن سبب الصراع المتقطع الذي ينشب بين الحرفيين من اليهود وغير اليهود يعود إلى تجاوز قسم من الحرفيين مجال نشاطه إلى مجال نشاط القسم الآخر. ولا يمكن أن نفسر ذلك بتنافس قومي لا يمكن تصوره في العهد الإقطاعي، وذلك لسبب بسيط، هو أن العهد الإقطاعي قد سبق عهد تشكل القوميات. «إن الحس القومي مجهول في مجتمع العصور الوسطى المجزأ»[143].

وللإيضاح، يمكننا ذكر هذا المقطع من إحدى صحف براع القديمة التي تسمى «رمشاكي كرونيك» (1491): «كان يحظر على اليهود القيام بأعمال للمسيحيين، بينما تُركت لهم حرية العمل للزبائن اليهود».

واحتج المجلس البلدي في براغ، أيضا، في نفس العهد على «أن اليهود لا يقيمون وزنا للامتيازات والقوانين القديمة التي تمنعهم من العمل لدى المسيحيين». ويقول غراتز: أنه، في مدينة بوزن، كان يُسمح لليهود بالاشتغال ببعض المهن، كالخياطة مثلا، لكن بهدف إرضاء حاجاتهم فقط، لا حاجات المسيحيين».

يتراءى لي أننا أطلعنا، بهذه الطريقة، على مجمل السلسلة السببية التي تقودنا من البنية الاقتصادية الحالية للبروليتاريا اليهودية حتى أصولها. فهي مكتملة، لأنها ترجعنا إلى موضوع اجتماعي ذي أهمية أكثر شمولا، سبق التعرض له، إلا وهو الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية لليهود في عصر ما قبل الرأسمالية.

[143]- هنري بيرن: الديموقراطيات القديمة في هولندا.

الفصل السادس

الاتجاهات المتناقضة للمشكلة اليهودية في فترة صعود الرأسمالية

أفسحت الثورة الفرنسية المجال أمام إتمام نتائج التطور الاقتصادي والاجتماعي لليهودية في أوروبا الغربية، وعجَّل نمو الرأسمالية الصناعية بدخول اليهود إلى صفوف البرجوازية وفي استيعابهم الثقافي. ففي كل مكان، كانت مسيرة جيوش نابليون الظافرة تشير إلى التحرر اليهودي. وقد عبرت السياسية النابليونية عن إرادة المجتمع البرجوازية في استيعاب اليهود بشكل كامل، غير أن صعوبات جمة اعترضت سبيل التحرر هذا في المناطق التي بقيت واقعة تحت هيمنة النظام الإقطاعي. هكذا، بعكس يهود مدينة بوردو الذين اندمجوا تماما في الطبقة البرجوازية، لم يختلف يهود الالزاس، بشيء تقريبا، عن أسلافهم في العصور الوسطى. وأدت الفتن الفلاحية الموجهة ضد الربا اليهودي إلى إجبار نابليون على سن قوانين استثنائية ليهود الالزاس. وأثبتت القوانين القضائية البرجوازية عدم جدواها في حالة المجتمع الإقطاعي. وكان الأمر على نمط ذلك النحو في بولونيا، حيث أجل تطبيق التساوي الشكلي لجميع المواطنين أمام القانون، -الذي أدخله نابليون- بالنسبة لليهود «لمدة عشر سنين»- وقد قيل ذلك لإنقاذ المظاهر.

ومن الضروري أن نضيف أن القسم الأكبر من اليهود البولونيين، الخاضعين لسيطرة حاخامين متعصبين، رفض التحرر من اليهودية بشدة. وباستثناء فئة من البرجوازيين الأثرياء، فإن اليهود البولونيين لم يشعروا مطلقا بضرورة المساواة في الحقوق المدنية.

غير أن اليهودية الغربية دخلت بشكل عام، وابتداء من القرن التاسع عشر، في طريق الاندماج التام. ففي نهاية القرن الثامن عشر، وخلال ثلاثين سنة، تحول نصف يهود برلين إلى المسيحية. أما الذين بقوا أمناء للدين اليهودي، فقد دفعوا عن أنفسهم تهمة تشكيل أمة متميزة. وكان «ريسر»، أحد ممثلي اليهود الألمان، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، يقول: «بدون وطن ودولة ولغة ليس ثمة من أمة، ولهذا فإن اليهودية قد كفت، منذ زمن طويل، عن تشكيل أمة». وكتب أستاذ يهودي من برلين، عام 1879 قائلا: «نحن ألمان، ألمان فقط، فيما يختص بالقومية».

بينما كانت الرأسمالية تساعد على استيعاب اليهود في أوروبا الغربية، كانت تقتلعهم من مراكزهم الاقتصادية التقليدية في أوروبا الشرقية. ففي تسببها بتدفق اليهود نحو الغرب باليد اليُسرى، كانت تدمر ما صنعته بيدها اليمنى.

كانت أمواج اليهود الشرقيين تتدفق باستمرار نحو البلدان الغربية، نافخة حياة جديدة في جسد اليهودية المهترئ. «تشكل جماهيرنا الشعبية الكبيرة في الشرق، التي لا تزال تعيش في جو من التقاليد اليهودية، عائقا أمام اضمحلال اليهودية الغربية». «إن اليهودية الغربية ليست سوى انعكاس لليهودية الشرقية»[144].

ويكفينا التذكير بأنه لم يكن في فيينا، مع بداية القرن التاسع عشر، سوى بضع مئات من اليهود، وأن هذا الرقم قد بلغ 176000 في بداية القرن العشرين، لكي نفهم مدى أهمية الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية.

وسارت هجرة اليهود الجماعية نحو أوروبا الغربية، وخاصة نحو أمريكا، متوازية مع التحول التام في البنية الإقليمية لليهودية. ونحن نعلم بأن تطور الرأسمالية قد رافق الاتساع الهائل للتجمعات المدنية. فابتداء من أواسط القرن التاسع عشر، أصبحت مراكز الحياة التجارية والصناعية الكبيرة قطبا ضخما لاجتذاب اليهود.

وكان تجمع الجماهير اليهودية في المدن الكبرى محسوسا بنفس القدر في البلاد التي هاجروا إليها مثلما كان في المناطق التي أتوا منها. فقد ترك اليهود، بمجموعات كبيرة، المدن الصغيرة التي كانت مركز حياتهم الاقتصادية خلال قرون طويلة، وتدفقوا نحو المدن التجارية والصناعية، في بولونيا وروسيا، أو نحو المدن الكبرى من العالم الغربي، أي فيينا ولندن وباريس ونيويورك. «كانت غالبية اليهود، حتى أواسط القرن التاسع عشر، متمركزة في أوروبا الشرقية. وبسبب قلة وسائل النقل، حافظت المدن الصغيرة على أهميتها الاقتصادية بالنسبة للتجار. وفي خلال هذه المدة، سكن اليهود في المدن الصغيرة بشكل خاص (والقرى أيضا). وبعد دراسة إحصائية أجريت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في مقاطعات كييف وبولهينيا وبودوليا البولونية، تبين أن هناك كمعدل متوسط، سبعة سكان يهود في كل قرية، مما يعني عائلة واحدة. وكان ثمة قرى عديدة ومدن قليلة جدا. ففي

---

[144] -ج.كلاتزكن: قضايا اليهودية الحديثة J.Klatzkin 1930.

غاليسيا الشرقية كان 27 بالمئة من السكان اليهود يقطنون القرى، وتصل هذه النسبة إلى 43 بالمئة في غاليسيا الغربية. وسادت ظروف مشابهة في بعض الدول الألمانية، كهسّ وبادن مثلا»[145].

وتعرضت هذه الأحوال لتغيير رئيسي في القرن التاسع عشر، فتجمعت جماهير عديدة من اليهود في المدن الكبرى والمهمة من العالم.

ففي روسيا، تضاعف عدد السكان اليهود في التجمعات التي تزيد على العشرة آلاف نسمة، وذلك بين أعوام 1847 و1926، ثماني مرات. وفي عام 1847، لم يكن هناك سوى ثلاث تجمعات يهودية تزيد عن عشرة آلاف نسمة، في أنحاء الإمبراطورية الروسية، بينما بلغ هذا العدد ثمانية وعشرين عام 1897 وثمانية وثلاثين عام 1926 (على الأراضي القديمة لروسيا المقدسة).

وكانت النسبة المئوية لليهود الروس القاطنين في هذه التجمعات الكبيرة، كالآتي:

1847	5 بالمئة
1897	28,2 بالمئة
1926	50,2 بالمئة

وأما الأرقام العائدة لألمانيا فهي كما يلي:

1850	6 بالمئة
1880	32 بالمئة
1900	61,3 بالمئة

في وقتنا الحاضر، يعيش أكثر من ثلاثة أرباع اليهود الأمريكيون في تجمعات تزيد على العشرة آلاف نسمة. فالتحشدات اليهودية الهائلة في نيويورك (مليونان) وفرصوفيا (300000 إلى 500000) وباريس، ولندن، الخ، تشهد بأن اليهود أصبحوا «أكثر شعوب العالم تمركزا في المدن». ويشكل تمركز الجماهير اليهودية في المدن الكبرى، بدون ريب، أهم حدث في حياة اليهود في العصر الرأسمالي الحديث.

لقد بحثنا، فيما سبق، الفارق بين الهجرة اليهودية، حتى عام 1880 والهجرة التي تلت هذا التاريخ. فحتى عام 1880 قدمت الدول لليهود الذين يقطنون بلادها، إمكانيات واسعة للاندماج في الاقتصاد الرأسمالي، مما جعل الهجرة داخلية بشكل رئيسي. وتوالت الأحداث، بعد تلك الفترة، فدمر الاقتصاد الإقطاعي بضربات كبيرة، ودمرت معه الفروع الرأسمالية الحرفية، حيث يشكل اليهود نسبة مرتفعة، مما حداهم إلى مغادرة بلادهم الأصلية بأعداد كبيرة.

وبين أعوام 1800 و1880 ارتفع عدد اليهود في الولايات المتحدة -المحطة الرئيسية للمهجرين اليهود- من بضعة آلاف إلى 230000، مما يشير إلى أن معدل الهجرة قد بلغ 2000 مهجرا سنويا، وبين أعوام 1881 و1899 بلغ المعدل السنوي للهجرة 30000 وبلغ 100000 بين أعوام 1900 و1914. وإذا أضفنا على ذلك الهجرة نحو بلاد ما وراء البحار (كندا، إنكلترا، أفريقيا الجنوبية، فلسطين الخ) والهجرة نحو أوروبا الغربية، فإن الهجرة العامة من أوروبا الشرقية تقدر بين أعوام 1800 و1880 بحوالي 250000 مهاجر، أي بمعدل سنوي قدره 3000 مهاجر، وبمليون مهاجر فيما بين 1881-1899 أي بمعدل سنوي قدره 50000 مهاجر، وبمليونين بين الفترة 1900-1914 أي بمعدل 135000 مهاجر في السنة. ويضع هذا الرقم يهود الشرق في المصاف الأولى بين الشعوب المهاجرة.

وكان عدد اليهود في روسيا وغاليسيا ورومانيا، حوالي أواسط الفترة الممتدة من 1881-1914، ستة ملايين ونصف يهودي. وبالمقارنة مع هذا الرقم فإن عدد المهاجرين قد بلغ نحوا من 50 بالمئة. وبالمقابل فإن الإيطاليين الذين يزودون أوروبا بأكبر عدد من المهاجرين لم تبلغ نسبة الهجرة لديهم سوى 15 بالمئة، بعد حذف نسبة العائدين التي كانت متدنية عند اليهود ومرتفعة عند الإيطاليين.

---

[145]- روبِّين: المرجع السابق.

وساهمت معدلات الولادة، المرتفعة عند اليهود، في تعزيز هذه الهجرة الكبيرة. وقد ارتفع عددهم في العالم على الشكل التالي:

عام 1825	3281000
عام 1850	4764500
عام 1880	7663000
عام 1900	10602500

بين أعوام 1825 و1925، تضاعف عدد اليهود خمس مرات، فتكون زيادته أكثر بمرة ونصف المرة من الزيادة الحاصلة لدى شعوب أوروبا.

«لا شك في أن عدد اليهود يتجاوز ثمانية عشر مليونا في وقتنا الحاضر. وبالرغم من أعداد المهجرين الكبيرة، من المهم أن نلاحظ أن عددهم في أوروبا الشرقية لم يتدنّ، بل ازداد كثيرا». «لقد بلغ عدد المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية، خلال الثلاثين سنة الأخيرة، حوالي الأربعة ملايين شخص، وبالرغم من ذلك، لم يتناقص عددهم في أوروبا الشرقية، بل ازداد بنسبة كبيرة، فقفز من ستة إلى ثمانية ملايين»[146].

وساهمت الهجرة في التمايز الاجتماعي لليهود، وقد تسارع هذا التمايز في خلال القرن التاسع عشر.

ففي بداية عصر الرأسمالية، كان 90 بالمئة من اليهود، على الأقل، وسطاء وتجارا، وفي القرن العشرين نرى أن هناك حوالي مليونين ونصف المليون بروليتاري يهودي في أمريكا، يشكلون نسبة قدرها 40 بالمئة من جميع اليهود الذين يبذلون نشاطا اقتصاديا. وكانت النسبة المئوية من الموظفين والعمال كالآتي:

في إنكلترا	77 بالمئة -1923-
في الولايات المتحدة	75 بالمئة -1920-
في بلجيكا	73 بالمئة -1910-
في ألمانيا	62 بالمئة -1907-
في فرنسا	48 بالمئة -1906-
في بولونيا	24,8 بالمئة -1921-
في روسيا	15 بالمئة -1925-

ويشير الجدول التالي إلى تقسيم اليهود المهني في عام 1932:

التجارة (بما فيها النقليات والتسلية والمصارف)	6100000	38,6 بالمئة
الصناعة (بما فيها المناجم والحرف)	5750000	36,4 بالمئة
المهن الحرة والإدارة	1000000	6,3 بالمئة
الزراعة	625000	4 بالمئة
العمال المياومون والخدمة المنزلية	325000	2 بالمئة
لا مهن لهم (ملاكين، المتقاعدين والذين يتلقون مساعدة)	2000000	12,7 بالمئة
المجموع	15800000	100 بالمئة

وبلغ عدد العمال اليهود –المتدني نسبيا في البلدان المتخلفة، كبولونيا حيث لم يكن يتعدى 25 بالمئة من مجموع الأشخاص الناشطين اقتصاديا –نسبة 46 بالمئة في أمريكا. وكانت بنية الطبقة العاملة اليهودية المهنية ما تزال تختلف كثيرا عن بنية بروليتاريا الشعوب الأخرى، فيشكل المستخدمون، نسبا تتراوح بين 30 و60 بالمئة من مجموع الأجراء اليهود، مما يعني معدلا أكثر ارتفاعا بثلاث أو أربع مرات مما هو عليه لدى الأمم الأخرى. ويشكل العمال الزراعيون، الشبه مفقودين عند اليهود، نسبة تتراوح من 15 إلى 25

[146]-الاقتصاد اليهودي (فيلنو) كانون الثاني-شباط 1938.

بالمئة من العمال غير اليهود. وفي الحقيقة، إن 60-70 بالمئة من اليهود المستخدمين في الصناعة هم من العمال الحرفيين (في أوروبا الشرقية يعمل 80 بالمئة من البروليتاريا، في الورش، لا في المصانع) بينما تتراوح نسبة عمال المصانع لدى الأمم الأخرى، بين 75 و80 بالمئة.

وأخيرا فإن العمال اليهود يستخدمون، بشكل رئيسي، في فروع وسائل الاستهلاك. ولا يشكل العمال غير اليهود، في نفس الفروع، إلا نسبة مئوية ضئيلة من البروليتاريا.

وبالإحصاءات المقارنة عن التقسيم المهني للعمال اليهود و«الآريين»، نستطيع التأكد، بشكل أفضل، من هذه الظاهرة.

في بعض البلدان الأوروبية	يهود	غير يهود
ملبوسات	43,7 بالمئة	8,5 بالمئة
مواد غذائية	11 بالمئة	9,5 بالمئة
جلود	10,5 بالمئة	1,7 بالمئة
تعدين	8,6 بالمئة	19,9 بالمئة
أخشاب	7,9 بالمئة	6,9 بالمئة
نسيج	6,8 بالمئة	12 بالمئة
بناء	4,2 بالمئة	15,2 بالمئة
طباعة-ورق	3,2 بالمئة	3,2 بالمئة
متنوعات	3,8 بالمئة	22,1 بالمئة

وفي بولونيا (عام 1937):

	عمال يهود	عمال غير يهود
حرف	58,7 بالمئة	33,2 بالمئة
تجارة ونقليات	18,8 بالمئة	12,5 بالمئة
أعمال منزلية	9,7 بالمئة	1,9 بالمئة
صناعات صغيرة	8,9 بالمئة	9,6 بالمئة
صناعات متوسطة وكبيرة	3,8 بالمئة	23 بالمئة
مناجم	0,44 بالمئة	8,4 بالمئة
كهرباء، ماء، سكك حديد	0,3 بالمئة	8,9 بالمئة
مسابك	-	2,3 بالمئة

تشير هذه الإحصائيات، بصورة واضحة، خلافا للعمال «غير اليهود»، المتمركزين خاصة في الصناعة الثقيلة، إلى أن العمال اليهود يستخدمون خاصة في الأعمال الحرفية. ويبلغ عدد العمال اليهود في صناعة الملبوسات خمسة أضعاف العدد من غير اليهود، بينما نرى أن العمال من غير اليهود في صناعات التعدين والنسيج والبناء يفوقون عدد العمال اليهود بمرتين أو ثلاث مرات.

وبرغم الاختلاف الكبير في البنية المهنية بين الطبقة العاملة اليهودية وغير اليهودية، فإن البؤس قد دفع العمال اليهود إلى الدخول، بصورة متزايدة، وبالرغم من كل العوائق، في المهن التي لم يطرقوها من قبل.

ومنذ بضع عشرات السنين، رد صناعي كبير، من مدينة لودز، على سؤال صحفي يتعلق بمنع دخول العمال اليهود إلى فباركه، قائلا: «لا أريد ألفي شريك في مؤسستي». لكن 15 بالمئة من العمال اليهود كانوا خلف الآلات قبل الحرب الأخيرة.

لقد خضعت اليهودية إذن لتحول مهم للغاية، في العصر الرأسمالي، إذ تمايز الشعب-الطبقة اجتماعيا، وترافق ذلك التطور السريع مع اتجاهات متعددة ومتناقضة، لم تسمح بتبلور شكل مستقر لليهودية في عصرنا. فمن الأسهل بكثير التحدث عما كانت عليه اليهودية من محاولة تحديد ما هي عليه الآن.

ودفع تطور الرأسمالية بالمسألة اليهودية في اتجاهات متناقضة تماما. فمن جهة، ساعدت الرأسمالية على الاستيعاب الاقتصادي، وبالتالي الاستيعاب الثقافي، ومن جهة أخرى، فإن الرأسمالية، باقتلاعها الجماهير اليهودية من مراكزها الاجتماعية التقليدية وحشر تلك الجماهير في المدن وإثارة النعرات اللاسامية، ساعدت على نمو القومية عند اليهود. وترافقت «نهضة القومية اليهودية» وتكوين الثقافة اليهودية الحديثة ونشأة اللغة الأدشية والصهيونية، مع تطور الهجرة وتجمع الجماهير اليهودية في المدن، وسار ذلك موازيا لنمو اللاسامية الحديثة.

ففي جميع أنحاء العالم، وعلى جميع طرقات المنفى، كوّنت الجماهير اليهودية، المحتشدة في أحياء مميزة، مراكزها الثقافية الخاصة وصحفها ومدارسها الأدشية. ومن الطبيعي أن الحركة القومية بلغت ذروتها في البلدان التي تحتوي على أكبر التجمعات اليهودية، أي روسيا وبولونيا والولايات المتحدة. غير أن التاريخ يتطور بصورة ديالكتيكية. ففي نفس الوقت الذي تشكلت فيه قواعد قومية يهودية جديدة، ولدت أيضا ظروف زوالها. وبينما بقيت الأجيال اليهودية في بلدان الهجرة متعلقة بيهوديتها بشدة، فقدت الأجيال الجديدة بسرعة عاداتها ولغتها الخاصة.

«حافظ اليهود المهاجرون من أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية وأمريكا، الخ، على الأدشية، على الأقل الرعيل الأول منهم، بالرغم من أن كلمات إنكليزية عدة أدخلت إليها، مما جعلها تختلف كثيرا عن الأدشية البولونية أو الليثوانية، أما الرعيل الثاني فقد تكلم الأدشية واللغة المحلية، ونسيها الرعيل الثالث. وشهدت الصحافة الأدشية تطورا كبيرا في الولايات المتحدة الأمريكية، خلال الخمسين سنة الأخيرة بعد وصول مليوني يهودي من أوروبا الشرقية لا يتكلمون الإنكليزية، غير أن النجاح الذي عرفته الصحافة الأدشية ما لبث أن تدنى في السنوات الأخيرة بعد انقطاع سبل المهاجرين «وتأمرك» الجيل الجديد بسرعة»[147].

وتشير إحصائيات رسمية، عن عام 1920، أن اللغة الأدشية هي اللغة الأم لـ 32 بالمئة من اليهود الأمريكيين. وفي عام 1930، تدنت هذه النسبة إلى 27,8 بالمئة. واختفت الأدشية، بصورة تامة تقريبا، في هنغاريا. ففي إحصاء اجري عام 1920، أعلن 95,2 بالمئة من اليهود أن اللغة المجرية هي لغتهم الأم، وقال 4 بالمئة أنها الألمانية و0,8 بالمئة، أنها لغات أخرى.

وفي العالم أجمع، كان 60,6 بالمئة من اليهود يتكلمون الأدشية، عام 1900 وفي عام 1930 انخفضت هذه النسبة إلى 42,7 بالمئة.

وفي الوقت الذي انخفض فيه استعمال الأدشية، حصل ارتفاع كبير في عدد الزيجات المختلطة التي كانت تتكاثر، تبعا لتقدم كل بلد. ففي بوهيميا، شكل اليهود جزءا من الزيجات المختلطة بلغت 44,7 بالمئة من المجموع العام، بينما كانت هذه النسبة شبه معدومة في روسيا وجنوبي الكربات وسلوفاكيا.

وفيما يلي إحصاء عن النسبة المئوية للزيجات المختلطة بين اليهود وغير اليهود، من مجموع الزيجات اليهودية:

برلين: من 1901 إلى 1904	35,4
إلى 1905	44,4
همبورغ: من 1903 إلى 1905	49,5
تريستا: من 1900 إلى 1903	61,5
كوبنهاغن: من 1800 إلى 1889	55,8
1890 إلى 1899	68,7
1900 إلى 1905	82,9 [148]

ونلاحظ أيضا تزايدا في عدد المرتدين عن الدين اليهودي، إذ بلغ هذا العدد في فيينا، عام 1870، 0,4 بالمئة وقفز إلى 4,7 بالمئة بين أعوام 1921-1922، غير أن الضعف العام، الذي أصاب الأديان، ينقص كثيرا من أهمية هذا الدليل. ومن هنا، نستنسخ مدى ضعف القواعد التي بنيت عليها «النهضة القومية اليهودية». فالهجرة، التي شكلت في البداية عائقا مهما أمام الاندماج وعاملا من عوامل «القومية اليهودية»، قد تحولت سريعا إلى أداة ذوبان اليهود في الشعوب الأخرى. ولم يكن باستطاعة تمركز اليهود في

[147]-روبّين: المرجع السابق.
[148]-روبين: المرجع السابق -«إن الأرقام التي يعطيها روبين في مرجعه هذا، عن الزيجات المختلطة، مختلفة جدا: ملاحظة من الناشرين».

المدن الكبرى، الذي تحول إلى «قاعدة مكانية» للقومية اليهودية، أن يمنع طويلا عملية الاستيعاب. وقد شكل جو المدن الكبيرة أتونا ملتهبا، ذابت فيه بسرعة جميع الفوارق القومية.

وإذا كانت الرأسمالية قد ساهمت، منذ البدء، في خلق ظروف «نهضة قومية» يهودية، وذلك باقتلاع ملايين اليهود من جذورهم وانتزاعهم من مراكزهم الاقتصادية التقليدية وتكديسهم في المدن الكبيرة، فقد ساهمت بعد ذلك في تسريع عملية الاستيعاب. فتبع نمو الأدشية، مثلا انهيارها السريع. وأدى التطور الرأسمالي، وإن بطرق غير متوقعة أحيانا، إلى اندماج اليهود في الشعوب الأخرى. غير أنه، مع بداية القرن العشرين، بدأت تظهر بشكل قاطع علامات تحلل النظام الرأسمالي. وعادت المسألة اليهودية، التي بدأ أنها تتطور بشكل طبيعي في القرن التاسع عشر، إلى الوثوب بحدة مضاعفة، نتيجة لانحطاط الرأسمالية. ويبدو الآن حل المسألة اليهودية أبعد من أي وقت مضى.

الفصل السابع

انحطاط الرأسمالية والمأساة اليهودية في القرن العشرين

تكمن الحسنة الرئيسية للنظام الرأسمالي في الدفعة الهائلة التي أعطاها للقوى المنتجة وفي خلقه للاقتصاد العالمي وفي التقدم المعدوم المثيل الذي أتاحه للتقنية والعلوم وبإبداله الركود المسيطر على العالم الإقطاعي «بديناميكية» لا مثيل لها. واستيقظ مئات الملايين من البشر، ممن كانوا يعيشون حياة رتيبة لا آفاق لها، ليروا أنفسهم ينجرفون فجأة في حياة قلقة ومتوترة.

كان اليهود يعيشون، كما رأينا، في مسام المجتمع الإقطاعي. وعندما أخذ هذا الصرح بالتهاوي، ابتدأ بلفظ هذه العناصر الغريبة والضرورية معا. فقبل أن ينتقل الفلاح من القرية إلى المركز الصناعي، كان اليهود قد غادروا مدن العصور الوسطى الصغيرة إلى مدن العالم الكبيرة. وترافق تدمير الوظيفة التقليدية لليهود في المجتمع الإقطاعي مع دخولهم السلبي في المجتمع الرأسمالي.

لكن لا يمكن للإنسانية، التي حققت لها الرأسمالية إنجازات ضخمة، أن تتمتع بتلك الإنجازات، إلا بزوال الرأسمالية. فالاشتراكية وحدها قادرة على رفع الإنسانية إلى مستوى المرتكزات المادية للحضارة. وباستمرار النظام الرأسمالي، تأخذ جميع الإنجازات الضخمة، أكثر فأكثر، بالارتداد ضد مصالح الإنسانية الأكثر إلحاحا.

ويتحول التقدم في العلم والتقنية إلى تقدم في علم وتقنية الموت. ولا يعدو تطور وسائل الإنتاج أن يكون تطويرا لوسائل الدمار. فالعالم الذي أصبح يضيق بآلة الإنتاج التي بنتها الرأسمالية، يتضاءل أيضا بسبب الجهود اليائسة التي تبذلها كل إمبريالية في تنافسها على توسيع مناطق نفوذها. وتحاول الرأسمالية، السائرة نحو الانهيار، أن تتخلص من التصدير المفرط الذي يشكل ظاهرة ملازمة لنمط الإنتاج الرأسمالي، أي أنها تزيد إلى مساوئها المساوئ التي ترافق زوالها.

إن حواجز جبارة تعرقل تنقُّل البضائع والناس وتنتصب عقبات، لا يمكن اجتيازها، أمام الجماهير المحرومة من الخبز والعمل، نتيجة لانهيار العالم الإقطاعي التقليدي. ولم يؤد تعفن النظام الرأسمالي فقط إلى الإسراع في انحلال المجتمع الإقطاعي، لكنه ضاعف مئات المرات الآلام الناتجة عن ذلك. وعندما يصل المبشرون بالمدنية إلى طريق مسدود، يقطعون الطريق على الذين يريدون التمدن. ويقع هؤلاء في مأزق. فهم من ناحية، لا يستطيعون التمدن، كما لا يستطيعون أبدا البقاء في الحالة الهمجية. وتغلق الرأسمالية طريق المستقبل أمام الشعوب التي هُدمت قواعدها التقليدية في العيش، بعد أن تكون قد سدت عنها طرق الماضي.

بهذه الظواهر العامة ترتبط مأساة اليهود في القرن العشرين. ويفسر وضع اليهود المأساوي للغاية، في عصرنا، بوضعهم الاجتماعي والاقتصادي المتزعزع. فبعد أن كانوا أول من أبعد، في فترة انهيار النظام الإقطاعي، لاقوا المصير نفسه لدى بداية احتضار النظام الرأسمالي، فوجدت الجماهير اليهودية نفسها مسحوقة بين سندان الإقطاعية المنهارة ومطرقة الرأسمالية المهترئة.

أ- في أوروبا الشرقية

يفسر التشابك بين انهيار الأشكال الإقطاعية القديمة وانحلال الرأسمالية وضع اليهودية في أوروبا الشرقية كامل التفسير. فقد أدى التمايز الاجتماعي الحاصل في الأرياف، نتيجة لتغلغل النظام الرأسمالي، إلى تدفق من أثرى من الفلاحين، ومن سقط منهم إلى صفوف البروليتاريا، إلى المدن الصغيرة: الأولون بقصد تشغيل رساميلهم والآخرون لبيع قوة عملهم، لكن إمكانية تشغيل الرساميل قليلة، كإمكانية العمل. فما أن وُلد النظام الرأسمالي حتى ظهرت عليه أعراض الشيخوخة. وتجلى انهيار الرأسمالية في الأزمات والبطالة داخل بلدان أوروبا الشرقية، وإغلاق كافة المنافذ أمام الهجرة عبر الحدود وبقي نحو سبعة إلى ثمانية ملايين فلاح بدون أرض وبدون عمل تقريبا في بولونيا «المستقلة». ولكونهم بين نارين، أصبح اليهود هدفا لعداء البرجوازية الصغيرة ولعداء الفلاحين الذين أرادوا بناء مركز على حسابهم. «لقد أصبحت مراكز اليهود مهددة بشكل خاص من قبل برجوازية المدن البولونية والفلاحين الأغنياء الذين يريدون حل الصعوبات التي تعترضهم، عن طريق نزعة قومية اقتصادية وحشية، بينما تبحث الطبقة العاملة البولونية، التي تعاني من البطالة الدائمة، عن علاج، وفقا لطريقتها، أي التحرر الاقتصادي والسياسي، لا في

منافسة عقيمة ودامية». وتشكلت بسرعة طبقة تجارية من غير اليهود في المناطق التي تطور فيها النظام الرأسمالي أكثر من غيره، حيث كان الكفاح اللاسامي على أشده. «حدث الانخفاض الكبير في عدد الحوانيت في الإقطاعيات الوسطى، أي في منطقة يسكنها البولونيون فقط، ويتمتع الفلاحون فيها بمستوى معيشة أرفع نسبيا، وحيث الصناعة أكثر تطورا، مما يشكل عوامل مهمة في الوضع المادي والثقافي للقرية».

وبينما كان 72 بالمئة من مجموع المخازن في القرى بين أيدي اليهود عام 1914، تدني هذا المعدل إلى 34 بالمئة عام 1935، أي إلى أقل من النصف. وكان وضع اليهود أفضل في المناطق الأقل تطورا. ويقول ليبوفسكي أن «حصة اليهود في التجارة أهم بكثير في الإقطاعيات الأكثر تخلفا». «وتشكل الأراضي الشرقية التابعة للروس البيض المنطقة الأكثر تخلفا في بولونيا، من النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية. وفي هذه المناطق، ازدادت إلى الثلث الغالبية المطلقة التي يتمتع بها التجار اليهود». وفي عام 1938، كانت 82.6 بالمئة من المخازن الواقعة في المناطق المتخلفة من بولونيا بين أيدي اليهود.

وتدل هذه الوقائع، مرة أخرى، على أن تهديم الإقطاعية هو في أساس المسألة اليهودية بأوروبا الشرقية. فكلما كانت منطقة ما متخلفة، تمكن اليهود بسهولة أكبر من المحافظة على مراكزهم التقليدية. غير أن انحطاط الرأسمالية العام، يجعل حل المسألة اليهودية مستحيلا. وأدت البطالة والأزمات المتتالية إلى استحالة انتقال اليهود إلى مهن أخرى وإلى ازدحام ضار في المهن التي يمارسونها وزادت، باستمرار، من عنف اللاسامية! وبذلت حكومات أثرياء المزارعين والرأسماليين الكبار وسعها في تنظيم التيار المعادي لليهود وتحويل الجماهير بذلك عن عدوها الطبقي الحقيقي. وأصبح حل المسألة اليهودية، لدى هذه الحكومات، مرادفا لحل المسألة الاجتماعية. ومن أجل إفساح المجال (للقوى القومية)، شنت الدولة صراعا منظما من أجل «إزالة الصفة اليهودية» عن المهن كافة. وتنوعت الوسائل المتبعة من أجل «بَولنة» التجارة في بولونيا: فمن مقاطعة متاجر اليهود بواسطة الدعاية، إلى المجازر والحرائق. وهاكم، على سبيل المثال، «إعلان النصر» الذي نشر عام 1936، في الصحيفة الحكومية «ايلو شروفاني تورجر غودزيني»: خلالا الشهور الأولى من هذه السنة، أصبح لدينا 160 مركزا تجاريا يهوديا في دائرة رادوم. وفي برزيتيك وحدها (مدينة المجازر المشهورة) اشترى البولونيون خمسين مؤسسة تجارية. وفي المجموع، بلغت الزيادة في عدد مراكز التجارة البولونية في مختلف الدوائر 2500 مركزا.

ولم تلق الحرفة اليهودية مصيرا أفضل على يد الحكومات البولونية، فساهمت المقاطعة والضرائب الباهضة والامتحانات باللغة البولونية (ألوف من الحرفيين اليهود لا يعرفونها) في القضاء على الحرفيين اليهود. ولكونها محرومة من تعويض البطالة، فإن البروليتاريا الحرفية هي الفئة الأكثر حرمانا. أما رواتب العمال اليهود فهي متدنية جدا، وظروف العيش لا تطاق (يمتد يوم العمل حتى 18 ساعة).

وشكلت الجامعات أرضا خصبة للصراع اللاسامي. فقد عملت البرجوازية البولونية وسعها لمنع اليهود من التوصل إلى المهن الثقافية وأصبحت الجامعات البولونية مركزا حقيقيا للمجازر والطرد، الخ. وحتى قبل نجوم داوود التي أدخلها هتلر، أدخلت البرجوازية البولونية مقاعد «الغيتو» إلى الجامعات، وأدت الإجراءات «الشرعية»، الأقل ظهورا والأكثر فعالية، إلى حرمان الشبيبة اليهودية، التي ساهمت ظروف حياتها السالفة في تطوير ملكاتها الثقافية، من دخول الجامعات. وانخفضت النسبة المئوية للطلاب اليهود في بولونيا من 24.5 بالمئة بين أعوام 1923-1934 إلى 13.2 بالمئة بين أعوام 1933-1936.

وكانت سياسة إبعاد الطلاب اليهود نفسها سارية في ليثوانيا وهنغاريا. فقد انخفضت النسبة المئوية للطلاب اليهود في ليثوانيا من 15.7 بالمئة عام 1920 إلى 8.5 بالمئة عام 1931، وفي هنغاريا من 31.7 بالمئة عام 1918 إلى 10.5 بالمئة عام 1931. وبشكل عام، شابه وضع اليهود، في هنغاريا وفي خلال قرون طويلة، الوضع الذي عرفوه في بولونيا.

ففي بلد الإقطاعيين الكبار هذا، لعب اليهود، في خلال مدة طويلة من الزمن، دور الطبقة الوسيطة بين الأسياد والفلاحين. «يذكرنا أحد مراسلينا أنه، في نهاية القرن التاسع عشر، تعرض الكونت بالاغوي للطرد من المجمع الوطني للنبلاء المجريين في بودابست، لأنه أراد الاهتمام بنفسه بتصنيع منتوجات أرضه، وبالأخص تقطير الكحول المستخرجة من البطاطا والمشروبات الروحية. وقد سمح لنفسه أيضا بأن يهتم ببيعها». ولم تكن المهن الحرة بمنجى من هذه العقلية السائدة في أوساط الأرستقراطية الكبرى، كما في أوساط صغار النبلاء. وقبل سقوط الملكية المزدوجة، بقليل، عبّر إقطاعي هنغاري كبير، بازدراء شديد، عن امتعاضه من بعض النبلاء الذين يقومون (من أجل المال) بفحص حلاقيم أناس لا يعرفونهم. وكنتيجة طبيعة لهذه الأحوال، شكل اليهود، وخاصة في المدن، طبقة وسيطة بين الفلاحين والنبلاء. وكان الشعب ينظر إلى التجارة، والصغيرة منها بشكل خاص، كشيء يهودي.

وإلى أيامنا هذه لا يزال الحانوت وكل ما يتعلق باستثماره، في نظر السكان المجريين، يهوديا، حتى ولو صار يشكل أداة لمحاربة اليهود اقتصاديا.

وهذه حكاية تبرز، بشكل صارخ، واقع هذا التفكير: «أرادت قروية أن تبعث ابنها لشراء بعض الحاجيات، وأرادت منه شراءها من التعاونية النصف مؤممة، «المانغيا»، وليس من حانوت يهودي، فقالت له: «اذهب يا بيستا عند اليهودي، ليس عند اليهودي الذي هو يهودي، بل إلى الحانوت الجديد».

وحدثت عملية إخراج اليهود من مراكزهم الاقتصادية في جميع أنحاء أوروبا الشرقية. ووصل وضع الجماهير اليهودية إلى مأزق لا مخرج منه: شبان انتُزعوا من طبقتهم لا يستطيعون الانخراط في الحياة الاقتصادية ويعيشون في بؤس أسود. وقبل الحرب العالمية الثانية، استنجد 40 بالمئة من السكان اليهود في بولونيا بالمؤسسات الخيرية. وانتشر السل بشكل رهيب. ولنعط الحديث إلى مراسلي الفرع الاقتصادي والإحصائي للمؤسسة العلمية اليهودية، المقيمين في المناطق، حيث يخنق اليأس وفقدان الأمل بمستقبل أفضل الشبيبة اليهودية. وهاكم ما كتبوه من «ميدزرزاس»: «إن وضع الشبيبة اليهودية صعب للغاية وبالأخص وضع أبناء التجار وبناتهم الذين لا عمل لهم، إذ أن أهلهم ليسوا بحاجة إلى مساعدة. وقد أصبح تأسيس مشاريع جديدة مستحيلا. فهناك خمسة وسبعون شابا، بالإضافة إلى مئة وخمسين شابة، تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثمانية والعشرين، لا أمل لهم في الاندماج في حياة البلد الاقتصادية». وفي مدينة سوجولوف -إقطاعية لودز-، لدينا لائحة أكثر تفصيلا، تعتبر عن خاصية المدن البولونية: «يعمل تقريبا 50 بالمئة من أبناء التجار اليهود إلى جانب آبائهم، لأنهم لا يجدون عملا آخر، و25 بالمئة يتعلمون مهنة ما، و25 بالمئة لا عمل لهم. ويبقى 70 بالمئة من أولاد الحرفيين في ورش آبائهم، مع العلم أن هؤلاء الآباء لا يعملون إلا قليلا ويمكنهم الاستغناء عن أية مساعدة، ويتعلم 10 بالمئة مهنا جديدة، وهناك 20 بالمئة ممن لا عمل لهم. ويسعى أولاد الحاخامين ومستخدمي الجمعيات اليهودية إلى تامين عيشهم عن طريق تعلم مهنة ما. وتتمنى غالبية الشبيبة الهجرة: 90 بالمئة يريدون الذهاب إلى فلسطين، وبسبب قلة أذونات السفر، تتضاءل الفرص المتاحة لهم، لكن، ما هم؟ إنهم مستعدون للذهاب إلى القطب الشمالي أو القطب الجنوبي، بشرط أن يتخلصوا من حالة الركود هذه. وتتوجه أعداد مطّردة من الشبيبة اليهودية نحو الأعمال الحرفية، بينما انخفضت أعدادهم في التجارة».

ب- في أوروبا الغربية

انعكس وضع اليهودية، الذي وصل إلى مأزق لا مخرج منه في أوروبا الشرقية نتيجة لتشابك انهيار الإقطاعية وتعفن الرأسمالية والذي خلق جوا خانقا وصراعات رهيبة، انعكس بشكل ما على الصعيد العالمي وأصبحت أوروبا الغربية والوسطى مسرحا مخيفا لصعود الموجة اللاسامية. فبينما أدى تدني الهجرة اليهودية، التي انخفض معدلها السنوي من 155000 بين سنوات 1901-1904 إلى 43657 بين سنوات 1926-1935، إلى ازدياد وضع يهود أوروبا الشرقية سوءا على سوء، حالت أزمة الرأسمالية العامة دون استيعاب البلدان الغربية لذلك العدد الضئيل من المهاجرين، وبلغت المسألة اليهودية حدة لا مثيل لها، ليس فقط في البلدان التي هاجر منها اليهود، بل أيضا في البلدان التي هاجروا إليها. وأدى وصول المهاجرين اليهود، بأعداد كبيرة، قبيل الحرب الإمبريالية الأولى، إلى خلق حركة لاسامية قوية بين صفوف الطبقات المتوسطة في بلدان عدة في غربي أوروبا ووسطها. ويكفينا أن نذكّر بالنجاحات الكبيرة التي حققها الحزب اللاسامي الاشتراكي-المسيحي، في فيينا، وقائده لوغر، وبصعود اللاسامية المتنامي في ألمانيا، وبقضية دريفوس. وظهرت اللاسامية، في أوضح صورها، في فيينا، أحد أكبر مراكز الهجرة اليهودية، قبيل الحرب الإمبريالية الأولى. فالبرجوازية الصغيرة، التي أُفقرت، نتيجة لتطور رأسمالية الاحتكارات والتي أخذت تنحدر إلى صفوف البروليتاريا، تضايقت من وصول العنصر اليهودي البرجوازي الصغير الحرفي تقليديا.

وبعد الحرب الإمبريالية الأولى تدفق إلى بلدان أوروبا الغربية والوسطى أي إلى ألمانيا والنمسا وفرنسا وبلجيكا، عشرات الألوف من المهاجرين اليهود المعدمين والمحرومين من جميع الموارد، قادمين من أوروبا الشرقية. ومكن الازدهار الظاهري الذي تلا الحرب هذه العناصر من الدخول في كافة الفروع التجارية والحرفية. وحتى المهاجرون اليهود الذين دخلوا المصانع، لم يمكثوا فيها طويلا.

وقد أثر ماضي اليهودي التجاري الطويل على الأجيال الجديدة وساعدت الظروف الاقتصادية الملائمة التي تلت الحرب على عملية خروج عدد كبير منهم من صفوف البروليتاريا، في أوروبا الغربية كما في الولايات المتحدة. وحافظ العمال اليهود، في

بلدان الهجرة، على بنيتهم الحرفية. فمن أصل 21083 عامل يهودي نقابي عام 1936، في باريس، كان 9253 منهم يعملون في المنزل.

وأدت الكارثة الاقتصادية لعام 1929 بالجماهير البرجوازية الصغيرة إلى مأزق لا مخرج منه واتخذ الازدحام في التجارة الصغيرة والحرف والمهن الفكرية نسبا غير مألوفة. وكان البرجوازي الصغير ينظر إلى منافسه اليهودي بكراهية زائدة، لأن مهارة هذا الأخير المهنية –الناتجة عن قرون من الممارسة- مكنته من اجتياز «الأوقات الصعبة»، بصورة أفضل. ولاقت اللاسامية آذانا صاغية في صفوف العمال الحرفيين الواقعين منذ أمد بعيد تحت تأثير سلطة البرجوازية الصغيرة.

إنه لمن الخطأ إذن أن يُحمَّل الرأسمال الكبير تبعة خلق اللاسامية، بل أن الرأسمال الكبير لم يقم بسوى الاستفادة من اللاسامية الموجودة لدى الجماهير البرجوازية الصغيرة. وقد استخدمها كمبدأ أساسي في الإيديولوجية الفاشية. وحاول الرأسمال الكبير، باستغلاله وهم «الرأسمالية اليهودية»، الاستفادة من الحقد الذي تكنه الجماهير لشعبية للرأسمالية. وكانت تكمن الإمكانية الحقيقية لإثارة قلاقل بوجه الرأسماليين اليهود في التضارب الموجود بين الرأسمال الاحتكاري والرأسمال المضارب التجاري الذي يشكل غالبية الرأسمال اليهودي. والجمهور يعرف عادة، بصورة أفضل نسبيا، فضائح الرأسمال المضارب-التجاري، وخاصة فضائح البورصة. وقد مكن ذلك الرأسمال الاحتكاري من توجيه حقد البرجوازية الصغيرة وقسم من العمال أنفسهم ضد «الرأسمالية اليهودية».

ج- العنصرية

«إن الإيديولوجية هي حاصل عملية ينجزها مدعي الفكر، بوعي، لكن بوعي خاطئ. وتبقى القوى المحركة الحقيقية التي تدفعه، مجهولة منه، وإلا لما كان ذلك حاصل عملية إيديولوجية. هكذا يتخيل مدعي الفكر قوى «محركة خاطئة أو ظاهرية» (من انجلز إلى مهرنغ، 14 تموز 1893). وقد حاولنا في جميع ما سبق فهم المركزات الحقيقية التي قامت عليها اللاسامية المعاصرة. ويكفينا أن نأخذ بعين الاعتبار الدور الذي لعبه، في تطور اللاسامية، مستند حقير من صنع الشرطة السرية لقيصر، مع «بروتوكولات حكماء صهيون»، لكي ندرك، أهمية «القوى المحركة» «الخاطئة أو الظاهرية» للاسامية. وتقوم الصحافة الهتلرية الآن بنفي أي دور للمنافسة البرجوازية الصغيرة الاقتصادية، وإخفاء السبب الحقيقي للاسامية في أوروبا الغربية. وعلى العكس من ذلك، فإن هتلر يستشهد دوما بأكثر إشارات «بروتوكولات حكماء صهيون» غرابة، أي «خطط سيطرة اليهودية العالمية على العالم». علينا إذن تحليل هذا العنصر الخرافي والإيديولوجي في اللاسامية.

يشكل الدين خير مثال على الإيديولوجية، إذ يجب البحث عن الدوافع المحركة الحقيقية في الميدان المتنوع الذي تشكله مصالح طبقة فعلية. غير أن دوافعه المحركة الظاهرية توجد في أكثر **«الأجواء سموا»**. ومع ذلك فإن الإله، الذي رمى الأرستقراطية الإنكليزية، وشارل الأول بمتعصبي كرمويل «الطهريين-البوريتان»-، لم يكن سوى رمز لمصالح الفلاحين والبرجوازيين الإنكليز، فكل ثورة دينية هي، في واقعها، ثورة اجتماعية.

ويشكل نمو القوى المنتجة الجامح، باصطدامه بحدود الاستهلاك الضيقة، القوى المحركة الحقيقية للإمبريالية أي «أعلى مرحلة من مراحل، الرأسمالية». وعلى الرغم من ذلك، فإن **العرق** هو الذي يبدو دافعها الظاهري، الأكثر تميزا. فالعنصرية هي إذن، في الدرجة الأولى، القناع الإيديولوجي للإمبريالية الحديثة. وليست «فكرة العرق المناضل من أجل مجاله الحيوي» سوى انعكاس لضرورة التوسع التي تميز الرأسمالية المالية أو رأسمالية الاحتكارات.

وإذا كان التناقض الأساسي في الرأسمالية، أي التناقض القائم بين الإنتاج والاستهلاك، يدفع البرجوازية الكبيرة إلى ضرورة الصراع من أجل اكتساب الأسواق الخارجية، فهو يجبر البرجوازية الصغرى على النضال من أجل توسيع السوق الداخلية. ويترافق النقص في المنافذ الخارجية لدى الرأسماليين الكبار، مع النقص في المنافذ الداخلية لدى الرأسماليين الصغار. وبينما تتصارع البرجوازية الكبيرة، بعنف، مع منافسيها على الأسواق الخارجية، تقاتل البرجوازية الصغيرة، بعنف لا يقل عن ذلك، مع منافسيها على الأسواق الداخلية. تترافق **العنصرية** الخارجية إذن مع **عنصرية** داخلية. وقد أدت زيادة حدة التناقضات الرأسمالية، في القرن العشرين، إلى استفحال مطرد **للعنصرية** الخارجية **والعنصرية** الداخلية.

لقد أدى الطابع التجاري والحرفي لليهودية، الذي ورثته من ماض تاريخي طويل، إلى جعلها العدو الأول للبرجوازية الصغيرة في الأسواق الداخلية. فطابع اليهودية البرجوازي الصغير هو الذي يجعلها مكروهة إذن إلى هذا الحد من البرجوازية الصغرى.

وإذا كان للماضي التاريخي لليهودية تأثير حاسم على تركيبها الاجتماعي الحالي، فله أيضا تأثيرات لا تقل أهمية على تصور الجماهير الشعبية لليهود. فبالنسبة لهذه الجماهير يبقى اليهودي الممثل التقليدي «لقوى المال».

إن لهذا العامل أهميته الكبرى، لأن البرجوازية الصغرى ليست فقط طبقة رأسمالية، مما يعني أنها تحمل بصورة مصغرة جميع الميول الرأسمالية، لكنها أيضا طبقة **معادية للرأسمالية**. فهي تملك وعيا قويا، وإن كان مبهما، عن الدور الذي يلعبه الرأسمال الكبير في إفقارها وتهديمها. لكن طابعها غير المتجانس ومركزها الوسطي لا يسمحان لها بفهم البنية الحقيقية للمجتمع، وكذلك الطابع الحقيقي للرأسمال الكبير. إنها عاجزة عن فهم الاتجاهات الحقيقية للتطور الاجتماعي، لأنها تشعر أن هذا التطور يحمل نهايتها. فهي تريد مقاومة الرأسمالية، مع احتفاظها بطابعها الرأسمالي، وتريد تهديم الطابع «السيئ» للرأسمالية، مما يعني الاتجاهات التي تهدمها، مع الحفاظ على الطابع «الحسن» للرأسمالية، الذي يمكنها من العيش والإثراء. لكن بما أنه لا توجد رأسمالية، تملك الميول «**الحسنة**»، بدون «**السيئة**» منها، تضطر البرجوازية الصغيرة إلى خلقها، حسب هواها. فليس من باب الصدفة، على الإطلاق، أن تكون البرجوازية الصغيرة قد اخترعت «**الرأسمالية المفرطة**» أي الانحراف «السيئ» في الرأسمالية وروحها الشريرة.

وليس من باب الصدفة أن يجهد مُنظروها –منذ أكثر من قرن، وبالأخص برودون- في محاربته «الرأسمالية المضاربة السيئة» والدفاع عن «**الرأسمالية المنتجة النافعة**». ولعل المحاولة التي قام بها المنظرون النازيون في التفريق بين «**الرأسمالي القومي المنتج**» و«**الرأسمالي الطفيلي اليهودي**»، هي المحاولة الأخيرة في هذا المضمار. **فالرأسمالية اليهودية** يمكنها أن تمثل، على الوجه الأفضل، خرافة **الرأسمالية** «**السيئة**». وفي الواقع، فإن مفهوم **الثراء اليهودي** قد رسخ بصلابة في عقلية الجماهير الشعبية، فكان من الكافي، وذلك بدعاية منسقة بطريقة فنية، إيقاظ وتجسيد صورة اليهودي المرابي الذي ناضلت ضده جماهير الفلاحين والبرجوازيين الصغار والنبلاء. وتتأثر البرجوازية الصغيرة وفئة العمال الواقعة تحت سيطرتها بسهولة بهذه الدعاية، وتحمل لواء العداء للرأسمالية اليهودية.

يعني نجاح العنصرية، تاريخيا، أن الرأسمالية توصلت إلى توجيه وعي الجماهير، المعادي للرأسمالية، نحو شكل سابق للرأسمالية، لم يبق منه سوى آثار محدودة. لكن هذه الآثار ما زالت على درجة من الأهمية، تسمح بإعطاء الخرافة طابعا واقعيا.

نرى إذن أن العنصرية مؤلفة من عناصر غير متجانسة، فهي تعبر عن إرادة الرأسمال الكبير التوسعية، وتعكس حقد البرجوازية الصغيرة الموجه ضد العناصر «الغريبة» في الأسواق الداخلية، وكذلك ميلوها المعادية للرأسمالية.

وتنطلق البرجوازية الصغيرة من مواقع رأسمالية في محاربتها للمنافس اليهودي، بينما تنطلق من مواقع معادية للرأسمالية في صراعها ضد الرأسمال اليهودي. وتحول العنصرية، أخيرا، صراع الجماهير المعادي للرأسمالية إلى صراع مع شكل سابق للرأسمالية، لم يبق منه سوى آثار.

لكن إذا كان التحليل العلمي يسمح بكشف عناصرها المكونة، فإن الإيديولوجية العنصرية لا بد أن تبدو مذهبا متجانسا تماما. فالعنصرية تهدف بالضبط إلى إذابة جميع الطبقات في أتون **تجمُّع عرقي** معاد لباقي **الأعراق**. وتجهد الخرافة العرقية في الظهور كوحدة تامة لا ترتبط بأصولها –التي تكون مختلفة- إلا برباط واه جدا، وتحاول دمج عناصرها المختلفة بصورة كاملة.

على هذا النحو، فإن العنصرية **الخارجية**- القناع الإيديولوجي للإمبريالية- لا تستلزم بالضرورة أخذ طابع معاد للسامية ولكن الضرورة التوفيقية تؤدي إلى تلبسها هذا الطابع في أغلب الأحوال. فالشعور المعادي للرأسمالية لدى الجماهير، الذي وُجِّه في البداية نحو اليهود، يُوجَّه بعد ذلك نحو العدو الخارجي الذي حل محل هؤلاء. وقد وجد «العرق الجرماني» نفسه مضطرا لمحاربة اليهودي –عدوه الرئيسي- تحت قناعاته المختلفة: سواء كانت البلشفية والليبرالية الداخلية، أم البلوتقراطية الانكلوسكسونية والبلشفية الخارجية.

يقول هتلر في «**كفاحي**» أنه من الضروري إظهار مختلف الأعداء تحت طابع موحد، وإلا برز خطر ناجم عن تفكير الجماهير في الفوارق الموجودة بين هؤلاء الأعداء. ولهذا السبب، فإن العنصرية هي خرافة وليست عقيدة، إنها تتطلب الإيمان، لكنها تخشى التفكير العقلي وتساهم اللاسامية، على أفضل وجه، في دمج مختلف عناصر العرقية.

وكما أنه يجب إذابة الطبقات المختلفة في **عرق واحد،** كذلك يجب أن يكون لهذا العرق عدو واحد: **اليهودية العالمية**. وتترافق خرافة العرق، بشكل ضروري بسالبها: عدو العرق، أي اليهودي. ويُبنى التجمع العرقي على كره اليهود الذي تكمن أصلب أسسه العرقية في المرحلة التي كان فيها اليهودي، بالواقع، جسما غريبا ومعاديا لجميع الطبقات. ومن سخرية التاريخ أن تنتصر الإيديولوجية اللاسامية، الأكثر «راديكالية»، في المرحلة التي كانت فيها اليهودية في طريق الاندماج الاقتصادي الاجتماعي. لكن هذه الظاهرة المتناقضة تبقى مفهومة جيدا، ككل المهازل التاريخية. ففي المرحلة التي كان اليهودي فيها غير قابل للاستيعاب والاندماج، وممثلا حقيقيا لرأس المال، لم يكن باستطاعة المجتمع الاستغناء عنه، وكان أمر تدميره غير وارد على الإطلاق.

أما الآن، فإن المجتمع الرأسمالي، الذي يقف على شفير الهاوية، يحاول إنقاذ نفسه ببعث اليهودي والحقد الموجه ضده. وقد اتخذ الاضطهاد اللاسامي تلك الحدة، لأن اليهود لم يلعبوا الدور الذي أوكل إليهم. فكون الرأسمالية اليهودية خرافة يجعل من السهل جدا التغلب عليها، لكن العنصرية بتغلبها على نقيضها، تهدم أيضا أسس وجودها الخاصة.

وكلما تلاشى شبح الرأسمالية اليهودية، ظهرت الحقيقة الرأسمالية بكل بشاعتها. وتبرز التناقضات الاجتماعية، التي سترها لفترة قصيرة، غيوم النشوة العرقية في حدتها التامة، وتبدو الخرافة، على المدى الطويل، عاجزة أمام الحقيقة.

وبالرغم من تجانسها الظاهري، يظهر تطور العنصرية بوضوح، التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحاول جاهدة إخفاءها. وفي البدء يضطر الرأسمال الكبير إلى القضاء على عدوه الداخلي أي البروليتاريا، من أجل تجهيز السلاح الضروري اللازم في سبيل **مجاله الحيوي** والحرب الإمبريالية. وتقدم البرجوازية الصغيرة وعناصر البروليتاريا المخدوعة فِرَق الصدام القادرة على تحطيم تنظيمات البروليتاريا الاقتصادية والسياسية. هكذا تظهر العنصرية إذن، في بادئ الأمر، كاديولوجية البرجوازية الصغيرة. ويعكس برنامجها مصالح وأوهام هذه الطبقة، فهو يعد بالنضال ضد «الرأسمالية المفرطة» و«التروستات»، والبورصة، والمخازن الكبيرة، الخ. لكن بمجرد تمكن الرأسمال الكبير من القضاء على البروليتاريا، بفضل مساعدة البرجوازية الصغيرة، تصبح هذه الطبقة بالنسبة له عبئا لا يطاق. ويتطلب برنامج التحضير للحرب تصفية المؤسسات الصغيرة، بدون رحمة، وتطور هائلا في «التروستات» وتحويلا مكثفا إلى صفوف البروليتاريا. وهذا التحضير العسكري يستلزم دعم، أو على الأقل، حياد البروليتاريا التي تشكل أهم عامل في الإنتاج، ولا يتردد عندها الرأسمال الكبير لحظة في نقض اتفاقاته وتعهداته السالفة، بصورة وحشية، وفي خنق البرجوازية الصغيرة، فتتجه العنصرية نحو دغدغة البروليتاريا محاولة الظهور بمظهر حركة «اشتراكية» راديكالية. هنا يلعب الخلط بين اليهودية والرأسمالية دوره الأهم، إذ يتوجب على تجريد الرأسماليين اليهود من ثرواتهم، أن يلعب دور الضمانة والدليل على إرادة حسن نية العنصرية وعدائها للرأسمالية. ويسهِّل الطابع المغفل لرأسمالية الاحتكارات –المناقض للطابع الشخصي عامة (غالبا الطابع التجاري-المضارب) للمؤسسات اليهودية- في عملية الخداع الفكري هذه، إذ يرى الرجل العادي، بسهولة أكبر، الرأسمالي «الحقيقي» أي التاجر وصاحب المصنع والمضارب، مما يرى «المدير المحترم لشركة مساهمة»، الذي يقدّم على أنه «عامل ضروري للإنتاج». هكذا تصل الإيديولوجية العنصرية، إلى المعادلات التالية: اليهودية = الرأسمالية، العنصرية = الاشتراكية، اقتصاد موجه للحرب = اقتصاد الاشتراكية الموجه.

ومما لاشك فيه أن الفئات الواسعة من العمال، المحرومة من تنظيماتها والمبهورة بانتصارات هتلر السياسية الخارجية، قد خُدعت، كما خدعت البرجوازية الصغيرة سابقا، بالخرافة العرقية. ويبدو مؤقتا أن البرجوازية قد بلغت هدفها، إذ امتد التنكيل الطارئ باليهود إلى كل أنحاء أوروبا، ليقيم الدليل على انتصار العرقية «النهائي» وهزيمة اليهودية العالمية الماحقة.

د- حول العرق اليهودي

ليست «النظرية» العرقية المسيطرة الآن إلا محاولة لإرساء العنصرية على قواعد «علمية»، لكنها مجردة في الواقع من كل قيمة علمية. ومن أجل هذا، يكفينا أن نلاحظ الألعاب البهلوانية التاسعة التي يقوم بها منظرو العرقية للتدليل على القرابة بين «الجرمان» و«اليابانيين» أو التعارض الدائم بين «الروح الجرمانية البطولية» و«الروح الانكلو سكسونية المركنتيلية»، حتى نقتنع تماما. وبالطبع، ليس هذيان مونتاندون Montandon «عن إزالة طابع البغاء» عن «اليهودي»، بإجبارهم على حمل نجمة داوود، أفضل مما سبق، ويقدم البغاء الفعلي لبعض «علماء» عند قدمي العرقية منظرا نادرا عن مدى انحطاط القيمة الإنسانية. وفي الواقع، ليس ذلك سوى نهاية التحلل التام للعلم البرجوازي.

غير أن الحماقات العرقية يجب أن لا تمنعنا من البحث عن مدى صحة وجود عرق يهودي. ويقودنا البحث الأكثر سطحية إلى أن اليهود يشكلون، في الواقع، **خليطا عرقيا متنافرا**. والسبب الرئيسي في ذلك هو طابع التشتت الملازم لليهودية. فحتى في فلسطين،

كان اليهود بعيدين عن تشكيل «عرق صاف». وإذا لم نرد الاستشهاد بما ورد في التوراة، التي تقول أن اليهود قد أخذوا معهم، لدى خروجهم من مصر، مجموعة من المصريين، وان استرابون اعتبرهم من سلالة المصرين يكفينا أن نذكر بالأعراق المتعددة التي استقرت في فلسطين، كالحثيين والكنعانيين والفلسطينيين «الآريين» والمصريين والفينيقيين والإغريق والعرب. وكما يقول استرابون، فقد قطن في بلاد يهوذا الفينيقيون والمصريون والعرب. أما نمو «التهوّد» خلال العهد الإغريقي والروماني، فقد زاد من طابع اليهود المختلط. وفي عام 139 ق.م.، طُرد اليهود من روما لتهويدهم بعض السكان، وكانت مجموعة أنطاكية مؤلفة بأغلبيتها من المتهوّدين. ولم تكف عملية التهويد في خلال العصور اللاحقة، وقد ساهمت عملية تهويد العبيد القسرية، واعتناق الخزر وأعراق وشعوب أخرى هذا الدين، في خلال مرحلة التشتت الطويلة، في جعل اليهودية تراكما مثاليا من الأعراق.

في وقتنا هذا، ليس ثمة أي تجانس عرقي بين اليهود اليمنيين، مثلا، ويهود الداغستان. فاليمنيون ينتمون إلى جنس شرقي، بينما ينتمي يهود الداغستان إلى الجنس المغولي. وفي الهند يهود من الجنس الأسود، وثمة يهود حبشيون «فلاشا»، ويهود سكان الكهوف في أفريقيا. ومع ذلك، فإن الفارق الجوهري الموجود مثلا بين يهود الداغستان ويهود اليمن لا يحل المسألة بأكملها، ففي الواقع، نرى أن تسعة أعشار اليهود الحاليين هم من سكان أوروبا الشرقية أو من سلالات يهود تلك البقاع. فهل هناك ثمة عرق يهودي أوروبي شرقي؟ هاكم ما يقول المُنظِّر اللاسامي «هَنس غونتر»: تتألف اليهودية الشرقية، التي تشكل تسعة أعشار اليهود تقريبا، من يهود روسيا وبولونيا وغاليسيا والمجر والنمسا وألمانيا، ومن القسم الأكبر من يهود أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، وهي مزيج من الأعراق الآسيوية-القديمة والشرقية والبلطقية والآسيوية الداخلية والنروجية والحاميَّة والزنجية».

وبعد أبحاث أجريت في نيويورك تبين أنه يوجد بين كل 4235 يهودي ما يلي:

	يهودي	يهودية
جنس أسمر	52.62	56.94
جنس أشقر	10.42	10.27
أجناس أخرى	36.96	32.79

ويملك 14.25 بالمئة من اليهود و12.70 بالمئة من اليهوديات، ما يسمى بالأنف اليهودي، الذي هو في الواقع، الأنف المشترك لدى شعوب آسيا الصغرى والواسع الانتشار خاصة بين الأرمن، وينتشر شكل الأنف هذا لدى الشعوب المتوسطة ولدى البافاريين «وهم من العرق الديناري». وتمكنا هذه الملاحظات القليلة من الاقتناع ببطلان مفهوم «العرق اليهودي»، فما العرق اليهودي سوى خرافة. وعلى العكس، يظل القول بأن اليهود يشكلون خليطا عرقيا، متميزا عن الخلائط العرقية لأغلبية الشعوب الأوروبية ولاسيما السلاف والجرمان، صحيحا.

وفي الواقع، ليست الخصائص «الانثربولوجية» لليهود هي التي تميزهم عن سائر الشعوب، بقدر ما أنها خصائصهم «الفيزيولوجية» و«الباثولوجية»، وخاصة النفسية.

وتجد هذه الظاهرة تفسيرها، بشكل خاص، في الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية لليهودية عبر لتاريخ. فخلال قرون طويلة، كان اليهود من سكان المدن الذين يتعاطون **التجارة**. فاليهودي إذن هو حاصل **الوظيفة التقليدية**، أكثر مما هو نتيجة تميز عرقي. فاليهود قد استوعبوا مجموعة من العناصر العرقية المتنافرة، لكن العناصر جميعها خضعت لظروف خاصة عاشها اليهود، مما أدى، على مدى طويل، إلى تشكيل ما يسمى الآن «بالعرق اليهودي»، إنه حاصل انتقاء اقتصادي واجتماعي طويل وليس حاصل انتقاء عرقي.

فالضعف الجسدي، وكثرة بعض الأمراض، كالسكري والأمراض العصبية، واستعداد جسدي مميز، الخ ليست مميزات عرقية، لكنها نتيجة وضع اجتماعي خاص. فليس ثمة أسخف من تفسير ميل اليهودي نحو التجارة والتجريد، مثلا، بأنه نتيجة خصائص عرقية. ففي كل مكان اندمج اليهود فيه اقتصاديا، وكفوا عن تشكيل طبقة، فقدوا بسرعة جميع هذه الخصائص. هكذا يتبين أن المنظِّرين العرقيين، الذين حسبوا أنفسهم أمام «عرق حقيقي»، ليسوا في الواقع إلا أمام مجموعة إنسانية، اكتسبت خصائصها المميزة بفعل الظروف الاجتماعية التي عاشتها خلال قرون طويلة. أما تغيير هذه الظروف الاجتماعية فسوف يؤدي حتما إلى زوال «الخصائص العرقية» الخاصة باليهودية.

ه- الصهيونية

لقد وُلدت الصهيونية على ضوء الحرائق التي أحدثها المجازر الروسية عام 1882 وفي جَلَبة قضية دريفوس. وهما حدثان عكسا الحدة التي تميزت بها القضية اليهودية منذ نهاية القرن التاسع عشر.

وأدت «رسملة» الاقتصاد الروسي السريعة، بعد إصلاح 1863، إلى جعل وضع الجماهير اليهودية في المدن الصغرى غير محتمل. وفي الغرب أخذت الطبقات الوسطى المسحوقة، بفعل المركزة الرأسمالية، تتوجه ضد اليهود، الذين كانوا يزيدون وضعها سوءا على سوء بفعل منافستهم لها. وقد تأسست في روسيا جمعية «عشاق صهيون»، وكتب ليوبينسكو كتابه «التحرر الذاتي»، حيث يقترح فيه الرجوع إلى فلسطين، كالحل الوحيد الممكن للمسألة اليهودية. وفي باريس، أخذ البارون روتشيد، الذي كان ينظر بغير رضى، كجميع الأثرياء اليهود، إلى وصول المهاجرين اليهود الجماعي إلى البلدان الغربية، يولي اهتمامه عملية استيطان اليهود في فلسطين. وكانت «مساعدتهم إخوانهم التاعسين»، في الرجوع إلى بلد «الأجداد»، أي ذهابهم إلى أبعد ما يمكن، ترضي تماما البرجوازية الأوروبية، التي بدأت تخشى بحق تصاعد اللاسامية. وإثر ظهور كتاب ليوبينسكر بوقت قليل، شهد صحفي يهودي من بودابست، يدعى تيودور هرتزل، المظاهرات المعادية للسامية التي أثارتها في باريس، قضية دريفوس، فكتب هرتزل على إثرها «الدولة اليهودية»، وهو الكتاب الذي ظل حتى الآن انجيل الحركة الصهيونية. وقد ظهرت الصهيونية، منذ البدء، كردة فعل من البرجوازية اليهودية الصغيرة «التي لا تزال تشكل نواة اليهودية» والتي تلقت ضربات قاسية بتصاعد موجة اللاسامية، مما أجبرها على التنقل من بلد إلى آخر، والتي تحاول الآن الوصول إلى أرض الميعاد، حيث يستطيع أن تجد ملجأ من العواصف التي تجتاح العالم الحديث.

إن الصهيونية إذن حركة قومية حديثة، وهي أحدث الحركات القومية في أوروبا، وبالرغم من هذا، فهي لا تمتنع عن الادعاء، وأكثر من جميع الحركات القومية الأخرى، بأنها تستقي وجودها من ماض سحيق، وبينما نرى أن الصهيونية ليست في الواقع إلا نتيجة المرحلة الأخيرة من الرأسمالية أي للرأسمالية الآخذة في التعفن تدعي هي أنها ترتكز على ماض يمتد إلى نحو من ألفي سنة. ونرى أن الصهيونية التي تولدت كردة فعل على الوضع الذي عاناه اليهود، نتيجة لتشابك انهيار الإقطاعية وانحطاط الرأسمالية، تدعي أيضا أنها قامت لمحاربة الأوضاع التي نتجت عن سقوط القدس عام 70. لكن نشأتها الحديثة هي خير رد على هذه الادعاءات، إذ كيف يمكننا أن نصدق أن علاجا موجودا منذ ألفي سنة لم يجر اكتشافه إلا في نهاية القرن التاسع عشر؟ لكن الصهيونية، ككل الحركات القومية، وربما أكثر من غيرها، تنظر إلى الماضي على ضوء الحاضر وتشوهه بهذه الطريقة وهي نفس الوسيلة المتبعة بإيهام الأطفال الفرنسيين بأن فرنسا موجودة منذ حكم فرسنجيتوركس بلاد الغال، كما يصورون لأولاد مقاطعة «البروفنس» أن الانتصارات التي حققها ملوك مقاطعة «ليل دي فرانس» على أجدادهم هي انتصاراتهم الخاصة. وأن الصهيونية تحاول خلق خرافة اليهودية الأبدية التي تعرضت دائما للاضطهادات نفسها.

وترى الصهيونية في سقوط القدس سببا للتشتت، وبالتالي مصدرا لجميع آلام اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل. «إن نبع جميع آلام لشعب اليهودي يكمن في إضاعته لوطنه التاريخي وتشتته في أنحاء العالم». ها ما أعلنته بعثة «بوالي-صهيون» الماركسية، إلى اللجنة الهولندية-السكندينافية. واستمر هذا «التاريخ المحزن» بعد التشتت العنيف الذي لقيه اليهود على أيدي الرومان. فبعد طردهم من بلادهم، لم يرغب اليهود، «يا لروعة الاختيار الحر»، في الاندماج. ويمكن سبب مقاومتهم لكافة محاولات الدمج، في اعتقادهم العميق «بالتحامهم القومي» و«شعورهم الأخلاقي المتفوق»، و«إيمانهم الذي لا يتزعزع برب واحد». وقد كان أملهم الوحيد، في خلال الأيام المظلمة التي دامت ألفي سنة، هو في الرجوع إلى وطنهم الأصلي.

لكن الصهيونية لم تطرح على نفسها قط، بالجدية اللازمة، السؤال التالي: لماذا لم يحاول اليهود خلال الألفي سنة هذه العودة إلى وطنهم؟ ولماذا لم يكن هناك بد من انتظار نهاية القرن التاسع عشر حتى يتوصل هرتزل إلى إقناعهم بهذه الضرورة؟ ولماذا وصم جميع أسلاف هرتزل، «كسبتاي زيفي» المشهور، بالأنبياء الدجالين؟ ولماذا تعرّض أتباع «سبتاي زيفي» إلى التنكيل الوحشي من قبل اليهودية الرسمية؟

بالطبع، يتسترون بالدين عند الإجابة على هذه الأسئلة الهامة. يقول زيتلوفسكي، وهو ذو صهيونية مشروطة: «كان على الجماهير المؤمنة، ما دام واجبا عليها البقاء في الشتات حتى مجيء المسيح الموعود، أن تتألم بصمت». لكن هذا «التفسير» لا يفسر لنا شيئا على الإطلاق. فالمسألة الملحة المطروحة هي معرفة السبب الذي دفع بالجماهير اليهودية إلى الاعتقاد بأن عليها انتظار «المسيح» لكي تستطيع «العودة إلى وطنها».

وبما أن الدين انعكاس إيديولوجي للمصالح الاجتماعية، فمن المفروض أن يتطابق مع هذه المصالح، ولا يشكل الدين حاليا أية عقبة في وجه الصهيونية.

وفي الواقع، فإن «حلم صهيون» قد بقي، خلال الفترة التي كانت اليهودية فيها مندمجة في النظام الإقطاعي، حلما لا أكثر، لا يتطابق أبدا مع أية مصلحة حقيقية لليهود. ولم يكن صاحب الخان أو «الملتزم» اليهودي في بولونيا خلال القرن السادس عشر يفكر «بالعودة» إلى فلسطين، أكثر مما يفعل الآن أي «مليونير» يهودي في أمريكا. ولا تتميز النبوءة اليهودية الدينية بشيء عن نبوءات الأديان الأخرى، وكان الحجاج اليهودي المتوجهون إلى فلسطين يلتقون بحجاج كاثوليك وأرثوذكس ومسلمين. وكانت هذه النبوءة «بعيدة عن العودة إلى فلسطين»، بقدر ابتعادها عن الاعتقاد بضرورة إعادة بناء هيكل القدس.

لا يمكننا التفريق بين هذه التصورات الصهيونية المثالية وبين معتقد اللاسامية الأبدية. «سوف يتعرض اليهود، في خلال مجمل فترة الشتات، إلى كره من السكان المحليين». إن وجهة النظر هذه، التي تعتبر أساسا جوهريا في الصهيونية وهيكلها، قد خُرّجت بأشكال متعددة من قبل تيارات الصهيونية المختلفة. وتحاول الصهيونية إظهار اللاسامية المعاصرة كحركة عرفتها مختلف الحقبات التاريخية، بدون أن تجهد نفسها في البحث عن مختلف أشكال اللاسامية وتطورها، مع أننا قد رأينا أن اليهودية شكلت في حقبات مختلفة قسما من الطبقات المالكة، وعومل اليهود على قدم المساواة مع غيرهم. والخلاصة أن البحث عن مصادر الصهيونية يجب أن يرتكز على استحالة الاندماج بسبب اللاسامية «الأبدية» وارادة حفظ «الكنوز اليهودية»[149].

إن الإيديولوجية الصهيونية، هي في الواقع، ككل الإيديولوجيات، انعكاس مشوه لمصالح طبقة ما، إنها اديولوجية البرجوازية اليهودية الصغيرة، المختنقة بين الإقطاعية المنهارة والرأسمالية الآخذة في الانحطاط. إن دحض فذلكة الاديولوجية الصهيونية لا يؤدي، طبعا، إلى دحض الحاجة الحقيقية التي ولدتها. فاللاسامية الحديثة، لا خرافة اللاسامية «الأبدية»، هي المحرض الأفضل الذي تستخدمه الصهيونية. كذلك، فالمسألة الرئيسية التي تنطرح حاليا هي في أن نعرف إلى أي حد تستطيع فيه الصهيونية أن تحل المسألة اليهودية في عصر الرأسمالية المنهارة، لا «المسألة اليهودية الأبدية» المزعومة.

يمثل المنظرون الصهاينة إلى تشبيه الصهيونية بباقي الحركات القومية، بينما تختلف مرتكزات الحركات القومية، في الواقع، عن مرتكزات الصهيونية اختلاف بيِّنا. فالحركة البرجوازية الأوروبية القومية هي نتيجة التطور الرأسمالي وهي تعكس إرادة البرجوازية في خلق قاعدة قومية للإنتاج والقضاء على بقايا الإقطاع وترتبط الحركة البرجوازية الأوروبية القومية ارتباطا وثيقا بمرحلة الرأسمالية الصاعدة، غير أنه، في القرن التاسع عشر، وهو عهد ازدهار القوميات، كانت البرجوازية اليهودية قابلة للاندماج وبعيدة كل البعد عن الصهيونية. وأرست السيرورة الاقتصادية التي انطلقت منها القوميات الحديثة دعائم دمج البرجوازية اليهودية في القومية البرجوازية. ولم تبدأ عملية طرد اليهود من المجتمع الرأسمالي ولم تتطور اللاسامية المعاصرة إلا بعد انتهاء تشكيل القوميات وبعد أن ضاقت القوى المنتجة ذرعا بالحدود القومية. وترافق القضاء على اليهودية مع انحطاط الرأسمالية. والصهيونية، عوضا عن أن تكون نتيجة لتطور القوى المنتجة، هي في الواقع نتيجة لتوقف هذا التطور ولتجمد النظام الرأسمالي. وبينما نرى أن الحركة القومية هي نتيجة مرحلة الرأسمالية الصاعدة، نرى أن الصهيونية هي ثمرة عصر الإمبريالية. وما المأساة اليهودية في القرن العشرين إلا النتيجة المباشرة لانحطاط الرأسمالية.

وهنا تكمن العقبة الرئيسية في وجه تحقيق أهداف الصهيونية، **فانحطاط الرأسمالية الذي يشكل مرتكز تطور الصهيونية، هو في نفس الوقت سبب استحالة تحقيقها**. إن البرجوازية اليهودية تجد نفسها مجبرة على خلق دولة مصطنعة وتأمين الأطر الموضوعية اللازمة لازدهار قواها المنتجة، في العصر الذي زالت فيه الظروف التي تسمح بمثل هذا التطور. وتقف ظروف انحطاط الرأسمالية، التي طرحت المسألة اليهودية بهذه الحدّة، تجعل حلها مستحيلا عن طريق الصهيونية. وليس في ذلك أي عجب، إذ لا يمكن إزالة ألم بدون القضاء على أسبابه. فالصهيونية تريد حل المسألة اليهودية بدون القضاء على الرأسمالية، المصدر الرئيسي لآلام اليهود.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، أي في العصر الذي طُرحت فيه المسألة اليهودية بكل حدتها، كان 150000 من اليهود يغادرون بلادهم الأصلية سنويا. وبين أعوام 1881 و1925، هاجر ما يقارب من الأربعة ملايين يهودي. وبالرغم من هذه الأرقام الهائلة، ازداد عدد اليهود في أوروبا الشرقية من ستة إلى ثمانية ملايين.

[149]- أبوهيم: الحركة الصهيونية –تل أبيب والقدس 1935-1937 الفصل الثالث.

وهكذا، ففي المرحلة التي كانت الرأسمالية فيها تتطور وبلدان ما وراء البحار ما تزال مستعدة لاستقبال المهاجرين، لم يكن ثمة بداية حل المسألة اليهودية (من وجهة النظر الصهيونية). وبدلا من أن يتناقض أبدى الشعب اليهودي «ميلا سيئا» نحو زيادة عدده. ومن أجل البدء بحل المسألة اليهودية، أي البدء في اقتلاع الجماهير اليهودية، ووضعها في أوطان أخرى، كان على بلدان الهجرة أن تستوعب سنويا أكثر بقليل من معدل الزيادة السنوية لدى يهود الشتات أي ما يقارب 300000 يهودي سنويا. وعندما كانت الظروف ملائمة للهجرة، قبل الحرب الإمبريالية الأولى. وعندما أباحت البلدان المتطورة، كالولايات المتحدة، الدخول الجماعي للمهاجرين، ما أمكنا قط الوصول إلى ذلك الرقم، فكيف نعتقد أن إنجازا كهذا يمكن تحقيقه في عصر أزمة الرأسمالية الدائمة وعهد الحروب التي لا تنقطع؟

لا شك في أن هناك عددا كافيا من البواخر في العالم لنقل مئات الآلاف، بل الملايين من اليهود، لكن، إن كانت جميع البلدان قد أغلقت أبوابها في وجه المهاجرين، فسبب ذلك أن هناك فائضا في القوى العاملة، كما في إنتاج البضائع. وبعكس نظرية «مالتوس» التي يقول فيها أنه سيوجد كثير من الناس فوق الأرض لأن المنتوجات قليلة جدا، نقول أن وفرة الإنتاج هي بالضبط سبب «ازدياد» الناس. وعلى العكس ما كان يتوقعه «مالتوس»، فإن «التضخم» في عدد الناس لم يحدث بفعل النقصان في المواد المنتجة بل حدث هذا التضخم بفعل الفائض في الإنتاج.

وفي هذا العهد، الذي أصبحت فيه الأسواق العلمية متخمة بالمنتوجات، وضربت فيه البطالة أطنابها، بأية أعجوبة يتسنى لبلد ما، مهما كان كبيرا وغنيا (ونترك هنا جانبا المعطيات الخاصة بفلسطين الفقيرة والصغيرة) أن ينمي قواه المنتجة إلى حد يمكنه من استقبال 300000 مهاجر سنويا؟ وفي الواقع، إن امكانات الهجرة اليهودية تنخفض في الوقت الذي تزداد فيه ضرورتها. فالأسباب التي تحث على الهجرة تشكل، في نفس الوقت، حائلا دونها، وما تلك الأسباب سوى نتيجة لانهيار الرأسمالية.

وتنتج الصعوبات السياسية التي تعترض الصهيونية من ذلك التناقض الجوهري بين **ضرورة** الهجرة وإمكانية تحقيقها فعصر نمو الأمم الأوروبية كان أيضا عصر استعمار ناشط لبلدان ما وراء البحار، فاستُعمرت أمريكا الشمالية في بداية القرن التاسع عشر وأواسطه أي إبان العصر الذهبي للقومية الأوروبية. وفي المرحلة نفسها ابتدأت أمريكا الجنوبية واستراليا بالنمو، لقد كان هناك مساحات شاسعة من الأراضي، بدون ملاكين تقريبا، وهي تصلح للزراعة ومستعدة لاستيعاب ملايين من المهاجرين الأوربيين. وفي تلك المرحلة، وللأسباب التي رأيناها، لم يفكر اليهود، كثيرا أو قليلا، في الهجرة.

أما الآن، فإن العالم بأكمله قد استُعمر وصنِّع، وقسم بين الدول الإمبريالية المختلفة. وحيثما حل اليهود فإنهم يصطدمون بالقومية «المحلية» والإمبريالية المسيطرة. وفي فلسطين، تصطدم القومية اليهودية بقومية عربية تزداد قوة يوما بعد يوم. بل أن إثراء فلسطين المتأتي من الهجرة اليهودية ساهم في مضاعفة حدة الشعور القومي عند العرب. وأدى نمو البلد الاقتصادي إلى ازدياد السكان العرب وتمايزهم الاجتماعي وإلى تصاعد رأسمالية وطنية. ولكي يستطيع اليهود التغلب على المقاومة العربية، استعانوا بالإمبرياليين الإنكليز، غير أن «مساعدة» هؤلاء تسبب ضررا لا يقل عما تسببه المقاومة العربية. وتنظر الإمبريالية الإنكليزية بعين الرضى إلى هجرة يهودية محدودة، تشكل ثقلا موازنا للعنصر العربي، بينما تبدي مقاومة عنيفة أمام استقرار عدد كبير من اليهود في فلسطين وتعارض التطور الصناعي وتطور البروليتاريا. وتستخدم الإمبريالية الإنكليزية الهجرة اليهودية لشل الخطر العربي، لكنها تبذل وسعها أيضا لإقامة العراقيل في وجه هذه الهجرة.

هكذا، فإلى جانب الصعوبات المطردة الناجمة عن المقاومة العربية يضاف الدور الغادر الذي تلعبه الإمبريالية الإنكليزية. وعلينا، أخيرا، أن نستخلص نتيجة نهائية، بعد إرسائنا للنقاط الأساسية الأولية، فإن عملية الاستعمار الصهيوني، بسبب طابعها المصطنع بالضرورة، وبسبب ضيق الآفاق المتاحة أمام تطور اقتصادي سريع وطبيعي للاقتصاد الفلسطيني في عصرنا، تتطلب رساميل ضخمة، وبالتالي تفرض الصهيونية على الشعوب اليهودية تضحيات متزايدة. لكن طالما ظل وضع يهود الشتات محتملا، فليس ثمة طبقة يهودية تشعر بضرورة تقديم هذه التضحيات. وكلما ازداد شعور الجماهير اليهودية بضرورة «الوطن» القومي، وكلما ازداد الاضطهاد الذي تلاقيه، قلت إمكانية مساهمة هذه الجماهير اليهودية في البناء الصهيوني. «إن شعبا يهوديا قويا في الشتات هو ضروري لإعادة البناء الفلسطيني»[150]. لكن لطالما بقي الشعب اليهودي قويا في «الشتات»، فإنه لا يشعر بأية ضرورة للرجوع إلى فلسطين. وعندما يحس بهذه الضرورة بشكل عنيف، تزول إمكانية تحقيقها. إنه لمن الصعب إلى حد كبير أن نطلب اليوم من اليهود الأوروبيين، الذين يشعرون حاليا بضرورة ملحة للهجرة، أن يساهموا في إعادة «البناء الفلسطيني». وعندما يحين اليوم الذي يستطيعون فيه المساهمة في هذا البناء، فإن حماسهم لهذه المهمة سيتدنى كثيرا.

150- روبين : المرجع السابق

لا يمكننا بالطبع نفي النجاح النسبي الذي تحققه الصهيونية في محاولتها خلق أغلبية يهودية في فلسطين، وحتى في تأسيس «دولة يهودية» مما يعني دولة تخضع بشكل تام للإمبريالية الإنكليزية أو الأمريكية. لكن تلك الدولة اليهودية الصغيرة «المستقلة» في وسط الشتات العالمي ليست إلا عودة ظاهرية للأحوال كما كانت عليه قبل عام 70. ولا يعقل أن يكون ذلك بداية حل للمسألة اليهودية. وفي الواقع كان للشتات اليهودي في العصر الروماني أسس اقتصادية متينة، إذ لعب اليهود دورا اقتصاديا هاما، وكان وجود الوطن القومي الفلسطيني مسألة ثانوية ليهود ذلك العصر، ولا يتعلق الأمر في يومنا هذا بإعطاء اليهود مركزا سياسيا وروحيا «كما أراده آحادحام»، بل تكمن القضية في إنقاذ اليهود من الفناء الذي يتربص بهم في الشتات. فكيف يبدل وجود دولة يهودية صغيرة في فلسطين من الأوضاع التي يعانيها اليهود البولونيون أو الألمان؟ ولو سلمنا جدلا بأن جميع يهود العالم هم الآن مواطنون فلسطينيون، فهل يغير ذلك شيئا في السياسة الهتلرية؟ ولا يعدو الاعتقاد بأن وجود دولة يهودية صغيرة في فلسطين يمكن أن يبدل، لاسيما في وقتنا الحاضر، أوضاع اليهود في العالم، كونه بلاهة حقوقية لا شفاء لها. وسيشابه الوضع، بعد الإنشاء المحتمل للدولة اليهودية في فلسطين، الأحوال التي كانت قائمة في العهد الروماني، فإنه، في كلتا الحالتين، **لا يساعد وجود دولة يهودية في فلسطين على تحسين حال يهود الشتات**.. ففي العهد الروماني كانت أوضاع يهود الشتات الاقتصادية والاجتماعية قوية للغاية، لذلك لم يؤثر عليها البتة اختفاء تلك الدولة اليهودية، أما الآن، فإن وضع اليهود في العالم سيء جدا ولن تساهم إقامة دولة يهودية في فلسطين في تحسين تلك الأوضاع. ففي الحالتين لا يتعلق وضع **اليهود** أبدا بوجود دولة في فلسطين بل بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العام. وعلى افتراض أن الحلم الصهيوني قد تحقق وأن «الظلم التقليدي» قد زال –مع العلم أن ذلك الأمر بعيد المنال- فإن وضع اليهودية العالمية لن يتحسن مطلقا. وقد يعاد بناء الهيكل من جديد، غير أن آلام اليهود لن تزول.

ولعل تاريخ الصهيونية هو أفضل تجسيد للصعوبات الجمة التي تعترضها. وتنتج هذه الصعوبات، في التحليل الأخير، عن التناقض الجوهري الذي يمزقها أي التناقض بين الضرورة المتنامية لحل المسألة اليهودية من جهة، وبين الاستحالة المطَّردة لحلها في ظروف الرأسمالية السائرة نحو الانحطاط من جهة أخرى. وبعد الحرب الإمبريالية مباشرة، ومع أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لم تصطدم بصعوبات كبيرة، فإن عدد المهاجرين بقي ضئيلا، إذ أن الظروف الاقتصادية التي سادت البلدان الرأسمالية بعد الحرب خففت من ضرورة الهجرة. ولم تشعر الحكومة البريطانية بأي دافع لعرقلة دخول اليهود إلى فلسطين، بسبب ضآلة أعداد المهاجرين. وفي سنوات 1924-1925-1926، شنت البرجوازية البولونية حربا اقتصادية على الجماهير اليهودية. وقد كانت تلك السنوات مرحلة هجرة مهمة جدا إلى فلسطين. لكن سرعان ما اصطدمت تلك الهجرة الجماعية بعقبات اقتصادية عويصة، مما أدى إلى جزر يوازي أهمية المد الذي شهدته تلك السنوات. وحتى وصول هتلر إلى السلطة سنة 1933، بقيت الهجرة اليهودية ضئيلة جدا. وبعد هذا التاريخ ابتدأ عشرات الألوف من اليهود بالوصول إلى فلسطين، غير أن هذه الظاهرة توقفت بفعل المظاهرات والمذابح التي ارتكبت ضد اليهود، فقد بدأ العرب يخافون، بشكل جدي، من أن يصبحوا أقلية في فلسطين. وخشي الإقطاعيون العرب أن تجتاحهم موجة الرأسمالية. واستغلت الإمبريالية البريطانية حدة التوتر هذه لتضع العقبات أمام دخول اليهود ولتوسع شقة الخلاف بين اليهود والعرب، وذلك بطرحها مشرع تقسيم فلسطين. ووجدت الصهيونية نفسها، حتى الحرب العالمية الثانية، أمام صعوبات متنامية وعاش السكان الفلسطينيون في رعب دائم، وعندما أصبح وضع اليهود يدعو على اليأس، أكثر فأكثر، ظهرت الصهيونية عاجزة عن معالجة الأمر واستقبل المهاجرون اليهود «بالخفية» بطلقات البنادق من قبل «الحماة» البريطانيين.

وابتدأ الوهم الصهيوني يفقد من جاذبيته، حتى في نظر الأشخاص الأقل وعيا. ففي بولونيا أظهرت الانتخابات الأخيرة أن الجماهير اليهودية تحولت تماما عن الصهيونية وأخذ اليهود يتفهمون أن الصهيونية لا يمكن أن تحقق تحسنا ملموسا في أوضاعهم بل أنها تضع السلاح في أيدي اللاساميين، بفضل نظريتها حول «الضرورة الموضوعية للهجرة اليهودية». وأدت الحرب الإمبريالية وانتصار الهتلرية في أوروبا إلى كارثة لم يعرفها اليهود من قبل، فوجدت اليهودية نفسها مهددة بالابادة الكاملة. فماذا تستطيع الصهيونية أن تفعله أمام كارثة كهذه؟ ألا يبدو واضحا أن المسألة اليهودية لا تتعلق بمصير تل أبيب ولكنها تتعلق، وبشكل أساسي، بالنظام الذي سوف يسود أوروبا والعالم؟ وتعلق الصهيونية آمالا كبيرة على انتصار الإمبريالية الانكلو-سكسونية. لكن، هل يوجد ثمة سبب للظن بأن موقف الإمبريالية الانكلو سكسونية سيتغير بعد نصرها المفترض عما كان عليه قبل الحرب؟ لا، بالطبع. وإذا سلمنا بأن الإمبريالية الانكلو سكسونية سوف تنشئ نوعا من الدولة اليهودية الهزيلة، فإن ذلك لا يغير كثيرا من وضع اليهود في العالم، كما سبق ورأينا[151]. وسوف تصطدم الهجرة اليهودية الواسعة إلى فلسطين بنفس الصعوبات التي عرفتها. وتبقى مسألة ترحيل ملايين اليهود مستحيلة في ظل انحطاط النظام الرأسمالي. ولا يستطيع تحقيق تلك المعجزة سوى إنشاء اقتصاد اشتراكي موجه مما يقتضي، بالطبع، الثورة البروليتارية.

[151]- في هذا الفصل تطرقنا للصهيونية فقط من وجهة نظر علاقتنا بالمسألة اليهودية. أما دور الصهيونية في فلسطين فهو بالطبع مسألة أخرى. –المؤلف-.

وتدعي الصهيونية أن بامكانها حل المسألة اليهودية بمعزل عن الثورة العالمية، وهي، بجهلها المصادر الحقيقية للمسألة اليهودية في عصرنا وتعلقها بأحلام صبيانية وآمال حمقاء، إنما تبرهن على أنها زائدة اديولوجية وليست مذهبا علميا.

الفصل الثامن

سبل حل المسألة اليهودية

إنه لمن الخطأ القول أن ثمة حلا يفرض نفسه على المسألة اليهودية منذ ألفي سنة، وأفضل دليل على عدم ضرورة هذا الحل هو أنه لم يتم التوصل إليه خلال هذه المدة الطويلة. لقد كانت اليهودية عاملا لا غنى عنه وعضوا جوهريا في مجتمع ما قبل الرأسمالية. وهذا ما يفسر وجودها في الشتات منذ ألفي سنة. لقد كان اليهودي شخصية تقليدية في المجتمع الإقطاعي كالسيد والقن. وليس من قبيل الصدفة أن يقوم عنصر غريب بلعب دور «الرأسمال» في المجتمع الإقطاعي. فلم يكن المجتمع الإقطاعي ليستطيع بحد ذاته أن يولد عنصرا رأسماليا. وعندما استطاع ذلك المجتمع أن يولد العنصر الرأسمالي، كفّ عن كونه إقطاعيا، وليس من باب الصدفة أيضا أن اليهودي بقي غريبا في المجتمع الإقطاعي إذ يبقى «الرأسمال» الخاص في المجتمعات السابقة للرأسمالية، خارج نطاقها الاقتصادي. وعندما يأخذ الرأسمال في الخروج من صلب هذا النظام الاقتصادي، ليحل مكان العضو المستعار، يزول اليهودي بزوال الطابع الإقطاعي للمجتمعات الإقطاعية.

إن الرأسمالية هي الأم الشرعية للقضية اليهودية، وليس سبب ذلك كون اليهود يعدون حاليا 20 مليونا (لقد انخفض عدد اليهود كثيرا، بالنسبة لغيرهم، منذ العهد الروماني)، بل أن السبب يكمن في أن الرأسمالية قد حطمت الأسس التقليدية للوجود اليهودي، كما أنها قضت على المجتمع الإقطاعي والطبقة التقليدية للشعب-الطبقة اليهودي. لقد حكم التاريخ على هذا الشعب-الطبقة بالزوال، وهكذا برزت المسألة اليهودية. فالقضية اليهودية تكمن في انصهار اليهود في المجتمع المعاصر، وتصفية التي خلقتها الإقطاعية للإنسانية.

في خلال قرون عديدة شكلت اليهودية جسما اجتماعيا تتداخل فيه بعمق العناصر الاجتماعية والقومية. فاليهود بعيدون عن تشكيل عرق موحد، بل هم على العكس من ذلك أحد الأخلاط العرقية الأكثر تميزا والأكثر بروزا. وهذا لا يمنع كون العنصر الآسيوي هو الأكثر أهمية في هذا الخليط، وهو كاف لتمييز اليهود في وسط الأمم الغربية، حيث ينشرون انتشارا واسعا. ويكمل «الأساس» القومي الحقيقي أساس وهمي وشاعري، يرتكز على التقليد القديم الذي يربط اليهودي الحالي «بأجداده» القدماء في عهد التوراة. وعلى القاعدة القومية تشكل فيما بعد الطابع الطبقي والنفسية المركنتيلية.

واختلطت العناصر القومية والاجتماعية إلى حد التشابك التام، ويصعب التمييز عند اليهودي البولوني بشكله «النموذجي» بين القسم الذي ورثه عن أجداده، والقسم الذي اكتسبه من الوظيفة الاجتماعية التي مارسها خلال قرون. ونستطيع القول بأن المحتوى الاجتماعي قد تجاوز بأهميته الأساس القومي منذ أمد بعيد. ومع أن العنصر الاجتماعي قد أضيف إلى العنصر القومي، فإن هذا العنصر القومي لم يستمر في الوجود إلا بفضل مركزه الاجتماعي الاقتصادي.

لقد طرحت الرأسمالية المسألة اليهودية، وذلك بتحطيمها الأسس الاجتماعية لتي استند إليها اليهود منذ قرون. غير أنها فشلت في حل المسألة اليهودية لأنها لم تستطع دمج اليهودي الذي حررته من قوقعته الاجتماعية. وقد أدى انحطاط الرأسمالية إلى إبقاء اليهودي معلقا بين السماء والأرض، إذ اختفى التاجر اليهودي لعصر «ما قبل الرأسمالية»، بدون أن يتمكن ابنه من إيجاد مكان في الإنتاج الحديث. وبانهيار القاعدة الاجتماعية لليهودية تحولت هذه إلى عنصر فائض لا محل له. فالرأسمالية لم تحكم بالإعدام على وظيفة اليهود الاجتماعية فقط، بل لفظت حكمها على اليهود أنفسهم.

ويميل اديولوجيو البرجوازية الصغيرة دائما، إلى تصوير الحدث التاريخي وكأنه مقولة أبدية. فهم يرون أن المسألة اليهودية هي نتيجة للشتات ولا يمكن حلها إلا بتجميع اليهود في فلسطين. غير أن تصوير المسألة اليهودية كمسألة إقليمية لا يعدو كونه تفكيرا صبيانيا. ولا يكتسب الحل المرتكز على قضية الأرض أي معنى، إلا إذا أدى إلى القضاء على اليهودية التقليدية، أي إلى إدخال اليهود في الاقتصاد الحديث واستيعابهم ودمجهم في العملية الإنتاجية. هكذا تجد الصهيونية نفسها مريضة مرغمة على اعتماد الحلول التي اقترحها ألد أعدائها -أي دعاة الاندماج- وإن بطريقة غير مباشرة. فالقاسم المشترك بين الصهيونية ودعاة الاندماج هو إرادة التخلص من إرث الماضي «الملعون» وجعل اليهود عمالا وفلاحين ومثقفين منتجين، ولا يتأتى الوهم الذي تعيشه الصهيونية من إرادتها في تحقيق هذا الهدف الذي تفرضه الحتمية التاريخية عاجلا أم آجلا، بل أن الوهم الذي تحياه الصهيونية ينتج عن اعتقادها بأن الصعوبات الناجمة عن انهيار الرأسمالية سوف تزول بقدرة ساحر، بمجرد الانتقال إلى فلسطين. غير أن الأسباب التي منعت اليهود من إيجاد مركز اقتصادي أثناء فترة الشتات سوف تقف حائلا دون تحقيق ذلك.

لقد بات العالم يشكل كيانا متلاحما يجعل من الجنون المطبق كل محاولة لتشكيل جزيرة بمعزل عن العواصف التي تجتاحها. ولهذا السبب، فإن فشل الاستيعاب سوف يؤدي حتما إلى فشل الصهيونية. ففي الوقت الذي غدت فيه المسألة اليهودية مأساة ضخمة، لا يمكن لفلسطين أن تتعدى كونها مسكّنا بالغ الضعف. هناك عشرة ملايين يهودي يعيشون في معتقل ضخم، فما قيمة العلاج الذي يقدمه إنشاء بضع مستعمرات صهيونية؟

لا اندماج ولا صهيونية إذن؟ لم يبق ثمة حل. نعم ليس هناك حل ممكن للمسألة اليهودية في ظل النظام الرأسمالي، كما أنه ليس من حل ممكن للمشاكل الأخرى التي تعاني منها الإنسانية، بدون إحداث انقلابات اجتماعية جذرية. فالأسباب التي جعلت تحرر اليهود وهما باطلا هي نفسها التي تقف حائلا دون تحقيق الصهيونية، فبدون إزالة الأسباب العميقة للقضية اليهودية، لا يمكن إزالة نتائجها.

لقد عادت دواليب التعذيب و«الغيتو» إلى الظهور، كمركز للمصير المأساوي الذي تسير نحوه الإنسانية. غير أن ازدياد حدة اللاسامية يمهد أيضا لزوالها. ويشكل طرد اليهود، بشكل مؤقت، مدى حيويا للبرجوازية الصغيرة. وقد تمكنت «الأرينة» من توظيف عشرات الألوف من المثقفين والبرجوازيين الصغار، الذين لا عمل لهم. ولكن البرجوازية الصغيرة، بمحاربتها الأسباب الظاهرة لشقائها، تزيد من فاعلية الأسباب الحقيقية. وتؤدي الفاشية بسرعة إلى دفع عملية سقوط الطبقات الوسطى إلى صفوف البروليتاريا. وكما حدث للبرجوازيين الصغار اليهود، كذلك عانى مئات آلاف التجار والحرفيين من فقدان أملاكهم وسقطوا إلى صفوف البروليتاريا. وخطت مركزة الرأسمال خطوات جبارة، و«التحسن الظاهر في الحالة الاقتصادية» كان ثمنه التحضير للحرب الإمبريالية الثانية التي تسببت بدمار ومذابح هائلة.

وهكذا فإن مصير اليهودية يعكس، بحدة بالغة، وضع الإنسانية جمعاء. فإن أفول الرأسمالية يعني بالنسبة لليهود العودة إلى «الغيتو»، بينما اختفت مرتكزات «الغيتو»، منذ أمد بعيد، مع مرتكزات المجتمع الإقطاعي. وتقطع الرأسمالية أمام الإنسانية جمعاء طريق المستقبل كما تسد عليها طريق الماضي، والقضاء على الرأسمالية هو السبيل الوحيد لتمكين البشرية من الاستفادة من المنجزات الضخمة التي حققها العصر الصناعي.

وهل ثمة ما يدعو إلى العجب إلى أن تكون الجماهير اليهودية، التي عانت قبل غيرها، وبحدة مضاعفة، من تناقضات الرأسمالية، قد قدمت قوى وفيرة للنضال الاشتراكي والثوري؟

وقد أشار لينين في مناسبات عديدة إلى أهمية الدور الذي يلعبه اليهود في الثورة، ليس فقط في روسيا، بل أيضا في بلدان أخرى. وقال لينين أن لجوء قسم من الجماهير اليهودية إلى داخل روسيا، بعد احتلال المناطق الصناعية الغربية وظهور عدد كبير من المثقفين اليهود في المدن الروسية، أثناء الحرب، قد كان عونا مهما للثورة. وساعد المثقفون اليهود في التغلب على التخريب الواسع الذي واجه البلشفيك في كل مكان والذي كان يشكل خطرا أساسيا وداهما. ونسبة اليهود العالية في الحركة البروليتارية ليست سوى انعكاس للوضع المأساوي الذي يعيشه اليهود في عصرنا. وتقدم طاقات اليهود الفكرية –وهي نتيجة الماضي التاريخي لليهودية- عونا مهما للحركة البروليتارية.

وهذا السبب الأخير هو من الأسباب التي ترتكز عليها اللاسامية المعاصرة. فإن الطبقات الحاكمة تضطهد، بسادية خاصة، المثقفين والعمال اليهود الذين زودوا الحركة الثورية بعدد غفير من المقاتلين. ويغدو عزل الجماهير اليهودية عن منابع الثقافة والعلوم ضرورة ملحة للنظام المتهافت الذي يضطهدهم. والخرافة السخيفة التي تقول «بالماركسية اليهودية»، ليست سوى ظاهرة كاريكاتورية للروابط القائمة فعلا بين الجماهير اليهودية والاشتراكية. إن وضع اليهود لم يكن قط مأساويا بالقدر الذي هو عليه اليوم. ففي أكثر مراحل العهود الوسطى سوءا، كان ثمة بلدان بأكملها تستطيع استقبالهم. أما الآن فإن الرأسمالية التي تهيمن على العالم أجمع، تلاحقهم أينما ذهبوا، ولم تتطلع الجماهير اليهودية من قبل، كما تتطلع الآن، إلى أرض موعودة. غير أن الأرض الموعودة قد فقدت في عصرنا هذا كل قدرة على حل المسألة اليهودية. لكن قمة التأزم التي وصلت إليها المسألة اليهودية في أيامنا هذه لا تعطي مفتاح الحل. إن وضع اليهود لم يكن أبدا مأساويا كما هو عليه اليوم، لكنه وبنفس القدر لم يكن أبدا على هذا القرب من الحل المنشود، ففي القرون الماضية كان الكره ضد اليهود يرتكز على أسس حقيقية تكمن في العداء الاجتماعي القائم بينهم وبين سائر طبقات الشعب. أما الآن، فإن مصالح الطبقات اليهودية ترتبط ارتباطا وثيقا بمصالح الطبقات الشعبية في العالم أجمع.

إن الرأسمالية، باضطهادها اليهود «الرأسماليين»، تجعل منهم منبوذين كاملين. وتساهم الاضطهادات الوحشية، التي يعاني الآن منها اليهود، في إظهار حيوانية اللاسامية الحمقاء، كما تساهم في إزالة بقايا التحامل الذي تحس به الطبقات العاملة تجاههم. ولا تؤدي الخِرَق الصفراء و«الغيتو» إلى منع العمال من الشعور بتضامن متزايد مع الذين يتحملون أكثر من غيرهم الآلام التي تعاني منها الإنسانية.

وسيؤدي انفجار اجتماعي لم يشهد العالم له مثيلا إلى تحرير اليهود المعزولين الذين يعانون اشد أنواع الاضطهاد في عالمنا. وعندما تثور جماهير المعامل والمزارع للقضاء على تحكم الرأسمالية، وتنفتح أما البشرية آفاق تطور غير محدود، فإن الجماهير اليهودية سوف تساهم مساهمة فعالة في بناء العالم الجديد.

ولا يعني هذا أن الاشتراكية سوف تقضي، بضرب عصا سحرية على جميع المشاكل التي تعترض المسألة اليهودية. ويدل مثال الاتحاد لسوفييتي، حتى بعد انتصار الثورة البروليتارية، على أن بنية اليهودية المميزة، التي هي إرث التاريخ، تؤدي إلى عدد من الصعوبات، ولاسيما في الفترات الانتقالية. وهكذا، ففي أثناء «السياسة الاقتصادية الجديدة» N.F.B. قدم اليهود، باستخدامهم خبراتهم التقليدية في التجارة، أطرا عديدة للطبقة البرجوازية الجديدة.

ومن ناحية أخرى، فإن جماهير صغار التجار والحرفيين اليهود قد قاست كثيرا في بداية دكتاتورية البروليتاريا، ولم يتم إدماج اليهود جماعيا في الاقتصاد السوفييتي إلا بعد ذلك، أي بعد نجاح الخطة الخماسية. وبصورة إجمالية وبرغم بعض الصعوبات، فإن التجربة كانت قاطعة: لقد تحول مئات الآلاف من اليهود إلى عمال ومزارعين..

ولا يجب أن نشعر بالقلق لكون نسبة الموظفين مرتفعة بين الأجراء اليهود، إذ أن الاشتراكية لا مصلحة لها في أن يشتغل جميع اليهود في أعمال يدوية، بل على العكس من ذلك، يجب الاستفادة إلى أقصى حد من قدرات اليهود الفكرية. لقد أصبح من الواضح إذن أنه، حتى في الظروف الصعبة السائدة في بلد متخلف نسبيا، يمكن حل المسألة اليهودية على أيدي البروليتاريا. لقد ساهم اليهود في الاقتصاد الروسي بأعداد كبيرة. وترافقت عملية «انخراط اليهود في الإنتاج» بعمليتين متوازيتين: الاندماج والمركزة الإقليمية، فقد اندمج اليهود بسرعة في المناطق التي عملوا فيها، في حقل الصناعة. ففي سنة 1926 بلغت نسبة متكلمي اللغة الأدشية، من عمال مناجم دونيتز، اليهود، 40 بالمئة فقط. ومع ذلك فإن اليهود يعيشون في ظل نظام يحفظ لهم استقلالهم القومي: لهم مدارسهم الخاصة وجرائدهم الناطقة بالأدشية ومحاكمهم المستقلة. ولا يكف اليهود القوميون عن التباكي على حالة العزلة التي وصلت إليها هذه المدارس والجرائد. غير أنه في المناطق التي شهدت قدوم مستعمرين يهود، بأعداد كبيرة، ولاسيما في بيروبيدجان، يمكننا ملاحظة نوع من «النهوض القومي»[152].

وتظهر الحياة أن الانقسام الذي يمزق اليهودية، أي الاندماج أو المركزة الإقليمية، ليس بذي أهمية إلا للحالمين البرجوازيين الصغار. إن الجماهير اليهودية لا تتمنى إلا نهاية لعذابها. والاشتراكية وحدها قادرة على تحقيق هذه الأمنية. وعلى الاشتراكية أن تحقق لليهود، كما للشعوب الأخرى، إمكانية الاندماج وإمكانية الحياة القومية الخاصة على حد سواء.

أهذه هي نهاية اليهودية؟ بالتأكيد. وبالرغم من الخلاف القائم بين دعاة الاندماج والصهيونية، هذا الخلاف الذي لا حل له في الظاهر، فإن الجانبين متفقان على محاربة اليهودية كما عرفها التاريخ، أي يهودية الشتات المركنتيلية، والشعب-الطبقة، ولا يكف الصهاينة عن الترديد بأنهم يريدون خلق شعب يهودي جديد في فلسطين، يختلف تماما عن يهود الشتات. وهم يتخلون، باشمئزاز، عن اللغة والثقافة أثناء فترة الشتات. وفي بيروبيدجان، في أوكرانيا وفي حوض (الدونيتز)، يخلع الرجل العجوز ثوبه التقليدي. لقد لفظ التاريخ حكمه نهائيا على الشعب-الطبقة واليهودية التاريخية. ولا تؤدي الصهيونية، بالرغم من كل طموحاتها التقليدية، إلى «نهضة قومية»، ولكنها سوف تؤدي، في أحسن الأحوال، إلى بداية تولد قومي. وليس ثمة تشابه بين اليهودي الجديد ويهودي فترة الشتات أو مرحلة سقوط القدس. فالفلسطيني الشاب الذي يفتخر بالتحدث بلغة باركوكبا سوف يجد صعوبة في التفاهم مع هذا الأخير. فلقد كان اليهود في العصر الروماني يتكلمون الآرامية والإغريقية بسهولة ولم تكن لديهم إلا مفاهيم بسيطة عن العبرية. وإلى جانب ذلك، أخذت اللغة العبرية الجديدة تبتعد، بقوة الأمور، أكثر فأكثر عن لغة التوراة. وساهمت عوامل عديدة في إبعاد اليهودي الفلسطيني عن يهودية الشتات.

وستختفي اليهودية «الأبدية» التي لم تكن قط إلا خرافة. وإنه لمن الصبيانية أن نطرح تناقضا بين الاندماج و«الحل القومي». وحتى لو افترضنا قيام أوطان قومية لليهود، فإن ذلك سوف يؤدي، إما إلى تكوين أمة يهودية تختلف تماما عن الأمة القديمة، وإما

[152]- لم تعالج القضية اليهودية في روسيا، هنا، إلا بشكل عابر. –المؤلف-

إلى قيام أمم جديدة. ففي الحالة الأولى، سوف تتأثر الأمة الجديدة بسكان البلاد الأصليين، إلا طُرد هؤلاء وجرى التقيد بشدة بتعاليم «عزرا» و«نحميا».

وسوف تؤدي الاشتراكية، بصورة حتمية، إلى إقامة ديموقراطية واسعة في الإطار القومي، وسوف تعطي اليهود إمكانية حياة قومية في البلاد التي يقطنونها، وسوف تقدم أيضا إمكانية التمركز في أرض أو أراض عدة، بدون المساس بمصالح السكان المحليين. ولا يمكن حل المسألة اليهودية، بأقل قدر من الآلام، إلا بتحقيق ديموقراطية بروليتارية واسعة.

ومن الواضح أن نمو حل المسألة اليهودية مرتبط بالنمط العام لبناء الاشتراكية. وليس التناقض القائم بين الاندماج والحل القومي إلا تناقضا نسبيا، والحل القومي ليس سوى مقدمة لعملية الاستيعاب. وليست الأمم، تاريخيا، إلا حصيلة عملية تمازج من الشعوب والعروق المختلفة. وليس من المستبعد أن تقوم أمم جديدة مؤلفة من تمازج أو حتى من تشتت الأمم الموجودة حاليا. ومهما كانت الأحوال، فعلى الاشتراكية في هذا المجال أن تترك الأمور «تجري على طبيعتها».

وسوف تنمو الاشتراكية في هذا المضمار، على غرار مجتمعات ما قبل الرأسمالية. فالرأسمالية متى أرست القضية القومية على أسس الاقتصادية، خلقت عداوات قومية لا تهدأ، وفي العهود السابقة للرأسمالية كان السلوفاك والتشيكيون والألمان والفرنسيون يعيشون في وئام تام، ولم تكن الحروب ترتدي طابعا قوميا، بل كانت تدور بين الطبقات المالكة. وكانت سياسة الدمج القسري والاضطهاد القومي مجهولة في عصر الإمبراطورية الرومانية، وقد تبنت شعوب بربرية، بملء خاطرها، الحضارة الرومانية الهيلينية.

وليست التناقضات القومية والثقافية واللغوية الموجودة في أيامنا هذه إلا ظاهرة من ظواهر التناقضات الاقتصادية التي خلقتها الرأسمالية، ومع زوال الرأسمالية، سوف تفقد القضية القومية كل حدتها. وإذا كان من السابق لأوانه التحدث عن اندماج عالمي بين جميع الشعوب، فإن الاقتصاد المخطط على النطاق العالمي سوف يتيح تقاربا كبيرا بين الشعوب. وليس من الحكمة مطلقا أن نستعجل هذا الاستيعاب بوسائل اصطناعية، إذ قد يؤدي ذلكم إلى نتائج معكوسة خطرة. ولا يمكننا أن نتصور، منذ الآن، أن تتم «الولادة» اليهودية الحالية، لكن سوف تسهر الاشتراكية على أفضل الظروف الممكنة.

كانون الثاني 1942

أبراهام ليون
المفهوم المادي للمسألة اليهودية

ليون والمسألة اليهودية

بقلم:مكسيم رودنسون

إن إعادة نشر كتاب أبراهام التي نفذت نسخه وباتت شبه مفقودة هي بادرة سياسية ومشاركة هامة في مسؤوليات «الجبهة الإيديولوجية» المقفرة تقريبا وعطاء للتفكير الاجتماعي الجاد الذي يعالج مشكلة كانت –وبقيت لمدة طويلة- ميدانا حرا للهذيان الإيديولوجي الجانح نحو الأسطورة..

هل نحن هنا أمام جبهة إيديولوجية متداعية تفتقر إلى أسباب الحماية الذاتية؟.. لا ريب في ذلك، وإذا كان لهذا التعبير –الذي شاع استعماله في أكثر من مناسبة لغايات مشبوهة- بعض الصحة أو القيمة.. فهذا ما ينطبق على هذه الحالة بالذات. وفعلا، إن المؤلفات التي تقع داخل إطار الخط الإيديولوجي والعلمي الذي سار عليه ليون، والتي يمكن أن تقع عليها اليد في المكتبات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة..

ويمكن للمرء ألا يشارك ليون مواقفه السياسية –خاصة بعد مضي عشرين عاما عليها –ولكن لا يسعه إلا أن يقدر ما اتسمت به من وضوح وجرأة. ومن ناحية ثانية أنني لا أحب كثيرا تعبير «مادي» الذي لم يحاول ماركس مطلقا أن يستعمله في تحديد موقفه في مجال التحليل الاجتماعي-التاريخي الذي هو عرضة لأكثر من معنى، ولكن تاريخ اللغة الإيديولوجية لم يزدنا –حسب معلوماتي- منذ قرن ونصف القرن بأفضل منه لتعريف أو تحديد ما يتعارض مع المثالية التاريخية، وكنت أفضل استخدام تعبير «ماركسي»، إلا أن ذلك يلزمنا أن نقول بدقة أية ماركسية نعني، لاسيما وأن أمامنا أشكالا كثيرة من الماركسية التي أفرزت الكثير من الأساطير.

وعلى كل حال، مهما كانت الكلمات أو التعابير، فالمهم هو أن ندرك ما تعنيه، ويمكننا كذلك ألا نؤيد جميع ملامح اتجاه ليون الإيديولوجي، ولكن من الضرورة بمكان توضيح الجوانب الأساسية التي يمكن أن يتفق عليها المؤلف مع أولئك الذين يريدون سلوك طريق في التفكير بالقضية اليهودية وبناها وصيرورتها تختلف عن طريق الذين تتغذى أفكارهم بأساطير القومية المثالية..

ولنحاول الآن أن نحدد بشكل أدق الموقف المشترك الذي يحتويه الخط الماركسي، إذا كانت «المشكلة اليهودية» هي المكان الممتاز للهذيان الإيديولوجي، فإنها ربما توفر المجال كذلك لتحديد مقومات هذا الموقف –وبصورة أوضح من سواها- وتعريف موقف الخصوم.

إن معظم الجماعات العرقية –أي تلك التي تنتمي كل منها إلى عرق واحد- والشعوب والأمم التي عاشت منذ أو خلال قرون طويلة وجودا تجسد بمعطيات ملموسة دائمة وثابتة ومشتركة –لدى الجماعة الواحدة- هي الأرض واللغة والتاريخ، الخ. وأن أكثر المنظرين مثالية لا يمكنه إلا أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الأساس المادي المتين الذي يفرض على الأقل على التنظير المثالي حدوده الجلية والمستقيمة.

وعلى العكس من ذلك، جرى تعريف فئة اليهود عبر آلاف السنين بمقاييس مغايرة بصفة دائمة. فخلال القسم الأكبر من هذه المرحلة التاريخية افتقرت هذه الفئة إلى الركائز المحسوسة التي تحدثنا عنها، ونفيت صفات العرق والشعب والأمة بكل ما في هذه الكلمات من معنى في أثناء فترة ألفي سنة، مضافا إلى ذلك أن هذه الفئة يمكن تعريفها بأشكال مختلفة، حسب النظر إليها من الداخل أو من الخارج. ودارت مناقشات حامية وغامضة بين صفوف اليهود وأعدائهم وأصدقائهم، على حد سواء، لتحديد «من اليهودي؟» بدون أن تؤدي هذه المناقشات في أغلب الأوقات إلى نتيجة واضحة..

وأتاح هذا الغموض المجال الملائم للتنظير المثالي، وحتما يمكننا أن نصف بالمثالي كل نظرية تفترض مبدئيا بأن وجود الشعب اليهودي وكأنه شيء ضروري وأساسي، وفي الواقع مثلما أن أي امرئ لا يمكنه أن يتصور التدمير الجذري والكلي لأسس الشعب الفرنسي الموضوعية «اللغة، والتاريخ، والثقافة، والأرض، الخ، المشتركة»، وبالرغم من المشاكل التي تنجم عن

تحديديها.. فإنه ليس هناك من يفكر بالفصل الكامل والتام بين وجود هذا الشعب وبين هذه الأسس، أو من يرى فيها ضرورة قصوى أو أمرا حاسما. وبالعكس أن التبدل الدائم –عبر التاريخ- الذي أصاب الأسس الملموسة للكيان اليهودي، وكون هذه الأسس كانت جميعها مهيأة للتلاشي، فقد أوشك الكيان، في أكثر من مناسبة، أن يضمحل وأن يذوب، وأن ضرورة استمراره لا يمكن استخلاصها إلا من خلال إرادة تؤمن بنظرية مسبقة ومطلقة بالتاريخ، أو من خلال إلزام معنوي قادر على فرض نفسه لو لم تتوفر له الظروف المناسبة..

وأن صفة التغيير الدائم للكيان اليهودي، التي وجدت موضوعيا على امتداد شتى الحقب، من شأنها أن تؤدي بصورة طبيعية – فيما لو سلمنا بضرورة استمرار هذا الكيان عبر التاريخ- إلى البحث عن قاعدة مشتركة لمختلف الأشكال التي ارتداها وجوده – أي وجود الكيان- قاعدة لا تقوم على الأسس الموضوعية المذكورة قبل قليل، بمعنى آخر هو أن ننسب إليها جوهرا ما، وأن صفة الضرورة التي نلبسها إياها تؤدي بها إلى استحالة إخضاعها إلى قوانين التاريخ العادية.

وهكذا نصل إلى مختلف نظريات التاريخ اليهودي التي يمكن أن نسميها بالنظريات القومية ذات الغايات المحددة -«تليولوجيك»- ، ومن بين غايات هذا التاريخ المحافظة على وجود الشعب اليهودي بالرغم من كل القوانين التاريخية حتى ولو اقتضت الضرورة انتهاكها بقصد تأمين هذا الغرض.

وهذا ما يظهر حتى في أكثر النظريات القابلة أكثر من سواها للأخذ بعين الاعتبار بمجمل العوامل الموضوعية، والمقصود هنا نظرية سيمون دوبنوف. وبالمناسبة ينتقد هذا المفكر النظرية الدينية والنظرية الروحانية، وهذه الأخيرة تعتبر التاريخ على أنه يمثل فقط الاضطهاد وجهد الإبداع الفكري والثقافي. ولقد كان دوبنوف على حق حينما قال: «إن اليهود قد صنعوا بنشاط جم – عبر تاريخهم وفي شتى البلدان التي أقاموا فيها- ليس في حياتهم الروحية فحسب، بل وحياتهم الاجتماعية كذلك»، وقد ساعدته وجهة النظر الخصبة هذه على اكتشاف آفاق مثيرة ومفيدة، وعلى عدم الاعتماد على نظريات ترتبط بمثالية بحتة تخطاها علم التاريخ في حقول أخرى.. ومثال على ذلك أن دوبنوف كان يرى في «شيع» اليهودية التي كانت منتشرة في العصرين الإغريقي والروماني «كالفريسيين، والصدوقيين، الخ» أحزابا سياسية-دينية لها مواقفها المختلفة من المشاكل السياسية والاجتماعية – وكانت هذه الخلافات تعبر عن نفسها في الحقل الإيديولوجي بنظريات وآراء دينية متناقضة- أكثر تجمعات تتمحور حول انشقاقات دينية معينة.

ولكن دوبنوف، بالرغم من جهوده التي تستحق التقدير ومن تأكيده على أنه لا يريد «تقييم الأحداث من خلال عقلية قومية»، فإنه عندما يعتبر بأن «إمكانية الاعتراف للشعب اليهودي بأنه قد خلق مصيره الذاتي في الوقت الذي يدين فيه تطرف العقيدة الدينية، أو يبرر هذا التطرف بأنه وليد الرغبة في الدفاع عن النفس»... عندما يسلم دوبنوف بهذه المقولة، فإنه يسقط في فخ المثالية بنظريته عن «الأمة اليهودية» التي يشبهها «بالجسم الحي» الخاضع لقوانين التطور، ويقول أيضا: «أن اليهود في خلال مرحلة التشرد والتشتت، والمرحلة التي سبقتها –حيث كانوا يشكلون دولة- كانوا أمة متميزة وليس جماعة دينية تعيش وسط غيرها من الأمم». وهكذا ينساق دوبنوف، بسبب اعتقاده بالجسم القومي، إلى الوقوع في عدة مغالطات مماثلة لتلك التي حاول أن يتفاداها بمنطقه الاجتماعي.

بالتأكيد أنه لتقدم كبير أن يعتبر المرء أن الشعب اليهودي أثناء التاريخ القديم، سواء عندما كان مستقلا، أم «محميا» أو مشردا، لم يكن وجوده مقصورا على تأمل فكرة الوحدانية.. وأن الجماعات التي عاشت مشردة في القرون الوسطى –وتعيش الآن- هي مجردة كائنات تقوم حياتها أو وجودها على النشاط الفكري الذي تبديه أو الاضطهاد الذي تلاقيه. ومن المؤكد أنه ينبغي علينا أن نقر، مع دوبنوف، بأن هذه الكيانات المختلفة كانت تعبر عن ميل عام لدى الجماعات الاجتماعية للمحافظة على بقائها، فضلا عن رغبتها في حماية مصالحها وأمانيها وطموحاتها والدفاع عن الفوائد التي تجنيها أو توسيع نطاق هذه الفوائد.. وهذا ينطبق على الجماعات في حد ذاتها وليس على الجسم الأسطوري الذي يدمجها في كيان دائم على مدى التاريخ..

وإذا كانت الاستمرارية التاريخية لهذه التجمعات المختلفة هي بديهية، وإذا كان بعضها يتكون فوق بقايا تلك التي تزول وتموت، فإن ذلك لا يعني ضرورتها، وبكلام آخر أن هذه الكيانات مجرد تعبيرات وتجسيدات لواقع بقي قائما عبر التاريخ، هو «الشعب اليهودي الخالد» الذي يبحث عن تأكيد ذاته بأشكال مختلفة على امتداد القرون، تدفعه أو تحركه ضرورة داخلية –كما هي الحال لدى الأجسام الحية- لكي ينمو وينضج «وربما لكي يموت؟».

وكما يرى أحد المؤرخين الكبار «سالو بارون»، لقد انتهى دوبنوف إلى الوقوف إلى جانب المؤرخين المثاليين الذين انتقدهم، لأن الأولوية التي يعطيها –كما فعل احاد هاعام- لهذا العامل التاريخي الذي هو «أشبه ما يكون بالإرادة القومية المستقلة ذاتيا التي تتمتع بقوة محركة قادرة على تشكيل مصائر الشعب، والتي في سبيل مصلحة المحافظة على بقاء الذات القومية العليا بذلت جميع جهودها لتحقق التكيف الضروري المطلوب حسب المكان والزمان».. هذه الأولوية جعلت من عقيدة دوبنوف مجرد واحدة من المغيرات التي تتكون منها نظرية المؤرخين اليهود الإنسانيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر.. وحسب هذه النظرية «كما هي الحال مثلا لدى جرانيز» تأخذ «الروح اليهودية» مكان الخالق كعامل حاسم، ويصبح التاريخ اليهودي قائما على «التقدم التدريجي الذي تحرزه الروح اليهودية القومية أو الدينية أثناء تغيراتها المختلفة للتلاؤم مع شتى الظروف».

ولكن س.بارون، مع وضوحه، قياسا بدوبنوف، هو الآخر يسقط في تيار المثالية القومية، وأن مسعاه «الاجتماعي-الديني»، حيث لا يأخذ الدين مكانه الاستثنائي وسط العوامل الاجتماعية إلا بسبب الوضع الاستثنائي لليهود المشتتين –يمثل هو بدوره خطوة كبيرة إلى الأمام، ولا يمكن إنكار هذا الدور الاستثنائي الذي تلعبه الإيديولوجية الدينية، كربط أساسي لدى الجماعات المبعثرة، غير أن البحث عن عامل موحد في التاريخ اليهودي يؤدي ببارون إلى التسليم بضرورة ربط التجسيدات المتوالية لليهودية وإلى التفتيش عن سرها في الصفة الخاصة التي تتميز بها الديانة اليهودية –الديانة التاريخية حسب تعريفه. ولذا فإن الديانة اليهودية لا يجري فقط إبرازها وإظهارها –وهذا شيء مشروع- بل أنها تطرح على أنها عامل لا يخضع لأي شرط من الشروط ومنفصل عن الحياة الحقيقية للجماعات القومية اليهودية التي يعطيها أهمية كبرى..

وإن جميع هذه التفسيرات المثالية «بنسب متفاوتة» للتاريخ اليهودي هي إيديولوجية، ونعني بذلك أنها مستوحاة من الرغبة في إثبات «أو على الأقل للإيحاء بصورة غير مباشرة» ما تردده من مقولات، وهذه بدورها تلبي ضرورات ليست علمية، وإنما تجريبية وحياتية لضمير الفرد أو الجماعة. ويتعلق الأمر هنا بالناس أو الجماعات التي تحتاج إلى إرساء وجودها على فكرة البقاء الدائم والضروري لليهودية، كتجمع بشري ديني أو زمني، وهكذا يبد و لي على كل حال تشويها لنظرتهم الاجتماعية-التاريخية، ولكن مثل هذه النظريات، إذا نظر إليها من خلال ما تعنيه إيديولوجيا فقط، قد تكون عبارة عن مجموعة إيديولوجيات مختلفة. وقد يتعلق الأمر هنا بالإيديولوجية الدينية أو القومية التي يهتم بها الخالق، بالمحافظة على بقاء الشعب المختار «وقد انتقد هذه النظرية الوثنيان سيلس وجوليان لابوستا»، أو بالإيديولوجية القومية العلمانية التي تعتبر أن الأمة اليهودية هي قيمة عليا، وقد يقصد أيضا الإيديولوجيات العالمية الدينية أو العلمانية. ويمكن أن يكون اختيار إسرائيل من خلال النظرة الدينية خاضعا لمخطط سماوي غايته خير البشرية. أما النظرية العلمانية بالمقابل، فإنها، مع استبعادها لفكرة تقديس الجماعة العرقية، تعارض الرأي الذي يقول بامكانية اضمحلال كل شكل يرتديه الكيان اليهودي. ولذا فإن المرء ميال بأن يبحث وأن يحدد تعريفا للقاعدة المكونة من مجموعة القيم الدائمة المرتبطة بوجود شتى كيانات الماضي اليهودية، وأن يلح ماضيا وحاضرا على ضرورة العلاقة بين مجموعة من القيم وبين الجماعة اليهودية، وهذا يعني بالتالي أن مصلحة الإنسانية بأكملها تقضي بأن تبقى هذه الجماعة اليهودية موجودة للمحافظة على قيمها والتعلق بهذه القيم.

ومهما كنا متصلبين في موقفنا من محاولات إعادة البناء الاجتماعي-التاريخي المثالية أو الدينية، فإنه من البديهي ومن الواجب أن نحدد بوضوح الفروقات بين شتى الإيديولوجيات التي ترتبط بها. ولا يمكن «للمادي» العالمي أن ينظر إلى الإيديولوجيات القومية الدينية أو العلمية بنفس الطريقة التي ينظر فيها إلى تلك التي تمنح خدمة الإنسانية المكان الأول.

وأمام هذه النظريات المثالية في التاريخ اليهودي، ينبغي أن يضع المرء بالمقابل النظريات التي يسميها التقليد الماركسي –من خلال أ.ليون- «بالمادية». ولنحاول أولا أن نحدد المصادر الأساسية التي استوحيت منها قبل أن نتفحص ما إذا كانت هذه التسمية مبررة من جميع الجوانب..

من زاوية الدرس الاجتماعي-التاريخي، أن أولئك الذين يتبنون هذه النظريات ينطلقون من اتجاه منهجي أساسي، وهم لا يريدون الاعتراف بأي امتياز علمي لشتى كيانات الماضي والحاضر اليهودية. لقد كون اليهودي جماعات وفئات لها صفاتها الخاصة، وربما حتى الاستثنائية بمعنى أن مجموعة القوانين والظروف استطاعت أن تؤدي إلى أنماط من التكوينات والتطورات لا يقرها أو يؤديها الآخرون، ولكن هذه الأنماط ليست استثنائية، لأن القوانين العامة التي تحكم تاريخ الجماعات لا تنطبق عليها.

ومن الزاوية المنهجية، يجب التنبه من عدم الانسياق مع فرضية فعل الديناميكية التاريخية التي لا ترتكز إلى قاعدة قوى يمكن تحليل حركاتها –ميكانسمية- من خلال عوامل معروفة من الآخرين ضمن إطار التاريخ الشامل للمجتمعات الإنسانية.

ولكن هنا كما هي الحال هناك –وهذا اتجاه منهجي آخر.. اتجاه علم الاجتماع الماركسي المشتق في آن واحد من عموميات التجربة التاريخية ومن استنتاجات الفكر- لا يمكن للمرء أن يعرف أو يدرك قاعدة القوى التجريبية التي تفسر فعل «روح ما» ثابتين يتميز بهما شعب أو حضارة بمعزل عن الأوضاع التي تحيط بهما، ولا يمكن الحديث عن «روح غربية» أو «روح صينية» لا تخضعان لشروط ما، إلا أنه يمكن على الأقل لمجموعة من المعطيات التجريبية الثابتة نوعا ما أن توفر ضمن شروط معينة أسباب الاستمرار والبقاء للعوامل المثالية التي ترافقها، ولكن في حالة كحالة الكيانات اليهودية التي توالت على امتداد التاريخ يجد المرء معطيات تجريبية ثابتة أقل مما يجد الحالات الأخرى.

ولذلك لا نرى في أية من القواعد التجريبية أنه يمكن أن ترتبط ما يطلق عليها اسم الروح اليهودية.. الروح التي تماثل ذاتها دائما والمستقلة عن قضايا الزمان والمكان والبنية الاجتماعية، بالتي تدفع في نفس الاتجاه الجماعات اليهودية ذات الطبيعة المختلفة. وطبعا ليس هناك من يشك في تأثير الدين اليهودي على مصائر اليهود أنفسهم، ولكن الدين اليهودي، كسائر الأديان، تغير على مر الدهور، مرتديا نفس الأشكال للتعبير عن محتويات مختلفة كما بيَّن بارون ذلك. ولا ريب كذلك في أن بعض الملامح قد استطاعت أن تبقى ثابتة ولم تتغير عبر التاريخ. ومن واجب أولئك الذين يؤكدون ذلك أن يبرهنوا على فاعليتهم ومدى تأثير هذه الفعالية وكيفية حريتها -«ميكانيَّة»- ولا يبدو لي بأن هؤلاء قد اثبتوا أن بعض النواحي الثابتة في الدين اليهودي «العنصر الدائم الوحيد في التاريخ اليهودي» قد تمكنت من أن تؤدي إلى نشوء ميل للمحافظة على وجود يهودي أخذ قوالب هي في غاية الاختلاف، ولإحلال تكوين مكان آخر تحت تأثير فعاليتها فقط. وأقل من ذلك إمكانية إدراك تأثير أو فعل «الروح اليهودية» التي تقع في مكان ما بين السماء والأرض والتي تتحرك بطرق مجهولة لا تتغير وغير خاضعة لأية شروط تمليها عادة عوامل التاريخ الإنساني.

إن تعبير ماركس الذي يقول فيه بأن اليهودية قد حافظت على ذاتها، بالتاريخ لا بالرغم من التاريخ، ليست مقولة صوفية أو فلسفية غير معروفة المصدر، بل هي بكل بساطة ضرورة منهجية يفرضها أي تاريخ علمي.. وينبغي تفسير التاريخ اليهودي بالعوامل التاريخية العادية، وهذا ما يمكن أن يقبل به حتى أصحاب العقول الدينية، إذا سلموا بفكرة أكدتها الأديان العالمية الكبرى منذ آلاف السنين من أن الخالق يعمل أو يؤثر عن طريق الأسباب الثانوية. ومهما قيل حول ذلك، بان التفسير الكامل إذا كان الوصول إليه في هذه الحالة أو في سواها لا يمكن أن يتم إلا بواسطة الجهد الدؤوب والمستمر من جانب المؤرخين الاجتماعيين وإذا كان المرء لا يأمل سوى أن يقلل تدريجيا من حيز الشكوك والغوامض.. ألا يمكنه على الأقل أن يؤكد بأن شيئا ما في التاريخ اليهودي لا يقنع بطريقة محتمة بالحاجة إلى الاستعانة بفعالية القوى الصوفية خارج إطار الحركات العادية لتاريخ الإنسانية الاجتماعي.

وهكذا.. لا ينبغي تفسير واقع الحياة الملموسة للجماعات ولا النفسيات اليهودية الفردية بالترجمة إلى وقائع الظواهر المثالية التي لا تخضع لشروط ما. فالظواهر المثالية هي موجودة ولا شك، إلا أنه لا صلة لها بالظواهر السطحية والعرضية، وهي لها فعالية ذات أهمية بالغة، ولكن لا يمكن اعتبارها مهما كانت الأحوال ظواهر معدومة الأسباب، وغير مشروطة بالتالي غير قابلة للتغيير. وأنه من الممكن دائما تحليلها من زاوية ديناميكيتها بحكم ارتباطها من ناحية بماضيها وبوضعها خلال مرحلة سابقة، ومن ناحية ثانية بحكم علاقتها بالوضع المحسوس حيث توجد الجماعة التي تشكل الدعم الحي لها..

إن دراسة المركبات الاجتماعية-التاريخية التي أثرت في التاريخ اليهودي -والذي سار حسب هذا الخط غير المثالي- لا تبين بالضرورة صحة الرأي الذي يقول بأن العوامل الاقتصادية هي وحدها العوامل المؤثرة، وهذا ما كان ليون يميل إلى الاعتقاد به في بعض الأحيان، وما قد يوحي به تعبير «مادي» -وحدث ذلك فعلا- إلى الكثيرين.

فالأوضاع الملموسة التي تحدثنا عنها لا تعرف فقط بتعابير اقتصادية، ولا تقتصر فقط على أوضاع اقتصادية ومن الأفضل أن نعرف أولا ما نعنيه بكلمة اقتصاد. وفي بعض الأحيان يعطي بعضهم لهذا التعبير تعريفا ضيقا يبرر النقد الذي يوجه إليه... وعلاوة عن أن ماركس لم يبشر مطلقا بدعوة اقتصادية صرفة، وأن النشاط الاقتصادي في معناه العريض يلعب دوره –وهو دور هام بالتأكيد- في حركة التاريخ الديناميكية، وجل ما فعله ماركس هو أنه قد عرف وأشار إلى هذا الدور الذي لم يكن يثير الاهتمام حينذاك.

وفي التاريخ القديم، كانت هناك جماعة من اليهود من النوع القومي تتميز –فيما تتميز به- بديانة قومية حسب القاعدة الشائعة في ذاك العصر، وقد خضعت الأمة العبرية ثم اليهودية للاتجاهات المألوفة لدى الجماعات ضمن إطار الظروف الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية والثقافية التي كانت قائمة خلال تلك الحقبة، وقد كانت لها –أي للأمة العبرية- صفاتها الخاصة، وكان من نتائج تطور هذه الديانة ضمن إطار علاقتها بتاريخ الأمة أن أصبح لدى هذه الأمة إيديولوجيتها ذات الطابع الفريد من نوعه.

وقد طرأ على النبوة العبرانية واليهودية –وكانت ظاهرة شائعة في ذاك العصر- تطور خاص، وزود النصر الذي أحرزته الأمة اليهودية على الأمم المجاورة لها اليهود بقدرة على شق طريقهم وضمان المحافظة على وثائقهم وكتبهم التي كانت أدوات التعبير لديهم.. وتحول الرب القومي «يهوا» إلى رب عالمي فريد من نوعه ينفي وجود حتى بقية الأرباب القومية.

ويجب تفسير الهجرة اليهودية المكثفة التي حدثت في التاريخ القديم من خلال العوامل التي كانت ذات تأثير حينذاك، وبالدرجة الأولى العوامل الاقتصادية، فقد انقسمت الأمة اليهودية إلى قسمين، فريق يتألف من اليهود المشتتين الذين انتظموا في جماعات محلية متعددة، وفريق يتكون من أولئك أقاموا في فلسطين وأطلق عليهم اسم «اليشوف». وهذا الفريق الثاني كما يقول ليون لم يقض عليه تماما حيثما دمر بومبي الدولة اليهودية عام 63 قبل الميلاد، ولا عندما قام تيتوس وادريان بسحق الانتفاضات اليهودية التي حدثت أثناء القرون الأولى التي تلت ميلاد المسيح، خلافا لما جاء من مبالغات في القصص التي روجت لها بعض الأوساط المسيحية وأنصار الحركة القومية اليهودية الدينية والعلمانية، والذي حدث فقط هو أن أهمية «ليشوف» تضاءلت –وبالدرجة الأولى تحت تأثير عملية الاندماج مع سائر السكان في فلسطين- وتحول هؤلاء إلى جماعة تعيش جنبا إلى جنب مع بقية الجماعات غير اليهودية.

وقد اختفى الكثير من هذه الجماعات اليهودية المبعثرة في العالم من خلال اندماجها الكامل في المجتمعات التي كانت تعيش فيها عن طريق اعتناقها الدين أو الديانات المسيطرة في تلك المجتمعات «وكانت الوسيلة الوحيدة الممكنة حينذاك»، وبعضها الآخر انخفض عددها وتضاءل بسبب تكاثر حالات الاندماج الفردية لكثير من أبناء هذه الديانة –أي اليهودية-، ومع ذلك، احتفظت أعداد كبيرة من هذه الجماعات بديانة الأجداد، ونجحوا في كثير من الحالات بإقناع عناصر جديدة بديانتهم، وتمكنهم من الإبقاء على الملامح الثقافية النابعة من هذه الديانة –والصلات القائمة بينها- -أي بين الجماعات- وبالرغم من أوجه الخلاف الموجودة بينها..

كيف يمكن تفسير هذا الاستمرار إذا تم التراجع عن التفسير الديني القائم على الإرادة الإلهية، أو عن التفسير المثالي القومي «وهو بشكل من الأشكال أقل عقلانية» المرتكز إلى العوامل الغامضة التي فرضت إرادة الحياة القومية على هذه الجماعات المتعددة؟؟

وقد ردد أبراهام ليون لتفسير هذا الواقع نظرية الشعب –الطبقة التي أوصى بها ماركس، وحددها بصيغة أوضح ماكس ويبير: لقد كان اليهود في الهند يشكلون نوعا من فرقة -«كاست»- ويحافظون على وجودهم حتى في عالم بدون فِرَق. وهذا التفسير كان له بعض القيمة أثناء الفترة التي تلت الحملات الصليبية في العالم المسيحي بوجه خاص، وذلك ضمن بعض الحدود كما سنرى بعد قليل. ولكن ليون لا يرى كيف أنه بقفزة واحدة قد اجتاز مسافة ألف عام على الأقل حيث لا يلعب هذا العامل أي دور كان.

فقد جرى في الماضي –لا شعوريا وبصورة مغايرة لما هو مألوف- تحديد صفات طبعت بالدرجة الأولى أوروبا ما بعد الحملات الصليبية وألصقت بصفة غير طبيعية سائر المجالات الثقافية. فاليهود القدامى، وحتى أولئك الذين عاشوا في التشرد، لم يهتموا بالتجارة بوجه خاص. وقد ضل ليون طريقه حول هذه النقطة عندما تأثر بالمؤرخين الذين استعانوا حينذاك بوثائق ومعلومات غير وافية، ووقعوا تحت تأثير الاتجاه الذي يقوم على تطبيق ظروف العصر الحاضر على ذاك العصر القديم كما أشرت إلى ذلك قبل قليل.

وفي مصر، وتحت ظل الإمبراطورية الرومانية، كتب مؤرخ عرف بإلمامه الواسع بتاريخ اليهود المصريين، فقال: «لقد كانوا شحاذة وسحرة وباعة متجولين، وحرفيين وتجارا من كل نوع، وباعة آثار وأدوات قديمة، ومرابين، وصرافين، ومزارعين، ومزارعين بالحصة، وعمال وبحارة.. وباختصار لقد مارسوا جميع المهن التي يمكن أن يجنوا من ورائها فائدة ما». وأشار س.بارون بأن هذا الوصف «ينطبق مع بعض التعديلات الطفيفة على سائر البلدان التي تشرد فيها اليهود».

وفي أواخر القرن الأول كتب فلافيوس جوزيف قائلا: «إننا لا نقيم في بلد بحري، ولا نهتم بالتجارة.. وبما أننا نعيش في بلد خصب، فإننا نعمل في الزراعة بجد ونشاط». وفي أوروبا الغربية، قبل القرن الحادي عشر، طرح «بلومكرانز» وجهة نظر جيدة ونوعا ما عميقة بين فيها كيف أن اليهود كانوا يعيشون بلا تفرقة مع سائر السكان الأوروبيون ويمارسون تقريبا نفس المهن

التي كان هؤلاء يتعاطونها. وكذلك الحال في العالم الإسلامي، فقد برهنت جهود «جواتين» المعروفة أن اليهود لم يكن هناك ما يميزهم عن السكان المسيحيين والمسلمين إلا في نطاق الدين والملامح الثقافية المرتبطة به مباشرة.

ولكن قبل العصر الحديث، كانت المجتمعات –ذات النمط القومي الذي سبق الأمم المعاصرة، والذي كان قد تجاوز البنية القبلية السابقة- تتميز بانغلاق داخلي شديد يرتبط –كما يبدو لي- بعدم كفاية عوامل التوحيد. فقد استطاع الاقتصاد الميركانتيلي والتجارة العالمية الكبيرة، والقوة النسبية لبنى الدولة المقبلة أن تحطم الحواجز بين القبائل أو بين التجمعات القروية، وأن تفرض روابط التوحيد على مستوى واسع إلى حد بعيد، ولكن الدولة بقيت القاعدة محدودة الامكانات والنشاط، وكان النقص الإداري –كما يسمى- هو القاعدة العامة وليست القاعدة الاستثنائية، وهذا ما دفع بالمسؤولين إلى إدارة شؤون بلادهم بواسطة مؤسسات متعددة تمثل نوعا من «الدول الصغرى» كانت في الواقع أشبه ما تكون «بالدول داخل الدولة الكبيرة».

وكانت مرحلة ما قبل الأمة عبارة عن إطار يحتوي تجمعات معظمها مستقلة ذاتيا تدير نفسها بنفسها وتخضع ضمن حدود طفيفة للدولة. وكان مظهر هذا الخضوع هو الضرائب التي كان يعطيها الحكام أهمية كبرى. وفي كثير من الحالات كان يفرض على هذه التجمعات المشاركة العسكرية، وكان عليها كذلك أن تحترم النظام العام والقانون، وخارج هذا النطاق كانت هذه التجمعات تعيش حياتها الخاصة. فكانت في نظر أعضائها تمثل المجتمع الشامل الذي يجب الخضوع له والذي يشعرون بأنهم يكنون جزءا منه، وكانت مصالحهم وتطلعاتهم تتشكل داخل إطاره كما هي القاعدة مع البنى التي سبقت عصر الفردية الحديث حيث يشعر المرء «في أحسن الأحوال» بأنه يرتبط بالدول التي تحكمه وتشرف عليه من فوق.

ولهذا.. كانت ممارسة هذا الميل إلى المحافظة على الذات ضمن إطار الوجود الذي يميز الجماعات الاجتماعية تعود بالفائدة أولا على هذه التجمعات. وكان هناك تركيب اجتماعي متسلسل يمثل حالة ما قبل الطبقية، كما كان يوجد نوعان من التجمعات التي تسبق عادة نشوء الأمة، ولكن فعاليتهما ووعيهما المشترك كانا يصطدمان بقوة البنى الاجتماعية المشتركة، ولم يتحررا إلا في المناسبات الكبرى وبوجه خاص في أوروبا المسيحية حيث ازدادت قوة السلطة في شتى المستويات بالتشريعات التي دعمتها.

وكان اليهود ينظمون ويديرون أنفسهم كيهود، ويقدمون أنفسهم للمجتمع كجماعة تعيش مع سواها من الجماعات الأخرى، وكانوا يميلون إلى البقاء كيهود ما دام ليس هناك سلطة قوية ترغمهم على التخلي عن هذا الميل، وكان حجم التجمعات يتغير من خلال علاقته بجميع أنواع العوامل، ولم يحدث مطلقا أن جرت ممارسة ضغط شديد ودائم في جميع البلدان في آن واحد، حيث يوجد يهود «أي في جميع أنحاء العالم» بقصد اقتلاع جذور هذه التجمعات التي كانت تحتويها من أساسها، وهذا ليس بالأمر الذي يثير الدهشة، بحكم تنوع وتعدد بنى الدول المستقلة التي عاشت في كنفها التجمعات اليهودية، وبحكم امكاناتها الضئيلة جدا قياسا بما تشهده الآن، وأن تدخُّل الحكومات الإرهابي غير كاف لتفسير وجود هذه التجمعات المتقطع وغير الدائم. وهكذا تتبدد «معجزة» البقاء اليهودي الذي استطاع أن يحافظ على نفسه ويثير إعجاب رجال الدين المسيحيين والقوميين اليهود بصور متفاوتة..

في الشرق الإسلامي –حيث بقيت ظروف القرون الوسطى أو معظم هذه الظروف قائمة تقريبا حتى يومنا هذا- ما تزال هناك طوائف وتجمعات موجودة منذ عدة قرون أو آلاف السنين مع أن أبناء هذه الطوائف والتجمعات لم يعد بينهم وبين العقيدة التي أدت إلى نشوء هذه التكوينات سوى علاقة واهية وضعيفة..

وعلى سبيل المثال، أن الدروز –وهم ينتمون إلى طائفة ظهرت خلال القرن الحادي عشر لها نظريا عقيدتها العلمية إلى حد بعيد والنابعة جزئيا من فلسفة الأفلاطونية المستحثة- هم عبارة عن فلاحين سوريين ولبنانيين يعرفون فقط بأن لهم تقاليد مغايرة لتقاليد الآخرين يديرون شؤونهم وكأنهم وحدة تشبه الأمة الصغيرة أو وحدة ما تزال في طور ما قبل الأمة ضمن إطار الدول المتلاحقة التي عاشوا في ظلها. وقد دافعوا بشدة عن هويتهم وخصائصهم ومصالحهم كمجموعة، وما زالوا مستمرين إلى حد بعيد في ممارسة نفس النمط من الحياة مع أن المظاهر الثقافية المشتركة تشدهم إلى سائر التجمعات الدينية، وبالرغم من أن لغتهم هي اللغة العربية، وينتمون –حسب المعايير المألوفة- إلى أصول عربية.. مضافا إلى ذلك كله ما تمثله إيديولوجية القومية العربية حديثا من قوة دافعة نحو الوحدة.

وكذلك.. كانت ردة فعل الإيديولوجيات الكبرى في الماضي من دينية غير قومية تجاه هذا الميل إلى الاستمرار في التعبير عن خصوصية ما، وقد كانت هذه الإيديولوجيات ضمانة وحدة الدولة، وكانت الممالك الإغريقية والإمبراطورية الرومانية دولا قوية ووحدوية وتتجلى بعض ملامحها في مظاهر الأمم المعاصرة، وكانت هذه الدول لا تفرض إيديولوجية واحدة على رعاياها تاركة المجال لتعدد الاتجاهات والعقائد، وكانت تكتفي فقط بطلب حد أدنى من الولاء ولم تفكر فقط بإزالة العنصر اليهودي، أما أسباب

النزاعات التي نشبت بين هذه الدول وبين إسرائيل فقد كان مصدرها –كما يبدو- تطرف هذا الشعب –أي الشعب اليهودي- في ميله نحو التمسك بخصوصياته الجانحة نحو الانفصال مما كان يثير القلق حول ولائه للدولة.

وقد تطورت «اليهودية» وهي ديانة إسرائيل، من عبادة قومية ترمي أكثر فأكثر إلى الرفض القومي لما عداها إلى عبادة عالمية ترفض سواها من العبادات. وكان يهوه قد رفض في بادئ الأمر كإله وحيد لإسرائيل، وكان يعتبر الإله الأقوى من آلهة سائر الأمم، وكان في وضع يؤهله ليصبح الإله الوحيد الموجود. وكان الكثيرون من «اليهوديين» يحتقرون سائر الآلهة احتقارا كان يذهب إلى حد نكران وجودهم. وقد قننت المدرسة اليهودية بكثير من الدقة الطقوس الخاصة التي كانت تميز الإسرائيلي الحقيقي والخادم الأمين ليهوه عن بقية الشعوب.

وضمن إطار المناخ الذي ساد العالم وقتئذ، وفي ظل الثقافة الهلينية، كان كثيرون من اليهود يريدون تطويع الديانة القومية مع الأفكار العامة التي كانت تعم الحضارات المجاورة. وقد دعم الابيقوري انطيخوس ابيفان هذا الاتجاه الاندماجي لمصالح وحدة الدولة وليس بدافع من الحماسة للآلهة الوثنيين، ومن هنا كان تمرد اليهوديين المتشددين الذي اتخذ في البداية شكل حرب أهلية بين اليهود، ثم انتهى إلى انتصار الاتجاه القومي المتطرف في إسرائيل، غير أن دولة إسرائيل الجديدة توصلت إلى نوع من التسوية مع دول المنطقة التي ضحت بدورها بالاندماجيين ورضيت بمميزات الديانة والطقوس اليهودية مقابل المصالحة السياسية مع المتطرفين المتعقلين. واقتدى الرومانيون فيما بعد بالإغريقيين وفضلوا القبول بخصوصيات اليهود وعاملوهم باحترام كبير وأعفوهم في الوقت ذاته من الخضوع للقانون العام انسجاما مع نظرياتهم الخاصة- أي نظريات اليهود.

ولم يحاول الرومانيون مطلقا خلال الحروب التي نشبت بين عام 66 وعام 70، ثم بين عام 132 وعام 135 تدمير خصوصيات العرق اليهودي، وكانت هذه الحرب عبارة عن عمليات قمع وجهت ضد المتمردين الذين كانوا يبغون الاستقلال السياسي مستغلين نقمة الجماهير على تعسف الموظفين الرومانيين وطمعهم. وكما هي الحال في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية، كانت دعوة الاستقلال تنتشر بالطبع بين صفوف الفقراء والمحرومين أكثر من سواهم، وبين أولئك الذين كانت مصالحهم وأمانيهم تتأثر بجور إجراءات السلطة الرومانية.

وكما اعتقد –بغض النظر عما يقوله ليون- يمكن اعتبار هذه الانتفاضات انتفاضات وطنية بالدرجة الأولى بالرغم من امتزاجها ببعض الحوافز الاجتماعية التي ترافق دائما الحركات القومية، والدليل على ذلك هو اضطرار طبقات اجتماعية وأفراد معادين لهذه الانتفاضات إلى الاشتراك بها. فعلى اثر إرهاق اليهود بالضرائب من جانب الوالي الروماني جيسيوس فلوريس، وأمام سلبية السلطة المركزية «وكانت تتمثل بنيرون» تجاه الشكاوي اليهودية وانفجار حركات الاحتجاج التي اتخذت إلى حد ما طابع العنف، وحملات القمع الوحشية، جعلت الفريق الذي يسميه فلافيوس جوزيف المتمرد والثوري والمحرض على الحرب يتغلب على الفريق الآخر الذي يشمل –حسب قول فلافيوس جوزيف- الأقوياء وأمراء الرهبان وأفراد الشعب المسالمين... «لقد نجحوا في كسب تأييد ما تبقى لروما من أنصار لقضيتهم إما عن طريق القوة أو بواسطة الإقناع»، وهذا ما حدث على الأقل في القدس، وكان الدليل على هذا الاتحاد المقدس انتخاب زعماء ثم اختيارهم بذكاء ومهارة من بين أفراد الفريق الثاني، وكان جوزيف من ضمنهم. وبعد أن تم الانتخاب وجرى الاختيار حدثت لدى الكثيرين ردود فعل كانت أكثر صدقا من ردة الفعل التي ينسبها هذا الأخير لنفسه –أي جوزيف-. فهو عندما تسلم منصب حاكم الجليل «كان يرى بوضوح في أي اتجاه يسير حل قضايا اليهود، وأنه ليس هناك من أمل لخلاصهم إلا بالاعتراف بالخطأ وطلب العفو، إلا أنه فضل أن يموت ألف مرة على أن يخون وطنه وأن يتخلى –بعار- عن المهمة التي أوكلت إليه بغية العيش بهدوء بين أولئك الذين كلف بمحاربتهم».

ولكن مجرى الأحداث، وانتصارات الرومان وحصار القدس الطويل، أدت إلى تفاقم التوترات الداخلية وجعلت الكفة تميل لجانب المتطرفين المتشددين ضد أولئك الذين يمكن أن يشك بهم لميلهم نحو المصالحة. ثم نشأت الصراعات بين شتى المتطرفين أنفسهم –وكانت الظروف قد جعلتهم ينقسمون إلى جماعات صغيرة- وسيطرت على المتمردين أكثر الاتجاهات ثورية، وكان هؤلاء يعادون كذلك الأغنياء وأصحاب النفوذ.

ومن البديهي أنه كان للعنصر الديني تأثيره في هذه الحرب، لاسيما أثناء الانتفاضة التي حدثت عام 132 وعام 135 حيث لعب الحاخام «أكيبا» دورا بارزا كموجه إيديولوجي، فكان الوطنيون باستطاعتهم أن يبنوا دعوتهم على بعض التعديات من جانب الولاة الرومانيين الفاسدين أمثال جيسيوس فلوروس على التقاليد الدينية اليهودية، وأن يستعينوا بالأفكار الدينية، غير أنه من الواضح تماما أن السب الحقيقي –للانتفاضات- كان الكفاح ضد الكبت السياسي، وكان كثيرون من المؤمنين يعتقدون بأن إيمانهم

لا يتنافى والخضوع لروما مع أنهم كانوا يرون الاحتجاج ضرورة عندما يسيء الموظفون الرومانيون إلى العادات الدينية لشعبهم.

وقد ذكر أبراهام ليون –لتدعيم وجهة نظره- أمثلة عن انتفاضات مشابهة حدثت خلال ذاك العصر في المقاطعات الرومانية، وكانت المطالب الاجتماعية في هذه الحالات كما هي حالة اليهود تلعب دورا مؤثرا في دفع الطبقات المحرومة إلى الانضمام للانتفاضة الوطنية، وكان باستطاعته أن يورد كذلك مثل الغاليين –وهو مثل حديث العهد تماما- الذي هو أقرب من سواه مع بعض التحفظات من حالة اليهود. ففي عام 69، وعلى إثر الاضطرابات التي سبقت وتلت سقوط نيرون، قاد الأمير الباتافي جوليوس سيفيليس شعبه إلى الثورة متذرعا بالإساءات التي ارتكبها الضباط الرومانيون، واهتم باحاطة دعوته للثورة بجو ديني، ودعا وجهاء قومه إلى وليمة كبرى «وليمة دينية ولا شك»، وألقى أمامهم خطابا تحدث فيه عن الأذى الذي لحق بهم تلاه قسَم أداه الحاضرون والتزموا فيه «بالمحافظة على الشعائر البربرية» ورأى الجرمانيون والغاليون في الثوار الذين ألهبت حماسهم نبوءات الجرمانية فيلادا «محررين» يريدون إنقاذ بلادهم، وأثارت نداءات سيفيليس إعجاب الغاليين، وخاصة عندما بلغهم خبر احتراق الكابيتول أثناء الصراع الذي نشب في روما عام 70 بين أنصار فسباسيان وفيتيليوس.

وكما حدث في القدس حدث مع الغاليين، فمزجوا بين ذكريات الماضي المجيدة وبين طموحهم بالخلاص مستقبلا، وذكرهم حريق المعبد الذي ارتبطت به عظمة روما ما كانوا قد فعلوه في الماضي عندما استولوا على المدينة نفسها، وبدا لهم أن هذا الحريق هو علامة على غضب الآلهة، ودفعت هذه العوامل –مضافا إليها اعتبارات واقعية هي أوضاع الرومانيين القاسية- الغاليين وأنصار جوليوس كلاسيكوس وجوليوس تيتور إلى الثورة وإلى إعلان قيام إمبراطورية الغال. وهنا يظهر الفرق بين ما جرى مع الغاليين وبين الاختبارات الفلسطينية. ففي الوقت الذي دخل فيه تيتوس مدينة القدس، عقد ممثلو المدن الغالية مؤتمرا في ريمس لتقرير الاختبارات بين أمرين: «الاستقلال أو السلام».. واستمتع الحاضرون إلى فريقين من الخطباء كان لكل منهما رأيه، فدعا جوليوس اوسبكس –وكان من ريمس- إلى الخضوع والسلام معيدا إلى الذهن ما دعا إليه الملك اليهودي هيرود اجريبا على غير طائل قبل أربع سنوات، وقد تماثلت حجج كل منهما: قوة الرومانيين، ضعف وانقسام الأمة المحكومة، الطابع العابر والمؤقت للإساءات التي يسببها سلوك موظفي السلطة، الخ.

وإذا كان دعاة السلام قد غلبوا على أمرهم في يهوذا، فإن السبب في ذلك لم يكن لأنهم كانوا يؤلفون الفريق الأضعف، فالانتفاضات التي توالت لم تجمع على تأييدها الأمة اليهودية بأسرها، وأنني اكتفي بما ذكره بارون الذي يلخص الوقائع جيدا: «يبدو أن السكان اليهوديين-السوريين، وكان عددهم كبيرا، لم يشاركوا في الانتفاضات الثلاث التي حدثت، بالإضافة إلى التناقضات الداخلية التي كانت تعم المناطق الثائرة نفسها. وخلال الحرب الكبيرة «من عام 66 إلى عام 70»، لم تقف البلديات اليونانية في فلسطين وحدها في وجه الجيوش الثورية، بل تصدت لها أيضا مدن تقطنها أكثرية يهودية كمدينة طبريا وسواها.. وحتى في دولة يهوذا، لم يتوفر الإجماع على الثورة. وفي القدس، غادرت جماعة المسيحيين الأوائل –وكانت صغيرة العدد- المدينة وأعلنت موقفا محايدا. أما زعماء الشعب الذين كانوا من ذوي النفوذ فعلا –من الصدوقيين أو الفريسيين- فقد قاوموا بشدة فكرة خوض حرب ضد روما. وقد ارتدت عمليات القمع الرومانية طابعا سياسيا وضرائبيا ولم تستهدف الشعب الفلسطيني ككيان سياسي.

إننا نرى بجلاء أن الأمر كان يتعلق سواء في يهوذا أم في بلاد الغال أم في الحالات الأخرى بالكفاح في سبيل التحرر الوطني. وإذا كان الرومانيون يريدون أن يؤمنوا سيطرتهم، فإنهم لم يحاولوا القضاء على جميع الخصوصيات، بل اكتفوا بمحاربة العادات المتصادمة أو المتعارضة مع نظرياتهم حول «الحضارة»..

وهكذا كانت الحال مثلا بالنسبة لعادة تقديم الضحايا البشرية لدى بعض الغاليين «بينما كانت تعتبر حفلات المصارعين الرومانية الدموية عادية!» وعادة الختان. وقد مثل ادريان التطرف في هذا المجال عندما حاول توحيد رعايا الإمبراطورية على اختلاف أصولهم العرقية، بالتقريب فيما بينهم وبإزالة العادات المنافية لروح الحضارة الهلينية فمنع الختان «شمل هذا الإجراء العرب والرهبان المصريين بالإضافة إلى اليهود»، وأراد أن يبني –كما فعل انطيوخوس ابيفان- معبدا لزيوس اوليمبيوس الذي كان اليهود يرفضون الاعتراف به كإله لهم. وهذه المرة أيضا، استغل اليهود الذي المتطرفون هذه الظروف –بالرغم من وجود دعاة المصالحة والتفاهم- وأعلنوا عن قرب ظهور المسيح المنتظر وساعة الخلاص، وعن اقتراب موعد حرية إسرائيل كما كان يقول دعاة الثورة. وإذا كان أدريان –الذي كان قد رفع في بداية عهده تمثال تراجان من مكانه داخل المعبد لإرضاء اليهود قد قمع الثورة بعنف، واتخذ إجراءات مشددة لتطويق كل محاولة جديدة، فإنه لم يضع القيود للحد من حقوق اليهود كمواطنين، ولم يتراجع عن إعفائهم من الخضوع للمشيئة الإمبراطورية، وكان هذا في حد ذاته امتياز غير عادي، وعندما خلفه في الحكم

انطونين، ألغي هذا الأخير القوانين التي كانت تمنع الختان «فيما عدا أولئك الذين كانوا من غير اليهود» والإجراءات التي كانت قد اتخذت خلال مرحلة قمع الثورات. واتسع نطاق المواطنية الرومانية فشمل أكثرية رعايا الإمبراطورية، وطبق حتى على اليهود، وأخذت بعين الاعتبار معطيات الوحدانية أثناء تأدية القسم الذي يسبق عادة الدخول إلى الوظائف العامة.

وكانت الإيديولوجية الوثنية تقبل بمبدأ تعدد المعتقدات، في الوقت الذي كانت فيه الظروف الاقتصادية والاجتماعية توفر الجو الملائم للاتحاد. وكان يسمح داخل إطار الإمبراطورية بحرية تنافس العبادات ضمن بعض الحدود كما كانت الحال بالنسبة للمنافسة بين شتى البضائع. فكان مثلا باستطاعة من ينحدر من أصول رومانية أن يعبد آلهة المصريين، وكانت الخصوصيات الثقافية ذات الجذور العرقية المختلفة تحافظ على نفسها متسترة بعبارة الآلهة المحليين، وتحقق نوع من الوحدة الإيديولوجية الظاهرة عن طريق التطابق «وهي طريقة سهلة» بين الآلهة المحليين وبين آلهة البانثيون الرومانيون، وحسب الحالات، كان هناك من يدمج فعلا بين النوعين من الآلهة، إلى جانب أولئك الذين كانوا يعبدون ربهم القديم حتى ولو حمل اسما رومانيا إضافيا. واحتفظت الولايات إلى حد ما بطابعها الخاص حسب حالة كل ولاية، وحسب عوامل الوحدة الجغرافية، وتأثير التقاليد، الخ. وكان واضحا هنا تأثير الشرق الاقتصادي والثقافي. وقد كتب فرانز كومون قائلا: «لقد كانت هنا مراكز الإنتاج والتصدير الرئيسية». وأضاف في مكان آخر: «لقد استطاع آلهة مصر والشرق أن يحافظوا ليس فقط على وجودهم واستمرارهم –بعكس آلهة بلاد الغال وأسبانيا الذين اضمحلوا- وإنما تمكنوا أيضا من كسب أنصار لهم فيما وراء البحار في المقاطعات اللاتينية.. وكان امتزاج مختلف الأرباب نتيجة لامتزاج جماعات بشرية من عروق مختلفة، وسار آلهة الشرق على خطى التيارات التجارية والاجتماعية، واستقروا –أي آلهة الشرق- في الغرب حيث كانت قد استقرت مجموعات من سكان المدن والأرياف الآسيوية التي هاجرت إلى هناك».

وشجعت عملية نمو اتحاد أو اندماج المعتقدات المختلفة –إذا صح التعبير- على انتشار الديانات الشرقية، لأن كثيرا من معتقداتها كانت تتسم بطابع الديانات الغامضة والعالمية والفردية في آن واحد.. وتدعو الإنسان إلى الاستعانة بطرق تؤمن له خلاصه الشخصي بمعزل عن العلاقات القبلية أو المحلية ذات صلة بالعرق أو بالأرض. وقد ارتدت اليهودية ذاتها هذه الصفة مما أدى بالتالي إلى انتشار الإيمان بها بين عدد كبير من عبدة الأوثان. وكانت هذه الفردية الدينية على صلة وثيقة وبديهية بالفردية الاجتماعية التي ساعدت على ظهورها ونموها الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد استطاع العرق اليهودي أن يحافظ على خصوصيته نتيجة التقاء عدد من الأسباب المختلفة، فقد التقى عن اليهودية مثلا عرق واضح التعريف والتحديد ودين خلاص عالمي، وكان للإله يهوه صفاته الخاصة جدا التي جعلته قادرا على مقاومة جميع محاولات الدمج مع سائر الآلهة، وكان الفشل نصيب المحاولة التي قام بها انطوخيوس ابيفان لتشبيه الإله يهوه بالإله زيوس اولمبيوس، علما بأن هذه المحاولة استقبلت بالترحيب من جانب عدد من اليهود من أنصار الدمج. وكان الهلينيون ينظرون إلى هذه المسألة على أنها مجرد إعطاء اسم لإله ذي صيت جيد ولا اسم له. أما سبب افشل فقد كان مرده بالدرجة الأولى –حسب ما بينه بيكرمان- كفاح اليهود المتشددين ضد اليهود «المعتدلين» من أنصار الاندماج والذين كانوا يقبلون «بإطلاق اسم آخر على ربهم». وفشلت كذلك محاولة أدريان لاعتبارات وطنية أكثر منها دينية.

وعلى كل حال، بقي يهوه بصفاته المميزة –حتى ولو كانت سلبية- ربّا لإسرائيل ولإسرائيل وحدها. ولا يمكن لأي كان أن يشارك في عبادة هذا الرب ما لم يقبل الشعب –اليهودي- بنبوته، وما لم يصبح فردا من هذا الشعب. وخلال حقبة كاملة من حقب التاريخ كان يسمح لمجندي اليهودية باعتناق نصف الإيمان شرط أن يبقوا خارج إطار اليهودي يدورون في فلكه. وأن عقدة تاريخ المسيحية البدائية تكمن بالضبط في مشكلة العلاقة الوثيقة التي يجب أن تقوم بين مؤسسة هي بالدرجة الأولى يهودية –هي الكنيسة الأولى- وبين أعضاء يرفضون الالتحام مع العرق اليهودي. وحول هذه المسألة بالذات ثار الجدل بين تلامذة المسيح وبين بولس الرسول.

وأدى قيام الإمبراطورية الرومانية الشاسعة –وكانت تمثل مرحلة ما قبل الأمة- التي وحدت أطرافها شبكة من العلاقات الاقتصادية المتبادلة إلى اندماج بعض العروق –من عرق- وبعض العبادات كذلك، ولكن ليس إلى الحد الذي تضمحل فيه الأديان والطوائف العالمية. فتلاحمت عناصر الجزء الغربي من الإمبراطورية واختفت إلى جانب لغاتها ملامحها الثقافية، وتحولت إلى مجرد مناطق تدور في فلك العالم اللاتيني. وأثرت بعض العوامل الجغرافية والعزلة النسبية وذكرى الماضي العريق الذي ولد نوعا من الوعي الإقليمي.. مضافا إليها الظروف التاريخية الملائمة والتدهور الاقتصادي وانهيار العلاقات التجارية وغزوات البرابرة.. هذه العوامل، إلى جانب اختلاف اللغات، بعثت الحياة بالتدريج في عروق الخصائص القومية «خصائص ما قبل الأمة».. وعندما حافظت عنصريات الشرق على لغاتها الشعبية «كاليونانية والارامية، الخ» واتحدت في بعض الأحيان فيما

بينها كما حدث في الأناضول وفي روسيا-فينيقيا، أبقت هذه العنصريات حتى ضمن إطار تجمعها الجديد على مميزاتها الثقافية. وقد حافظت مصر بفضل وحدتها الجغرافية القوية عبر التاريخ على مميزاتها القومية بوجه عام، وحمى اليهود أنفسهم ضد جميع أشكال الدمج بواسطة شبكة الممارسات التي فرضتها اليهودية الصارمة على «الصهيونيين» الأوائل الذين عادوا من بلاد بابل إلى يهوذا عند نهاية القرن السادس قبل الميلاد.

وكان بالامكان حينذاك الوصول إلى تطويع الذات مع العالم المتاخم وحتى القبول باحترام آلهة الشعوب المجاورة كما فعلت اليهودية الاسكندرانية... والتكيف مع الحضارة الهيلينية، وحدث ذلك في مرحلة من المراحل، وكما تشير إلى ذلك رسوم كنيس دورا اوربوس «وهي موجودة الآن في متحف دمشق» التي يظهر فيها موسى بملامح غير متوقعة.. هي ملامح المربي بذقنه الإغريقية الدقيقة.. ولكن ما أن يتخلى المرء عن الممارسات التي تميز عنصرا حتى يصبح خارج هذا العنصر، وكان ذلك ضروريا لكي يتمكن المرء من دخول الوظائف العامة قبل التغييرات التي حدثت خلال القرن الثالث..

وهكذا كان باستطاعة اليهودي أن يخرج عن عنصريته، وإذا كان يمنع على أي كان الالتحاق أو الانضمام إلى هذه العنصرية، فإنه لم يكن هناك من يدفع اليهودي إلى التخلي عنها أو عن الديانة العالمية المرتبطة بها، وكانت الإجراءات القمعية المتخذة ضد الوطنيين المتطرفين من أنصار الاستقلال السياسي لفلسطين، أو ضد يهود الأقاليم الذين يصفون بين حين وآخر حساباتهم مع تجمعات عرقية أخرى –والتي يدعوها الأدب اليهودي العرقي المعاصر اعتباطا بعمليات التصفية اللاسامية- .. هذه الإجراءات كانت عبارة عن عمليات بوليسية لا تستهدف انتهاك المبدأ. وقد رفض فسباسيان وتيتوس القبول بلقب «قاهر اليهود» على عكس الأباطرة الذين اتخذوا لقب «قاهر الجرمان» أو «قاهر أفريقيا» ذلك لان فسباسيان وتيتوس هزما فقط اليهود المتطرفين التائهين في يهوذا وليس الشعب اليهودي بأسره، وقد تعرضت يهوذا وحدها لحملات القمع وليس اليهود بأجمعهم الذين كان بينهم العديد من الأصدقاء للإمبراطورين المذكورين.

وهكذا.. يرى المرء بوضوح السبب أو الأسباب التي لم تجعل اليهودية تضمحل خلال ذاك العصر، وقد استمر بقاؤها من خلال نواة عنصرية أحاطت بها دائما هالة من التأييد والتحبيذ من جانب المؤمنين الجدد الذين اعتنقوها بعد أن جذبتهم النواحي العالمية التي كانت تتصف بها هذه الديانة. وكان هذا الفريق من المؤمنين المتردد حينا والمنبوذ حينا آخر يغذي العنصر اليهودي بدماء جديدة، بالرغم من العقوبات التي كان يتعرض إليها، وكانت العلاقات بين هذه الشكلين أو التيارين من اليهود يسودها الجفاء وتحفل بالتناقضات كما يبين ذلك مثال الإغريق-السوريين في دمشق الذين قتلوا عام 66 اليهود الدمشقيين خفية عن نسائهم اللواتي اعتنقن معظمهن اليهودية.

وأن النجاح الذي لاقته المسيحية إلى حد بعيد مرجعه أن المسيحية كانت قد استطاعت إيجاد الحل للتناقضات وقدمت للعالم الروماني نموذجا من اليهودية المقبولة من الجميع والمتحررة من العلاقات العرقية والفروض الشعائرية. ولنقل بشكل عابر بأن الآراء التي أبداها ليون بالمسيحية البدائية هي عرضة للنقد، ولا شك بأنه كان على حق عندما وصف هذه الأخيرة بأنها كانت شعبية ومعادية للطبقة الحاكمة الغنية، ولكنها –أي المسيحية البدائية- لم تكن بصورة رئيسية حركة اجتماعية ثورية، بل كانت عبارة عن حركة تنبع قوتها من عوامل اجتماعية وإيديولوجية وثقافية متناقضة إلى حد ما، من بينها ولا ريب شعور الحرمان المتولد لدى فقراء الجليل ويهوذا.

ونعود إلى الحديث عن العرق اليهودي، إذن لقد حافظ هذا العرق على بقائه، وتجسد وجوده بقسم عاش حياة التشرد وبقسم آخر كانت له قواعده الثابتة والقوية في فلسطين وبلاد بابل التي أوحت بكتابة «الميشنا»، والتلمودين التي يطغى عليها اللون اليهودي الشديد، وتعالج هذه الكتب مشاكل الحياة الزراعية والحرفية بالإضافة إلى مشاكل الحياة المدنية والتجارية من خلال وجهة نظر الشرائع الدينية. وقد ازدهرت بابل في ظل إمبراطورية الفرس الساسانين الذين كانوا متساهلين، بخلاف فلسطين التي أصابها الضعف عندما أصبحت تحت حكم الإمبراطورية الرومانية. ولم يكن الأباطرة يضطهدون اليهود، على العكس، لقد شجعوهم عندما تضخم خطر المسيحية ولكن ضمن حدود كي لا تستيقظ قوميتهم الخطرة.

أما اليهود من ناحيتهم، فقد أدت تجاربهم السيئة والفاشلة مع أولئك الذين اعتنقوا الدين اليهودي، ولم يكونوا أصلا ينتمون إلى العرق اليهودي، وضرورات التنظيم القائم على الاكليركيين بدلا من التنظيم الذي كان يعتمد على الأرستقراطية والرهبان.. أدت هذه التجارب والضرورات إلى انطوائهم نسبيا على أنفسهم. وكان التيار العام الذي يسود القوميات الشرقية حينذاك يدفعها أيضا نحو التحرر من الهيلينة على الأقل بصورة سطحية، لأنه بغض النظر عما يقال، فإن كثيرا من العناصر الهلينية بقي لها تأثير هنا وهناك.

أدى انتصار المسيحية في الغرب إلى حدوث بعض التغييرات في ظروف الحياة اليهودية، وبات الأمر هذه المرة يتعلق بإيديولوجية الدولة ذات الاتجاه التوتاليتاري الجانح نحو الاتحاد الإيديولوجي. وخلال المرحلة التي أعقبت هذا الانتصار، أبدى القائمون على الكنيسة تشددا متطرفا يقوم على تعبئة الجماهير المسيحية بقصد فرض إجراءات عنيفة على الأباطرة المترددين ضد منافسيهم ما دامت مقومات النصر النهائي لم تكتمل تماما، ولم يتوفر لها الاستقرار أو الضمان المطلوبين. وإننا نعرف كيف اختفت عبادة الشيطان بسرعة في ظل الإمبراطورية المسيحية. ولكن لماذا لم تضمحل اليهودية؟

وبالنسبة لهذه الفترة بالذات، ينبغي استبعاد التفسير الذي يتحدث عن اختصاص وظيفي لليهود. وحول هذه النقطة يلخص بلومنكرانز نتائج تحقيق مسهب يتناول وضع يهود العامل اللاتيني على إثر الحروب الصليبية فيقول: «إنهم –أي اليهود- يخضعون لنفس القوانين المطبقة على المسيحيين ولا يتميزون عنهم بأي شيء، يتحدثون اللغة ذاتها ويلبسون بالطريقة ذاتها، ويمارسون مهنا مماثلة، ويختلطون في ذات المنازل ويجتمعون تحت السلاح للدفاع عن الوطن المشترك». ويذكر بلومنكرانز في سياق التحقيق كذلك «أنه خارج نطاق الوظائف العامة.. ليس هناك من مهنة يحرم على اليهود ممارستها».. فالقيود المشار إليها تقوم على أساس ديني لا يجري تطبيقه بصورة عامة، وهذا الأساس لا يحصر نشاط اليهود ضمن إطار اختصاصات معينة، كان يمنع مثلا المسيحيون من مراجعة طبيب يهودي، أو أن يحرم على اليهود تعاطي تجارة بيع الأدوات الدينية... «في عصرنا هذا، لم يرد أي نص يتناول حق أو ممارسة اليهود للربا... لسبب بسيط هو أنه لم تكن قد وجدت بعد تجارة المال على مستوى واسع بحيث يمكن أن تتحول إلى مشكلة من مشاكل النظام العام».

ومن ناحية ثانية «لقد جرت محاولات للاعتراض على حق اليهود باستملاك العقارات «ولكنها بقيت بصفة عامة بدون نتيجة».. هذا الواقع الجلي..

إذن.. لم يكن هناك ما يميز اليهود عن المسيحيين في الغرب –خلال تلك الحقبة- إلا فيما له صلة بمسألة الدين، وضمن هذا النطاق بالذات تركزت جهود التوحيد الإيديولوجي، ويبدو أن الشعب المسيحي لم تكن لديه أية مشاعر خاصة معادية لليهود، وأن الحوادث النادرة التي تروي لنا تظهر بأنها قد نجمت عن أسباب لا علاقة لها بالخلافات العنصرية-الدينية، هي الأسباب النابعة من النزاعات العادية الصغيرة الشأن التي تنتج عن بعض الفروقات. وفي بعض الأحيان كان اليهود هم الذين يسببون هذه الحوادث، وأحيانا أخرى كان الجمهور المسيحي يأخذ جانب اليهود كما حدث في باريس عام 582 عندما قتل اليهودي بريسكوس على يد يهودي آخر حديث الإيمان باليهودية –وكان مسيحيا قبل ذلك- خلال مشادة وقعت بين الاثنين. فقد سحلت رفيق القاتل، وكاد هذا الأخير يلقى مصير نفسه.

وقد كانت السلطة حينذاك سلطة مسيحية، ولكن لماذا لم تعمل هذه السلطة على تنفيذ سياسة ترمي إلى تحقيق الاتحاد الإيديولوجي الكفيل بتقويتها؟ ... للإجابة على هذا السؤال يجب العودة إلى عوامل تعدد المعتقدات والميول التي كانت تعم هذا النوع من الدول ما قبل الحديثة، وهذا ما تحدثت عنه قبل قليل، مضافا إلى ذلك استمرار تقاليد الحق الروماني ذي الجذور العميقة لدى الأباطرة المسيحيين الأوائل بوجه خاص. وقد تحدث بلومنكرانز بصورة مفصلة ودقيقة عن دول «الفرنجة» «التي كانت على نقيض أسبانيا». فقد كانت المرونة الإيديولوجية تسود هذه الدول: «إن الدول التي قامت هنا على أشلاء وبقايا الإمبراطورية الرومانية كانت تشمل العديد من الشعوب التي احتفظت بكثير من ملامح صفاتها الخاصة». وكان هناك الرعايا الرومان والبرابرة. «وكان البرابرة أنفسهم يتألفون من جماعات عرقية عديدة»، كالغاليين، والألمان، والبورجانديين، والفرنجة الساليين... «ولقد كان باستطاعة أسبانيا أن تتجه نحو توحيد القانون والتشريعات بسهولة كبيرة، أما في الامكان الأخرى فقد قامت أنظمة حافظت على مبدأ الحقوق القومية، والحقوق الفردية. وضمن إطار هذه الأنظمة أو القوانين المتعددة، لم تكن الخصوصية اليهودية لتثير الاستهجانات كثيرا إلا في أسبانيا حيث كانت وحدة الإيمان تتوج الاتحاد المفروض أو الحاصل في سائر الميادين. إذن.. لقد كان مبدأ تعدد الحقوق بالذات هو الذي يحمي المميزات الخاصة التي كانت تطبع حياة اليهود».

وكانت الدولة المسيحية تتصرف بوجه عام حيال الأقلية اليهودية كتصرف الدولة الماركسية السوفياتية تجاه منافسيها الإيديولوجيين المهزومين من أتباع الكنائس المسيحية والتجمعات الدينية الأخرى. ومن المعلوم أن الدستور الستاليني الذي وضع عام 1936 يضمن «حرية ممارسة الطقوس الدينية وحرية الدعاية المناهضة للأديان» لجميع الموطنين «المادة 124». وفي هاتين الحالتين –أي حالة الدولة المسيحية وحالة الدولة الماركسية- تمتنع الحركة الإيديولوجية الظافرة والمنتصرة –إما بسبب سلوكها الرشيد أو بسبب النقص في الامكانيات- عن محاولة فرض نفسها بالقوة، ولكنها تمنح نفسها امتياز التوسع وتجبر المهزومين على الالتزام بموقف سلبي على أمل أن ينتهي هذا الموقف إلى الاضمحلال سلميا وبصورة تدريجية.

وإذا كان الموقف قد اختلف مع الوثنيين «الذين مارسوا بحرية شعائرهم» خلال مرحلة انتقالية قصيرة أعقبها تشدد في سلوك الدولة المسيحية.. فإن ذلك يعود جزئيا إلى خلاف في الإيديولوجية ذاتها التي ترى في اليهودية الدين-الأم، وفي المسيحية الدين-الابن وتعتبر أنهما على الأقل من الناحية المبدئية ديانتين عالميتين تقومان على الإيمان بوحدانية الخالق. ويمكن القول أيضا بأن سبب اختلاف الموقف –اختلاف موقف المسيحية من الوثنية عن موقفها من اليهودية- يرجع بالدرجة الأولى إلى تنظيم الممارسات الوثنية التي كان لها طبيعة العبادة العامة. وأن مصير الصراع الذي نشب خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد بين المسيحية -«العقيدة المهيمنة» كما كان الوثنيون يرددون بمرارة- وبين الوثنية ارتبط بمصير إيديولوجية تشريعات الدولة، وقوانينها، وبالممارسات التي ستدعمها هذه التشريعات، والأعياد التي ستكرس كأعياد عامة، وبقسم الولاء. ولا تواجه اليهودية – بحكم تكوينها ديانة تقتصر فقط على أفراد عرق قديم معين- أي من هذه المشاكل، ويمكن في أسوأ الحالات أن تمنع من الانتشار كديانة خارج حدودها العرقية، خاصة بعدما أصبح غير وارد في تفكيرها الطموح إلى الهيمنة على الدولة في القرن الثالث. وتحولت الشراكة الثلاثية –في نظر الكنيسة حينذاك- والتي كانت تقوم بين ثلاثة أطراف هم: الوثنيون واليهود والمسيحيون، إلى شراكة ثنائية تتكون من الهيلينيين والمتأثرين بالهيلينية أو –إذا صح التعبير «المستهلينيين»- وبكلمة أخرى، بات على الوثنيين اعتناق المسيحية الديانة التي كيفت لهم المبادئ اليهودية حسب نمط حياتهم، بينما بقيت اليهودية –على الأقل مؤقتا- أشبه ما تكون «بشجرة الزيتون التي تنمو على جذعها أغصان وثنية دخيلة عليها على حساب الأغصان الطبيعية»- حسب تعبير القديس بولس.

وعامل الإسلام اليهودية بتسامح يفوق التسامح الذي لاقاه هذا الدين –من جانب المسيحية- كتيار إيديولوجي اعترف بحقه بالبقاء بالرغم من الهزيمة التي لحقت به. فقد اعتقد محمد في بداية الأمر انه يقدم للعرب وحيا يطابق من الناحية المادية الوحي الذي استفاد منه اليهود والمسيحيون، وعندما فوجئ بالتحفظ الشديد الذي أبداه تجاهه اليهود حين اتصل بهم في المدينة، اضطر إلى الدفاع عن صيغة الوحدانية التي جاء بها، وعن أصالة الوحي الذي نزل عليه بالرغم من أوجه الشبه بينه وبين الدعوات الوحدانية السابقة. ولم يتراجع –أي محمد- بالرغم من النزعات السياسية التي نشبت بينه وبين يهود الجزيرة العربية عن نظريته الأساسية القائلة بأن كل تعارض بين رسالته وبين النصوص المكتوبة التي وضعها أتباع الرسالات الأخرى كان سببه التشويه الذي لحق بهذه الأخيرة... والتي حذف منها بخبث ما كان ينبئ بهذه الرسالة –أي رسالة محمد- وهكذا لم يفرض الإسلام إلا على العرب، وبقي المسيحيون واليهود بالرغم من أخطائهم معتبرين أتباع إيمان صحيح صالح لهم، ولم يحاول العرب المسلمون، خلال القرن السابع للميلاد فرض الإسلام على سكان البلاد لتي احتلوها «وكان المسيحيون واليهود يشكلون فيها الأكثرية» بل اكتفوا بإخضاعهم لسلطتهم السياسية المستقاة من الإسلام الذي كان يمثل الإيديولوجية الرسمية، وبفرض ضريبة خاصة عليهم –كانت معتدلة في بداية الأمر، وفيما بعد، أدت العوامل الاجتماعية –على إثر ثورة العباسيين التي أزالت امتياز العرق العربي- إلى تحول اليهود والمسيحيين تدريجيا نحو اعتناق العقيدة السائدة دون أن يمنع ذلك بقاء أقليات قوية مشدودة إلى إيمانها القديم حتى يومنا هذا.

وفي ظل الإمبراطورية الإسلامية والدويلات التي قامت على أشلائها، والتي احتفظت فيما بينها بصلات وثيقة، ازدهرت التجارة بين مناطق متباعدة، وتقدم الإنتاج الزراعي الخاص بكل إقليم من الأقاليم، وراجت الصناعات اليدوية. وشارك اليهود كسائر عناصر السكان في هذا التقدم، ومارس عدد كبير منهم التجارة كما يقول «جواتين»: «لقد أدت هذه الثورة «البرجوازية» إلى الإسراع في تحويل اليهود من شعب يمارس بالدرجة الأولى المهن اليدوية إلى جماعة تهتم بصورة رئيسية بالتجارة.. وعندما وجد اليهود أنفسهم إبان العصر الإسلامي أمام حاضرة ميركانتيلية قابلوا التحدي وتحولوا بدورهم إلى أمة تتكون من رجال الأعمال وباشروا بالقيام بدور رئيسي في نهضة الحضارة الجديدة». ويضيف المؤلف بطريقة ذات مغزى فيقول: «إن هذا التغيير لم يتم دون أن يواجه معارضة عنيفة، ويمكن للمرء أن يجد أصداء هذه المعارضة فيما كتبه يهودي آخر اعتبر «الأعمال مهنة غير يهودية يراد بها تقليد العرب أو المسلمين بوجه عام».

ولا ريب في أن الأمر لا يتعلق هنا باختصاص وظيفي معين لأن عددا كبيرا من غير اليهود كان يتعاطى التجارة، كما وأن عددا لا يستهان به من اليهود لم يكنوا تجارا. إذن، لقد كان هناك تنوع واسع في المهن التي يمارسها اليهود، ثم أنه لا يمكن الحديث عن اختصاص في مجال تجارة المال اقتصر فقط على اليهود، بالرغم من التسهيلات التي كان ينعم بها غير المسلم «المسيحي واليهودي» عندما كان يمارس هذا النوع من النشاط –الربا- الذي تحرمه «نظريا على الأقل» الشريعة الإسلامية على المسلم.

وإذا كانت التجارة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي –لاسيما بين القرن السابع والقرن التاسع- من اختصاص اليهود بالدرجة الأولى، فإن أسباب ذلك تعود إلى كون اليهودي كان يعرف بلدان العالمين الإسلامي والمسيحي، وكان يتمتع بمستوى من الثقافة، في وقت كانت تنتشر فيه الأمية، ولأنه كان يعتبر نصف مواطن لإمبراطوريات ذاك العصر «إمبراطورية الفرنجة

والإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية» إلى جانب تحرره من بعض القيود التي كان الآخرون يخضعون لها.. وفي القرن التاسع حينما بلغ دور اليهود في هذا الميدان من النشاط التجاري القمة «أي بعد تخلصهم من منافسة السوريين واليونانيين، وقبل أن تتعاظم أهمية الوسطاء الإيطاليين والإسكانديناڤيين»، كانت قلة ضئيلة فقط –أي من اليهود- هي التي تشارك في هذه النشاطات وبصورة مؤقتة كما قلنا قبل قليل.

ومرة ثانية.. إن استمرار الهوية اليهودية في الغرب اللاتيني قبل الحروب الصليبية، وفي العالم الإسلامي إلى يومنا هذا سببه فقط هي صفة التنوع التي كانت تطبع هذه المجتمعات، وبعض العوامل الوحدوية لديها، وعدم إقدام الدولة على فرض إيديولوجياتها المسيطرة على جميع رعاياها وامتناعها عن تدمير وإزالة سائر الإيديولوجيات. وضمن إطار هذه الظروف كان من الطبيعي أن ينتصر ميل التجمعات إلى المحافظة على وجودها، وأن تعمل هذه التجمعات من أجل حماية مصالح أفرادها وأمانيهم.

ما هو نوع الكيان اليهودي الذي كانت تحتويه هذه التجمعات؟؟ هل كان يتمثل في الدين أم في عنصر ما.. أو أنه كان عبارة عن تجمع يمر في مرحلة ما قبل الأمة؟ في الواقع، يستحيل الرد على هذه التساؤلات بدقة وبدون غموض، وهذا ما يضايق أصحاب العقليات المدرسية الذين تعودوا تصنيف بطريقة جلية وواضحة، وترتيبها بعناية بحيث يكون لكل واقعة عنوانها الملصق عليها.

في أعقاب الحقبة التي كانت فيها ظروف الإنتاج وتكاثره لا تتيح المجال لتكوين وحدات شاملة أوسع نطاقا من القبيلة، نشأت بتأثير بعض الظروف تكوينات لها شكل الجماعات ذات الوحدة المحلية التي يعترف أفرادها بأصول مشتركة، وببعض التشريعات المشتركة، ويتخاطبون بلغة مشتركة «ذات لهجات متعددة» ويعيشون إلى حد ما في ظل ثقافة مشتركة تتمحور حول نواة هي الدين «أي الإيديولوجية» المشترك. ويمكن للمرء أن يطلق على هذا النوع من التكوينات اسم العرق أو العنصر. ولم يكن ضروريا أن تتطابق حدود الدولة السياسية أو امتدادها –والتي كانت تشدها شبكة من العلاقات توفر لها نوعا من الوحدة الاقتصادية- مع الحدود العرقية.

وكانت الوحدة بين اليهود مصدرها انتماؤهم لدين مشترك، بالإضافة إلى الشعور بأنهم ينحدرون من أصل مشترك. وفي مجتمعات كهذه، تتولد ملامح ثقافة مشتركة، كالعادات الأدبية أو التاريخية وطريقة الغذاء. وخلال فترات أزمة مر فيها الإسلام، ظهرت رغبة في عدم رؤية أصحاب الإيديولوجيات المهزومة يتصرفون وكأنهم مؤمنون حقيقيون، أو كأنهم «من المسيطرين»، وكان من نتائجها –أي من نتائج هذه الرغبة- أن فرض على هؤلاء ملابس أو إشارات تميزهم عن الآخرين، ولكن اليهود بوجه عام شاركوا الشعوب التي عاشوا بينها ثقافتها، وتحدثوا وألفوا بلغتها مع احتفاظهم بالعبرية كلغة يمارسون بواسطتها شعائرهم الدينية. وخلقت الوحدة الإيديولوجية بينهم –أي اليهود- روابط تضامن تخطت الحدود السياسية والعرقية والثقافية التي كانت تحتوي جغرافيا تجمعاتهم المختلفة. ويبدو لي بأن أفضل صيغة مختصرة يمكن استعمالها لتعريف وتحديد هذه التجمعات أنها كانت تترابط فيما بينها بدين له بعض الصفات العرقية.

وقد عاشت تجمعات دينية أخرى أوضاع مماثلة تقريبا لأوضاع اليهود، ولكن معظمها لم ترتد طابعا عالميا بتبعثرها وتشردها، ولذا كان من السهل في حال تعرضها إلى بعض الضغوط أن تزول وأن تضمحل. ولنأخذ على سبيل المثال «المانوية» وهي ديانة عرفت انتشارا واسعا شمل أكثر من عرق، ولكن لم يكن لها لغتها المشتركة الخاصة بممارسة الطقوس الدينية، ولذا انتهت هذه الديانة العالمية –التي كانت إلى الخصائص العرقية والتي انشقت إلى تيارات امتدت من الصين إلى اللونجيروك في فرنسا- إلى الزوال تحت تأثير الضغوط التي تعرضت إليها من جانب الديانات «المسيطرة» التي كانت تحكم البلدان التي وجدت فيها. وزال أيضا وجود العنصريات لتي لم تكن تتميز بديانة معينة، فانتهى السوريون الوثنيون والغاليون المسيحيون بالاندماج بالمحيط الذي كانوا يعيشون في كنفه. وهكذا يمكن القول بأن الذي وفر لليهودية البقاء والاستمرار هو من ناحية التقاء العامل الديني مع العامل العنصري، ومن ناحية ثانية طبيعة المجتمعات التي عاشوا فيها والتي كانت تسمح بتعدد المعتقدات مما جعل عوامل اتحاد هذه المجتمعات ضعيفة وواهية.

وإن المثل الوحيد الذي يمكن الإشارة إليه كنموذج لمحاولات الوحدة الدائمة والعنيفة هو ما جرى في أسبانيا «الفيزيقوطية» بعد تحول العنصر القوطي –وكان العنصر المسيطر- عن «الاريانية» إلى الكاثوليك عام 587، وأن أسباب هذا التحول واضحة، فعندما تبنى ملوك القوط الكاثوليكية- وكانت ديانة أكثرية الشعب «الأسباني-الروماني»- كانوا يسعون إلى تحقيق وحدة رعاياهم في جميع الميادين الدينية والسياسية والقانونية.

وكان اليهود يخضعون في ظل السيطرة الاريانية –علما بأن الاريانيين من زاوية التزامهم الحرفي بالعقيدة كانوا يماثلون المسيحيين في معارضتهم لليهود- للقانون الخاص بالإمبراطورية المسيحية، أي أنهم كانوا يعاملون بتسامح كحركة إيديولوجية مهزومة مع بعض الشروط التي فرضت عليهم كما نوهنا بذلك قبل قليل، وكان اليهود يشكلون جزءا من السكان الأغنياء الأقوياء نسبيا والمستقرين منذ عهد طويل، وكان هذا سبب إضافي حملهم على المشاركة في عملية نمو الوحدة داخل التكوين الذي كان قائما حينذاك –وكانت الأمة الأسبانية تسعى إلى هذه الوحدة بالطريقة الوحيدة المعقولة: وهي الخضوع للإيديولوجية المسيحية- وذلك باعتناق المسيحية، ومن هنا كانت في بداية الأمر القوانين التي تشجع بصورة ملتوية التحول إلى المسيحية، ثم أساليب القصر التي طبقت- بالرغم من معارضة الكنيسة النظرية لهذه الممارسات- للقضاء على المعارضة التي أثارتها محاولات التحول الأولى. وحسب هذه الطريقة –التي كرر تطبيقها في أماكن أخرى- كانت القوانين المذكورة تحاول تخفيف أسباب نقمة اليهود، ومعارضتهم للدولة، وكان البعض يتخذ من هذه المعارضة حجة لتشديد الإجراءات المعادية لليهود. وزاد في حدة هذه الإجراءات، مخاوف ملوك القوط، بعد أن وصلتهم أخبار الشرق وانتفاضات اليهود ضد الإمبراطورية البيزنطية وتواطؤهم مع أعدائها الفرس، وذعرهم –أي ذعر ملوك القوط- من شبح تقدم الإسلام التدريجي في شمال أفريقيا، ووصل بهم هذا السلوك إلى نهايته المنطقية: هي تصورهم التواطؤ الذي سيحدث بين اليهود الأسبانيين وبين الغزاة العرب.

وكما يقول بلومنكرانز –كانت هذه المحاولة الوحدوية من المحاولات النادرة التي تلتقي فيها جهود السلطة المدنية مع جهود السلطة الدينية داخل رقعة واسعة من الأرض- وفشلت المحاولة بالرغم من تردد الكنيسة، وذلك الأسباب شتى، منها النقص في وسائل عمل الدولة خلال ذاك العهد، والوقت القصير نسبيا الذي عاشته هذه التجربة، وظروف عدم الاستقرار التي أحاطت بحكم الفيزقوط المركزي... مضافا إلى ذلك كله حدوث هذه التجربة الوحدوية داخل وسط كان قد تأثر بصورة عميقة بنظرية تعدد العقائد والاتجاهات التي كانت تسود تلك المنطقة في الماضي. وعندما قاوم اليهود الإجراءات الملكية في أسبانيا بالذات، وجدوا عطفا وتأييدا لهم من جانب السكان بوجه عام، من جانب بعض رجال الكنيسة، لأن قسر الناس على اعتناق المسيحية يتنافى والإيديولوجية المسيحية –كما يقول العالِم ورجل الدين المسيحي ازيدور.

وقد أدى سلوك الكنيسة المتساهل جدا عمليا –بقبولها التعميد الإجباري الذي كانت قد أدانته- إلى تطبيق الإجراءات تطبيقا جزئيا وما يعنيه ذلك من ضرر يلحق بفعاليتها كمؤسسة. وأكثر من ذلك أن القوانين المذكورة لم يجر تطبيقها في مقاطعة ناربون مع أنها كانت تابعة للمملكة وهاجر عدد كبير من اليهود المتعصبين إلى بلاد الغال، وعاد بعضهم إلى أسبانيا بعد أن استعادت استقرارها وهدوءها، بينما فضل بعضهم الآخر الانتقال إلى أفريقيا الشمالية وايطاليا... ويبدو بأن البابا قد أظهر تسامحا في عودة اليهود الذين أرغموا بالقوة على اعتناق المسيحية إلى يهوديتهم.

إذن.. لقد كان الموضوع يرتبط بالجهود الرامية إلى تحقيق الوحدة السياسية والاجتماعية أكثر مما يرتبط بغزو النفوس بالإيمان، وهي ظاهرة لم يسمع بها قبلا في تاريخ المسيحية، وقد تكررت فيما بعد –بعد ثمانية قرون- في أسبانيا في ظل ظروف مغايرة..

وقد تزايدت الشكوك باليهود الذين تحولوا إلى المسيحية فقيل عنهم بأنهم استمروا في المحافظة سرا على خصوصياتهم واتخذت بحقهم أثناء الفترة التي بذلت فيها جهود يائسة لاختبار أصالة اندماجهم إجراءات تميزت بقساوة متصاعدة، وصلت إلى مستوى إطلاق اسم «يهودي» على المسيحيين الجدد المنحدرين من أصول يهودية. وكان هؤلاء موضع ريبة وشك، وطبقت عليهم أساليب تفرقة وتمييز عن الآخرين بدون أن يخطر في بال أحد أن يتساءل عن حقيقة الإيمان المسيحي الذي كان يعمر قلوبهم. أما الممارسات اليهودية فقد حافظت على وجودها واستمرت قائمة. وقد كان للإجراء الذي طبق حينذاك على اليهود مغزاه، فقد فرض عليهم الزواج فقط من المسيحيين «القدامى».

وباختصار.. كان الأمر يتعلق بمحاولة دمج قسرية تتعدى بأهدافها ميدان التحول من دين إلى آخر.. جرى تنفيذها بوسائل غير كافية وفي جو يغمره التردد سواء من الناحية الإيديولوجية أم من الناحية الثقافية، ولذا ليس غريبا أن تنتهي هذه المحاولة إلى الفشل..

وتكرر سلوك الفيزيقوطيين بصورة جزئية وأقل شمولا، ولكن على نطاق أوسع إبان الحملات الصليبية، والمقصود هنا الحروب والوحدة الإيديولوجية المسيحية التي تحققت بطريقة سادها الذعر واستبعد عنها اليهود بحكم قوة الأشياء. وكان من المنطقي تحت تأثير الإيديولوجية أن يظهر الميل دائما إلى تصنيف للوقائع والناس، وكان طبيعيا بالتالي أن ينظر إلى غير المسيحيين على أنهم متواطئون مع أعداء المسيحية الذين هم في حرب معهم، أي المسلمين. وعلى كل حال، بالرغم من الاضطهاد والمصادرة،

وإجراءات الطرد والإبعاد والمذابح لم تصل الحملات بوجه عام مثل عهد التفتيش الأسباني إلى التصرف الذي اتسمت به قوانين الفيزيقوطيين.

وهذه المرة كذلك، لم تستمر الحملات طويلا ولم تتصف بالشمول لكي تصل إلى حد قطع دابر اليهود، وقد وجد اليهود الذين لم يعانوا الاضطهاد القاسي حيث كانوا يقيمون، ملجأ لهم في البلدان المجاورة، وخاصة خارج البلدان المسيحية، في العالم الإسلامي الذي فتح لهم صدره.

وبالإضافة على هذا العامل السلبي الناتج عن استمرارية اليهودية خلال عهد الحملات الصليبية وبعدها يوجد عامل ايجابي آخر هو الاختصاص الوظيفي الذي اكتسبه اليهود.. وبوحي من هذا العصر بالذات، أصبح لنظرية الشعب-الطبقة- ضمن بعض الحدود- قيمتها التي تضمنتها أفكار الأوربيين خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، والتي عبر عنها بصفحات قليلة ماركس، وتحدث عنها بأشكال أخرى ماكس ويبير وأبراهام ليون.. وعالجها مع بعض التعديل والتفاوت التقليد الماركسي الذي وصل –نتيجة ما كان يردده اللاساميون- إلى حد الهذيان من الناحية الفكرية، وإلى ممارسات غير معقولة..

وقد جرى عرض هذه المسألة وما أحاط بها من تطورات في أكثر من مناسبة، من خلال الإلمام الواسع والعميق بالواقع حسب كل كاتب ومؤلف، وأفضل هذه الوقائع ما ورد في فصل من كتاب عن تاريخ اليهود لسالو بارون. وأثناء الحقبة الواقعة بين القرن السادس والقرن الثاني عشر «حدث تغيير جذري في بنيان اليهود المهني، وتحول الشعب الذي كان يعيش حتى تلك الفترة على الزراعة والحرف اليهودية إلى التجارة مع اهتمام خاص بتجارة المال، ولم يصلوا في هذا المجال إلى القمة إلا قبل أواخر القرون الوسطى.. وحتى أثناء تلك الفترة اقتصر هذا النشاط على بعض المناطق الواقعة شمال جبال الألب ونهر اللوار.. ولكن هذه الميول الرئيسية ظهرت بوضوح قبل عام 1200 بوقت غير قصير، وتبلورت هذه الميول بصورة واضحة في عالم الغرب المسيحي أكثر من سواه، وازدادت قوتها مع الانتقال التدريجي لمركز ثقل الشعب اليهودي من الشرق إلى الغرب، وتحت التأثير البطيء للنظريات والتشريعات الغربية في المناطق الإسلامية».

وأدت سلسلة من الأسباب –مع استثناءات عديدة- إلى دفع اليهود للتخلي عن الملكية العقارية. وفي الغرب كان النظام الإقطاعي- الذي كان يتبلور أكثر فأكثر- يجد صعوبة أثناء محاولته دمج اليهود، لأنه كان من العسير الطلب من هؤلاء أداء قسم الولاء المسيحي، ثم أن القائمين على النظام الإقطاعي كانوا يأنفون رؤية اليهود يتحولون إلى أصحاب سلطة ونفوذ يحكمون الفلاحين وسكان الأرياف.. ويأنفون أكثر رؤيتهم يتسلطون على النبلاء المسيحيين «مع أن ذلك قد حدث». وبالمقابل، لم يكن هناك أي عامل هام يعرقل أو يقف حائلا دون استمرار النشاطات الصناعية والحرفية. وضمن إطار التجارة العالمية، وخاصة بين الغرب والشرق حيث كان اليهود يلعبون دورا بارزا –كما رأينا قبل قليل- دون أن يبلغ هذا الدور مستوى الاحتكار، ظهرت منافسة تزايدت أهميتها، وتقدم تنظيمها تدريجيا بين من هم من غير اليهود، لاسيما ابتداء من القرن الثاني عشر حينما تكونت الشركات في الغرب وتعاظمت مكانة الجمهوريات التجارية الإيطالية اقتصاديا وسياسيا..

اليهود في ظل الدولة الإسلامية

وقد ساعد النمو الحضري السريع الذي مر فيه العالم الإسلامي على اتجاه كثير من اليهود نحو المهن المصرفية والحرة بدون أن يعني ذلك أن هذه المهن قد اقتصرت عليهم وحدهم. «خلال العهد القديم وأثناء السيطرة البيزنطية لم يشكل اليهود قطاعا هاما في حقل هذه المهنة «أي المصارف». وعندما سمحت الإمبراطورية الرومانية وبعدها الإمبراطورية البيزنطية بكسب فائدة متواضعة وتصرفت هاتان الإمبراطوريتان بمرونة بحيث لا يجد الناس أنفسهم مضطرين بالضرورة إلى انتهاك القانون، وحالتا دون اختصاص جماعة من الجماعات العرقية أو الدينية في هذا الحقل الخاص من التجارة». وساعدت التشريعات الدينية التي تحارب «الربا» -والتي اتسع نطاق تفسيرها سواء في الشرق الإسلامي أم في أوربا المسيحية- على رفع اليهود نحو هذا الاختصاص.

وفي الشرق الإسلامي، أدت التسهيلات الممنوحة للمسلمين إلى تحامل على القانون ووجود المسيحيين الذين كانوا يشكلون أقلية خاضعة لعرقلة تطور اختصاص اليهود بتجارة المال «أي الربا» بصورة فعالة، وكان اتجاه العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى الميال نحو اقتصاد ديناميكي ذي قطاع «كابيتالستيكي» -أي قطاع رأسمالي تجاري- متقدم.. كان هذا الاتجاه بدوره يتعارض مع التطور المذكور. وإذا كنا نتحدث عن صرافين يهود –لا يقتصر عملهم على ممارسة الدين بفائدة- فيجب أن نشير إلى أن عددا من المسلمين والمسيحيين كانوا يمارسون العمل نفسه، بالإضافة إلى أن اليهود كانوا يتعاطون سائر المهن التي كانت

منتشرة في المدن. وأن نسبة التجار الذين كانوا يتعاطون شتى أنواع النشاطات –وكانت نسبة كبيرة- كانت تعبر عن ظاهرة حضارية بوجه عام. أما في الغرب اللاتيني، فقد كانت الحالة على عكس ما كانت عليه في الشرق الإسلامي.. «لقد دفعت قوى ذات نفوذ كبير اليهود إلى الاهتمام بالدين بالفائدة كمهنة مفضلة لديهم أكثر من سواها». «لأن اليهود الذين كانوا يأتون من بلدان أكثر تقدما، كانوا يمتلكون مبالغ من المال أكثر من تلك التي كانت موجودة لدى منافسيهم من المسيحيين». وضاعفت أعمال مصادرة الأراضي التي كان يمتلكها اليهود، والمبالغ التي كانت تدفع إلى هؤلاء كتعويض من كميات النقد التي كانت موجودة لديهم –أي لدى اليهود. واستطاعت إجراءات المنع الدينية أن تعطي ثمارها بالتدريج، فمنع مثلا الكهنة –وكانوا يمثلون تجمعا هاما يقرض المال- من ممارسة هذا النشاط. أما اليهود فقد كان بامكانهم تعاطي المهنة بصورة مكشوفة، أو على الأقل تغطية نشاط المسيحيين غير المتمسكين تماما بديانتهم بالاتفاق معهم على ممارسة هذا النوع من الأعمال تحت ستار اسم يهودي.

وكانت مصلحة الملوك بوجه خاص –وكان هؤلاء يحمون اليهود ويضعونهم تحت سلطتهم مباشرة خارج نطاق نفوذ الإقطاعيين- تجعلهم يشجعون اليهود على الانصراف إلى الاهتمام بهذا النوع من التجارة ليتاح لهم مجال مراقبتهم. وهكذا كانوا –أي الملوك- يتركون لليهود فرص جمع الثروات، لينتزعوها منهم فيما بعد –سواء عن طريق المصادرة أو بوسائل لبقة- بطرق أسهل بكثير من تلك التي قد يستعملونها مع الأثرياء المسيحيين.. مع أن «مهنة قرض المال لم تصبح المهنة الأساسية لليهود في فرنسا ألا بعد القرن الثالث عشر.. وفي ألمانيا بعد ذلك التاريخ بمدة غير قصيرة». وفي أسبانيا، لم تكن هذه المهنة في أي وقت من الأوقات المهنة الرئيسية لليهود. «دون أن يغرب عن البال أن اليهود لم يكونوا هم وحدهم الذين يمارسون تجارة المال. وأكثر من ذلك لم يكونوا دائما يحتلون المركز الرئيسي في هذا الحقل». وإذا كانت الكنيسة قد نجحت في تحريم قرض المال على رجال الدين، فإنها لم تمنع جديا التجار من تعاطي هذا النشاط.

ويمكن القول أنه مع أواخر القرون الوسطى أصبح لنظرية الشعب-الطبقة بعض الصحة، ومرة أخرى، هذا لا يعني –ويجب التأكيد على ذلك- أن قرض المال قد اقتصر على اليهود وحدهم، أو أن جميع اليهود كانوا يمارسون هذه المهنة. وفي الواقع كان بين صفوف التجمعات اليهودية تفاوت طبقي حقيقي، ولكن هذه التجمعات كانت تتركز في بعض مناطق العالم حول العناصر اليهودية التي كانت تتعاطى هذه المهنة بحيث كان الفقراء من اليهود يشاركون جزئيا في كسب لفوائد التي كان الأثرياء اليهود يحصلون عليها سواء عن طريق التسول أو غير ذلك من الأساليب.

ومن الصحيح كذلك أن التقدم الذي حققه القطاع «الرسمالستيكي» ثم بعد ذلك الاقتصاد الرأسمالي في أوروبا الغربية قد جعل اليهود أقل فائدة عما قبل، وخلق مناخا يتيح سهولة الانصياع للاتجاهات الإيديولوجية التوحيدية التي تؤدي ضمنا إلى اضطهاد ثم إقصاء هذه الجماعات المتنافرة الأصول، خاصة وأنه كان من الممكن توجيه الأحقاد الشعبية العنيفة -التي أثارتها نتائج التقدم الرأسمالي الأولى- نحو هذه الأقلية التي كانت تبدو وكأنها الرمز المجسد للتقدم الرأسمالي... ويساعد على ذلك التراث الإيديولوجي المسيحي الذي كان يحفل بأسلحة حادة متعددة. وكان اليهودي يبدو حقا وكأنه كبش الفداء وصورة تقليدية تعكس اللاسامية الحقيقية التي أراد الوطنيون اليهود نقلها عن الصراعات التي تعرض إليها اليهود عبر الزمن.

ولكن هذه المرة أيضا لم تحدث أية تصفية، فاختصاص اليهود الذي كان يقاسمهم فيه عدد لا بأس به من المسيحيين، ولكنه غير كاف لتأمين تقدم الاقتصاد الجديد.. هذا الاختصاص جعل اليهود لهم فائدتهم، وأتاح أمامهم الفرص لإيجاد مجالات نشاط حيث كانت الظروف تساعدهم على ذلك.

ففي ايطاليا مثلا خلال عصر النهضة، كان المسؤولون –وفي مقدمتهم الباباوات- الذين تأثروا نوعا ما بموجة العلمانية التي أعادت الحياة إلى تقاليد الإمبراطورية الرومانية يتركون اليهود يشاركون بحرية في كل مجالات الحياة العامة، ثم أن الإمارات الألمانية المتعددة تحت تأثير الإنهاك المالي الذي سببته لها الحروب، وبسبب ضرورة توفير المستوى الحياتي المرتفع اللائق بصيت أمرائها، استعانت هذه الإمارات بالطاقات المالية التي كان اليهود يمتلكونها.. وفي الرشق –شرق أوروبا- عندما رغبت بولونيا في دخول دائرة الاقتصاد الرأسمالي استنجدت بالتجار اليهود ليمدون إليها يد المساعدة.

وفي أوروبا الغربية –على إثر الإصلاح- أصبحت ضرورة تعدد المعتقدات والاتجاهات أكثر إلحاحا، وجرى تجربتها أولا في البلاد الواطئة حيث انتشرت ظاهرة تعدد الطوائف وازدهرت التجارة، وانتقل الناس من مرحلة التسامح الديني إلى مرحلة عدم الاكتراث في كل ما يتعلق بالدين. ووجه القرن الثامن عشر ضرباته تدريجيا ضد الكنيسة الكاثوليكية لأنها تمثل السند الإيديولوجي للنظام الاجتماعي القديم الذي أرادت البرجوازية النامية تحطيمه وإزالته... واستفاد اليهود من كل أوجه هذا التقدم بما أنهم كانوا يميلون إلى ضمان حرية تقدمهم كتجمع ديني.

وإنه لمن الصحيح أيضا بأن التيار العلماني كان يهدف من ناحية ثانية إلى القضاء على هذا النوع من التجمعات. وفي الواقع أن الدولة لعصرية التي تكونت على أساس تقدم ونمو البرجوازية الرأسمالية، والملكيات المركزية كانت تميل إلى هدم تعدد المجتمعات السابقة وإزالة الحقوق الخاصة للجماعات، وأشكال الاستقلال الذاتي الشبيهة بالدولة، وأنماط الدولة داخل الدولة. وقد أدى تعدد الطوائف في بلاد –كانت ملجأ لجميع أبناء الطوائف- كالبلاد الواطئة، وبلاد حديثة العهد يسكنها المهاجرون كالولايات المتحدة الأمريكية، والليبرالية السلمية التي حلت مكان الصراعات الدينية في بريطانيا، والميل إلى مركزة السلطة كما حدث في فرنسا.. والرغبة في التحرر من جميع أنواع الوصاية التي كانت تمارسها روما على النمسا أو هنغاريا.. هذه الأسباب مجتمعة التي التقت مع فلسفة الإشعاع أدت إلى تبلور رأي يعتبر كل مواطن في الدولة على أنه عضو في الجماعة القومية يتساوى مع سائر الأعضاء أمام القانون.. وأصبح الانتماء إلى كنيسة من الكنائس أو إلى دين من الأديان، أو طائفة ما.. مجرد رأي خاص يبرر في أحسن الأحوال الانضمام إلى جمعية حرة.. وبوحي من التقاليد، أصبح لبعض الدول دينها الرسمي ولكن ذلك لم يوفر للذين ينتمون لهذا الدين سوى امتياز محدود، وفقدت الأديان بالتالي جميع صفاتها العرقية، التي كانت موجودة والتي كان كيانها أشبه ما يكون بكيان الدولة...

وطبقت هذه القاعدة على اليهودية، بتردد أكثر وفي وقت متأخر جدا عن الوقت الذي طبقت فيه على مختلف الكنائس المسيحية.. وكان قسم الولاء بوجه عام عبارة عن صيغة مسيحية يقف حجر عثرة في طريق المواطنية الصحيحة والكاملة، ولاسيما في البلدان الانكلو-سكسونية. أما في فرنسا، فقد كانت الصفات العرقية لخاصة التي اكتسبها اليهود «وخاصة في منطقة الالزاس» عبر وجودهم الهامشي الطويل هي الحائل الرئيسي. وفي نهاية الأمر تبددت هذه الاعتبارات.

إذن، لقد سهل انهيار الاستقلال الذاتي الذي كانت تتمتع به تجمعات اليهود على اندماج هؤلاء بالمجتمع الشامل، ما وأن نمو الاقتصاد الرأسمالي وقوته الوحدوية ضمن إطار الأمم الجديدة ولدا ميلا نحو إزالة خصوصيات اليهود واختصاصاتهم الوظيفية المحتملة، علما بأن آثار هذه الأخيرة لم تختف إلا بعد مضي وقت طويل. ولم يبق لدى اليهود أية خصوصية تميزهم عن سواهم من أوروبا الغربية وأمريكا سوى ديانتهم التي كانت ممارسة شعائرها تترك آثارها على العديد من تصرفاتهم. ولكن هذه الممارسة وهذه التصرفات لم يعد يحمي استمرارها وجود التجمع اليهودي، لأن هذا الأخير تحول إلى نوع من الجمعية الحرة. وأصبح من غير الضروري على أي كان لكي يخرج على دين من الأديان –وبالذات اليهودية- أن يتراجع عن إيمانه به ويتحول إلى دين آخر، أو أن يتعرض لإجراءات الحرمان –كما حدث «للمنبوذ» سبينوزا في القرن السابع عشر، وفي ظل الحياة لتي بات يعيشها اليهود –وسط مجتمع راض بوجودهم يعاملهم على قدم المساواة مع سائر المواطنين- أخذ هؤلاء يتبنون قيم هذا المجتمع وعاداته، وبدأ يضمحل طغيان الشعائر وأصبح عدد غير قليل من اليهود غير قادر على احتمالها، لأنها أخذت تبدو قديمة وغير متلائمة مع التطور الجديد، وكما كانت الحال في ظل الحكم الهلليني أثناء التاريخ القديم، وفي ظل الحكم الإسلامي خلال القرون الوسطى، شعر اليهود بأن استمرار تعلقهم بخصوصية نابعة من أوضاع قديمة تحول دون مشاركتهم بصورة فعالة بالحضارة السائدة التي يعيشون في كنفها، واحتفظ بعضهم بإيمان الجدود «كرأي» ديني مع غيره من الآراء، وتخلوا عن الشعائر أو حاولوا تطويعها مع الممارسات الشائعة داخل المجتمع الكبير الذي يحتويهم. وشكك آخرون بهذا «الرأي» الديني، وتحولوا إلى دين آخر، أو تبنوا ضمن إطار المناخ الجديد إحدى الإيديولوجيات العلمانية التي انتشرت أفكارها.

وجدت اليهودية نفسها هذه المرة تسير في طريق الزوال الكامل، وقد حافظت على نفسها في أوروبا لغربية وأمريكا بسبب الموجات الدائمة لليهود القادمين من أوربا الشرقية والعالم الإسلامي حيث بقيت ظروف القرون الوسطى قائمة فيهما: من استقلال شبعه ذاتي للجماعات مع احتفاظ باللهجات واللغات «كما هي الحال مع لهجة اليديش»، ولكن القادمين الجدد لم يتأخروا عن السير على خطى التطور الذي كان أبناء جلدتهم قد تلاءموا معه بحكم إقامتهم الطويلة في تلك البلاد.. فضلا عن أن البلدان التي جاءوا منها –وهي أوروبا الشرقية والعامل الإسلامي- كانت قد بدأت تتأثر بدورها بالرأسمالية الغربية- محطمة الخصوصيات- وأخذت تظهر عليها علامات تشير على أنها ستسير بدورها في الطريق ذاته.

وكان بامكان المرء أن يتنبأ مع الماركسي «الستاليني» اوتوهيلر «بنهاية اليهودية» كنمط خاص للحياة، وأن يتصور بأن عددا من المنحدرين من أصول يهودية سيحتفظون ببعض إيمانهم –ضمن ما يؤمنون به- وأن آخرين بالمقابل سيذوبون داخل المجتمع الكبير كما حدث لكثيرين من أمثالهم في الماضي مع تفاوتات في مستوى التعلق العاطفي بالتقاليد الخاصة التي كان لها مجدها الغابر.. وكثيرون سواهم سينسون حتى الأصول التي انحدروا منها. ولا أدري لماذا اعتبر خط التطور هذا فيما بعد على أنه سيقود إلى الكارثة.

إن الذي حافظ على استمرار اليهودية هي اللاسامية والصهيونية السياسية المعاصرة، التي نجمت عنها –أي عن اللاسامية-. ويبدو لي بأن ليون رأى بوضوح مجموعة العوامل التي ولدت هذه الاتجاهات، ولكن لا يسعني –في سياق هذه المقدمة التي طالت كثيرا- إلا أن أشير إلى بعض الجوانب الغامضة التي أحتوها تأكيداته الحاسمة والقاسية.

وإنني سأكتفي بالإشارة –وبجلاء أسهل عليّ مما كانت عليه الحال قبل ربع قرن من الزمن عندما كان ليون ما يزال على قيد الحياة- إلى أنه «للأسف» قلل من قيمة قوة شعور البحث عن هوية ما لذي دفع بكثير من اليهود إلى سلوك قومي لا مجد ومخرب.

وقد زاد جذور هذا الشعور عمقا الاضطهاد الهتلري الوحشي، والمذابح الهائلة التي دفع ثمنها بالدرجة الأولى اليهود.

وكما حدث في القرن الثاني قبل الميلاد، عندما لعبت دولة الاشمونيين في فلسطين دور المحور الذي جمد جزئيا تحول اليهود المشردين إلى هللينيين، كذلك فإن قيام إسرائيل عام 1848 دفع باليهود في كل مكان إلى الإحساس بالتضامن مما قوّى أو أعاد إليها خصوصية كانت قد أخذت بالانهيار والتداعي لافتقارها إلى الأساس الثقافي والاجتماعي.. وحتى الديني. ولا أعتقد بأن هناك ما يدعو إلى السرور بهذا الأمر.

إن وضع اليهود الراهن الذي يوحي ظاهريا بأنهم المنتصرون في إسرائيل وأنهم قد بلغوا ذروة الشهرة في العالم الرأسمالي.. هذا الوضع هو أكثر مأساوية في ظل هذا المجد مما كانت عليه الحال عندما كان اليهود يعيشون –في معظم الأحيان- في جو يغمره الذل والمهانة. وقد حققت الصهيونية هدفها الرئيسي –الذي هو إقامة دولة يهودية في فلسطين- مستخدمة ومستفيدة من الظروف التي خلقتها القوى الإمبريالية الأوروبية-الأمريكية في شتى المراحل، فاعتمدت مباشرة تارة على هذه القوى، وطورا على تلك..

وكما يقول ليون –وهو أحد الذين حاولوا معالجة هذه القضية- لكن ذلك لم يحل «المشكلة اليهودية» مطلقا، بل على العكس لقد تزايدت خطورتها بشكل لا مثيل له. وكما أعلن عديدون من اليهود وغير اليهود ليس من الثوريين والماركسيين فحسب، وإنما من الليبراليين البرجوازيين أيضا أن الوضع الراهن خلق مشكلة معقدة في العلاقات بين الجالية اليهودية في فلسطين وبين الشعب العربي الذي انتهكت حقوقه الأولية في أن يكون سيد الأرض التي يقيم عليها. وأيد العالم العربي بأكمله بصورة مبكرة حركة الاحتجاج الفلسطينية وكان من المستحيل أن يحدث خلاف ذلك في عهد كانت فيه القومية العربية تمر في مرحلة انطلاقها ونهضتها. وقد سببت سلسلة الاحتجاجات وردود الأفعال التي ولدتها عدة حروب وعدد لا يحصى من الاشتباكات العسكرية الصغيرة وصدامات وحوادث اغتيال فردية وجماعية كثيرة. وإنه لمن السهل أن يتكهن المرء بأن هذا النمط من التطورات والأحداث سيستمر وأننا نتوقع حدوث مآس ذات مدى بعيد في فلسطين في المستقبل.

وقد ولدت المشكلة الفلسطينية والتي توجت بالانتصار المحلي الذي أحرزته هذه الأخيرة موجة من الحقد على اليهود –لا مجال لتلافيها- في البلدان العربية حيث كانت اللاسامية عمليا غير معروفة ومجهولة في السابق. وقد ساعد الصهاينة بصورة فعالة على انتشار هذه الموجة بدعاياتهم المستمرة التي كانت تسعى إلى إقناع الجميع بأن الصهيونية والديانة اليهودية –أي الجانب الوطني فيها- تتماثل فيما بينها. وقد أسهمت المشكلة الفلسطينية في تقوية العناصر الأكثر رجعية في البلدان العربية التي كانت ترغب في إعطاء الأفضلية للمسائل القومية والوطنية –كما يحدث في كل مكان- على حساب التقدم الاجتماعي، وأرغمت حتى العناصر الاشتراكية- العربية على تركيز جزء كبير من جهودها للنضال ضد دولة إسرائيل التي ترى فيها الجماهير –ولديها من المبررات الجدية ما يكفي- تجسيدا محليا للهجوم الإمبريالي العالمي.

ووفر نجاح الصهيونية في فلسطين الفرصة للقوى الإمبريالية كي تستعمل ألف أسلوب لكسب الأرباح الطائلة من الشرق الأوسط سواء كان ذلك عن طريق الدعم والتأييد أو عن طريق بيع أسلحة. وأتاحت ردود الأفعال العربية المجال لإسرائيل استخدام ورقة الوحدة الوطنية –بصورة مماثلة لما جرى في البلدان العربية- لتشجيع أكثر الاتجاهات رجعية وشوفينية.

وهكذا وجد قسم كبير من اليهود في العالم تنفسه هو ويهود إسرائيل يسيرون في طريق مسدود تسوقهم سياسة العدوان الوقائي في النطاق الخارجي، وتحكمهم قوانين التفرقة العنصرية في النطاق الداخلي يرافق كذلك نمو وانتشار عقلية عنصرية وشوفينية تدفع بهم نحو التأخر الاجتماعي.

ولم يقف هذا التعقيد الواسع عند حدود فلسطين أو عند حدود العالم العربي.. بل تعداها إلى أبعد من ذلك، فظروف الحساسية لتي باتت تشمل اليهود في كل مكان على إثر المذابح الهتلرية، جعلت الكثيرين من هؤلاء إما بسبب جهلهم لظروف المأساة الفلسطينية أو بسبب تجهلهم لها، يشعرون بالتعاطف والتضامن عندما كانت تحدث تغييرات فلسطينية تؤدي إلى هزيمة اليهود هناك –أي في فلسطين- أو حينما تظهر تنبؤات –وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان- توحي بهذه الهزيمة.. تنبؤات تغذيها الدعاية الصهيونية «والعربية أيضا وإنما لأغراض تختلف عن أغراض الصهيونية» وتنتشرها على نطاق واسع وكأنها ستحدث بالتأكيد، وستجر مآسي وأبعادا أليمة.

وهكذا.. بينما كانت اليهودية الدينية تسير نحو الطرق المسدودة للديانة العنصرية الموغلة في عنصريتها والتي لم تتخل عنها تماما اليهودية عبر تاريخها، كان يهود العالم بأكمله ينساقون بعيدا عن الآفاق العالمية التي كان كثير منهم يتوجه إليها في مراحل سابقة، وكان التضامن مع إسرائيل يفرض ضمنا التزامات خطرة في حقل الاختيار على مستوى السياسة الدولية.. وكان أخطر ما في هذا التضامن أنه يهدد إلى حد بعيد بإعادة خلق كيان شبه قومي كان في السابق في طريق الزوال والاضمحلال منذ عدة قرون، وهذا ما ولد نوعا من «الشانتاج» الدائم تمارسه الصهيونية على اليهود الذين يرفضون اعتبار أنفسهم أنهم أعضاء في تجمع منفصل عن الآخرين يشعرون تجاهه بالولاء أو الارتباط، ويفرض عليهم –أي على هؤلاء اليهود- الانضمام والقبول باختيارات تحددها في الأرض الفلسطينية مؤسسات لا يملكون عليها أي تأثير.. اختيارات هي في الواقع تتمة لاختيارات سابقة كانت أكثرية اليهود ترفضها في الماضي عندما لم تكن تلاقي مقاومة شديدة.

وكان عمل الحركة الاشتراكية الأممية برمته وأفكارها –وأيضا الإيديولوجية الليبرالية-الإنسانية بصورة غير مباشرة، كما يقول منهايم- يتوجهون نحو تجاوز التناقضات والخلافات القومية. وكان للصراع الطبقي الأفضلية والمكان الممتاز لا لأن المعارك بين الطبقات كانت تبدو مثالا أعلى، ولكن لأنه كان من المعتقد بأنها –أي المعارك الطبقية –باستطاعتها أن تزيل الطبقات وأن تقيم مكانها مجتمع العدل والانسجام العقلاني.

وكان هناك تصور بأنه من الواجب حماية وتحرير كل جماعة قومية مضطهَدة، شرط أن تحارب كل إيديولوجية قومية تعطي الأمة المركز الأول والقيمة الأساسية، كما وأن هذا التصور كان يرمي إلى القضاء على جميع أنواع الصراع بين الأمم الحرة والمستقلة، لأنه لم يكن هناك من يرى كيف أن هذه الصراعات اللامجدية، -وبما تحتويه من هزائم وخسائر ومذابح لا فائدة منها ومن مراحل بعضها يسودها السلام، وبعضها الآخر الأعداد لمذابح أخرى- يمكن أن تقود إلى تعايش متناسق، إلا إذا استطاع المرء أن يتخطى الإيديولوجية القومية، وأن ينذر نفسه ويعبئ جهوده من أجل حل مشاكل التنظيم الاجتماعي.

وإذا كانت الصراعات بين الأمم تؤدي إلى ديناميكية كان عدد كبير من اليهود لا يقبلون بها، فإن الصراعات بين أشباه الأمم التي تنشأ في كنف أمم موجودة تهدد بأخطار أشد من الأخطار التي تخلقها الصراعات الأولى، وبالطبع، يمكن لحركة تقدمية تسعى إلى إعادة التنظيم الاجتماعي أن يستمر وجودها ضمن إطار التنافس مع الصراعات القومية، ويزداد الأمر صعوبة حينما يتعلق بصراعات بين جماعات قومية تعيش في صلب أمة من الأمم، فتعطي الأفضلية على الفور للولاء شبه القومي لفئة ما أو لطبقة من الطبقات الاجتماعية التي يمكن أن تتحول إلى محور تعبئة يطمح إلى مجتمع من نمط جديد.

وهذا ما نشهده الآن في الولايات المتحدة الأمريكية حيث حافظت جماعات قومية لأسباب تاريخية واجتماعية عديدة على نوع من التماسك بين صفوفها في قلب الأمة الأمريكية، وبالدرجة الأولى جماعة السود الذين يشكلون شبه أمة، وهم ليسوا المثل الوحيد الموجود هناك، وان محاولات الصهيونة ومن جاؤوا بعدها لإعادة خلق شبه الأمة اليهودية تشجع على نمو هذه الظاهرة المتأخرة التي تجاوزها الزمن. ويمكن تفسير العداء الذي ينتشر الآن بين السود وبين اليهود في الولايات المتحدة على أنه مقدمة لظاهرة أكثر خطورة، وعلى المرء أن ينظر بجدية واهتمام إلى هذا الاحتمال.

ويمكن أن ينساق اليهود مع التطور بهذا الاتجاه على مستوى اتخاذ موقف معادٍ لاماني ومثل العالم الثالث الذي يمثل العرب جزءا منه بحكم قوة الأشياء، وباستطاعة كل قارئ أن يتصور ردود الأفعال القاتلة التي سيولدها تطور من هذا النوع، ورغبة مني بالاختصار.. أكتفي بهذا القدر من الكلام.

وفي البلدان الشيوعية، أعطت الصهيونة مبررات ممتازة للفئة «أو الطبقة» الحاكمة لكي تتخلى عن مبادئها الإيديولوجية، وتستسلم وتلقي بسلاحها أمام لاسامية جماهيرها.. وأكثر من ذلك لكي تستخدم هذه الفئة أو الطبقة المبررات المذكورة لأغراض ينبغي نعتها بأنها رخيصة..

ففي الاتحاد السوفياتي، أدى التطبيق المشوه –في ظل ستالين- لسياسة القوميات المبنية على مبادئ سليمة إلى الإبقاء والمحافظة على الكيان اليهودي، بدلا من تشجيع اليهود وحثهم على الاندماج. ودفع رضوخ السلطات إلى اللاسامية الشعبية التي زادت من أحقاد اليهود وشعورهم باليأس بهؤلاء اليهود إلى التطلع نحو إسرائيل مبالغ بمثاليتها بشكل لا مثيل له نتيجة جهل اليهود من ناحية، وضرورة هروبهم من الواقع الأليم الذي يحيط بهم من ناحية ثانية.

وقد أسهمت الصهيونية في إيقاظ ذكريات الماضي وجعلها أكثر حيوية، وفي توجه الآمال نحو الخارج –أي إلى خارج البلاد التي يعيش فيها اليهود باتجاه إسرائيل- وفي زيادة حذر السلطات وتغذية مخاوفها بما تحتاج إليه من مبررات، وفي تزويدها بالحجج التي تتلاءم مع ميلها الخبيث إلى إتباع سياسة التمييز العنصري. وهذا ما كانت عليه الحال إلى حد ما –مع بعض المغيرات المحلية- في الديموقراطيات الشعبية.

وضمن إطار الصراعات الراهنة المتزايدة الخطورة داخل كل تكتل يجمع عدة بلدان كتكتل العالم الرأسمالي، أو العالم الاشتراكي، أو العالم الثالث.. وضمن إطار الصراعات الناشبة بين هذه التكتلات، يجد اليهود أنفسهم منساقين بوجه عام تحت تأثير الحركة التي زرعت بذورها الصهيونية نحو اختيارات ومواقف رجعية في كل معنى الكلمة. وعلينا يهودا وغير يهود أن نبذل كل ما في وسعنا لكي نوقف هذا التطور الذي يمكن أن يؤدي إلى عواقب هائلة الخطورة.

ولا فائدة من الترديد بأن «المشكلة اليهودية» سوف تحل ضمن إطار مجتمع مثالي أو عندما تتوفر ظروف وشروط الانسجام الكامل بين الأمم. والآن.. أن كل نظام يقوم على القمع والاستغلال الاجتماعي أو القومي مهما كان شكله لا يمكن أن يقود إلا إلى زيادة خطورة هذه المشكلة حتى ولو استخدم آثار الخصوصيات اليهودية الغابرة. وقد أصبح واضحا للجميع بأنه يجب عدم استثناء الأنظمة القمعية التي تنمو وتتقدم معتمدة على أساس غير أساس الاقتصاد الرأسمالي.

وهذه الملامح إن هي لم تجذب كثيرا اهتمام أو أنظار هواة التعلق بالتراب، إلا أنها تتطابق من جميع النواحي مع القواعد الضمنية والظاهرية لعلم الاجتماع الماركسي.. حتى ولو أن ماركس بدافع من حماسه الإيديولوجي قد نسي هذه القواعد في بعض الأحيان.

ومنطقيا.. إن «المشكلة اليهودية»، أي علاقات التوتر بين اليهود لا يمكن «حلها» جديا إلا باختيار طريقة من اثنتين إذا استبعدنا الحل الجذري الذي وضعه أدولف هتلر: إما بزوال الصفات النوعية المميزة لليهود وباندماجهم الكامل بالمحيط الذي يعيشون وسطه وبنسيان الخصوصية اليهودية، وإما بإقامة مجتمع كامل الانسجام والتناسق. وتشير الدلائل الآن إلى صعوبة تحقيق الحل الأول، أما الحل الثاني فليس هناك على الأقل ما يوحي بأنه سيتم في المستقبل القريب، ولكن من الجلي والواضح أن كل نضال يرمي إلى بناء مجتمع أكثر عقلنة وأكثر عدلا يجعل اليوم الذي يتحقق فيه هذا المثال الأعلى أكثر قربا.. ويمكننا أن نطلب من اليهود ألا يضعوا أنفسهم في الطريق الخاطئ، وألا يحاولوا عرقلة مسيرة هذا النضال.

إن الأوضاع التي كانت قائمة قبل عام 1945، أي خلال المرحلة لتي عاشها ليون، وأثناء الكفاح ضد الفاشستية، كان اليهود من جميع الفئات والميول والاتجاهات عن قصد أو بدون قصد يقفون داخل المعسكر التقدمي، وان اتخاذ هذا الموقف الآن –أي الموقف التقدمي- بات يتطلب ليس فقط الرؤية السلبية والمعادية للرجعية الموغلة في وحشتها، ولكن أيضا الفعل الإرادي الايجابي والواضح، وهذا ما ينبغي أن يحدث.

ومن الزاوية التجريبية، يمكن للمرء أن يتصور وجود تجمع لليهود –يحتفظ ببعض خصائصه العرقية أو شبه العرقية- داخل مجتمع من النمط القومي بكل معنى الكلمة، وذلك خارج نطاق المؤمنين بالديانة اليهودية الذين يعتبرون بأن من حقهم الارتباط بنوع من التكوين الديني، ولكن الطريق الذي اختارته الصهيونية حقق هذا التجمع في أسوأ الظروف وبأسوأ الظروف وبأسوأ الشروط، وكانت له عواقب أليمة تكاد تضعه تقريبا ضمن نطاق رجعي. وكما قيل أن كل محافظة مصطنعة على الملامح النوعية التي كانت تميل إلى الزوال تشجع على الاتجاه نحو اختيارات من هذا النوع. «أي رجعية».

ضمن إطار الظروف الراهنة للنضال الشاق بين جماهير العالم الثالث التي يسحقها الجوع وبين الإمبرياليين الرأسماليين، وفي الوقت الذي تتوجه فيه جماهير العالم الشيوعي نحو اشتراكية ديموقراطية، وفي ظل التوترات الدولية والقومية التي تعم العالم الرأسمالي.. ضمن إطار هذه الظروف، من الضروري أن تبذل الجهود لكي لا تستعمل «المشكلة اليهودية» كأداة تشجيع على اختيار السبل الأكثر رجعية. وأن واجب الجميع أن يحاربوا هذا الاتجاه، وواجب اليهود بالذات أن يعملوا بكل الوسائل والأساليب

لكي يحولوا بين الجماهير اليهودية وبين سلوك هذه الطريق الرجعية، ومما يزيد من ضرورة هذا الواجب الصعوبة التي تحيط به. وأن هذا الواجب يفرض الوضوح والجرأة، وقد أعطانا ليون بسلوكه خير مثال على ذلك.

ويبدو لي بأن هذه الصفحات التي حاولت فيها أن أتمم بعض نقاط التحليل الذي قدمه ليون والتي اعتمدت فيها على وقائع تاريخية لا مجال للشك بصحتها قد جاءت لتؤكد ما ورد في التحليل المذكور. وإنني أترك لأولئك الذين يدعون العلم مهمة المبالغة في الحديث عن هذه أو تلك الثغرة.. وهذا أو ذاك الخطأ التفصيلي الطفيف في كتاب ليون.

وقد استطاع الكاتب –أي ليون- بالرغم من الظروف الراهنة التي كانت تحيط بالمقاومة البلجيكية أثناء الاحتلال الألماني، ومن المصاعب الكبيرة لتي كانت تعترضه بحكم كونه يهوديا «وما يعنيه ذلك هتلريا وصهيونيا»، وبسبب انتمائه للحركة التروتسكية.. وبالرغم من ذلك، استطاع الكاتب أن يجمع معلومات ووثائق غزيرة مكنته من رسم الخطوط الرئيسية «للمسألة اليهودية» بصورة ملموسة وواضحة. وإنه ليستحق التقدير على العمل الذي قام به، أما الانتقادات التي وجهت إليه، فإنها بالرغم مما احتوته من فوائد وآراء عميقة في بعض الأحيان فإن أصحابها لم تتوفر لأي منهم جرأة ليون التي دفعته إلى حد القطيعة المكشوفة مع حركة التنظير اللامجدية.. وقد أدت هذه السلبية.. بل وهذا التواطؤ من جانب أفضل اختصاصيي التاريخ اليهودي تجاه الهذيان القومي إلى نتائج خطيرة في الماضي، وهناك خوف من أن تكون هذه النتائج أشد خطورة في المستقبل.

ربما يكون ليون قد أخطأ أثناء معالجته لهذه أو تلك النقطة.. وربما يكون قد ضاع عن طريق الصواب في فرضياته الخاصة، ولكنه كان على حق في القضايا الأساسية والرئيسية. إن تفسير اليهودية يتم بالتاريخ وليس من خارج التاريخ، ولا حق لها بأي امتياز علمي أو أدبي، ولم يكن هناك أية ضرورة إلهية أو اكسترا –عقلانية لاستمرار وبقاء الدين أو الشعب اليهودي كدين أو كشعب، وان الضرورة الوحيدة التي يسلم بها المرء هي واجب احترام الحقوق الجماعية لكل تجمع ديني أو علماني عندما يكون –هذا المجتمع- موجودا، وليس ضرورة ابدأ المحافظة على هذا التجمع أو إعادة بنائه وتقويته عندما تدفع به العوامل الاجتماعية غير الذاتية «وليس المقصود هنا القوة والبطش والاضطهاد» إلى الاضمحلال والزوال.

وإذا كانت اليهودية أو الشعب اليهودي قد حملا قيما نوعية محترمة ومفيدة، فإن هذه القيم يجب حمايتها بحكم ما تحتويه من قيمة ذاتية بدون الأخذ بعين الاعتبار بالشعب أو بالإيديولوجية اللذين تبنيها. ويجب ولا شك حماية حق كل يهودي سواء كان رجلا أم امرأة بالوجود الفردي أسوة ببقية البشر ضد اللاسامية البربرية، وينبغي تقييم كل بنية يكونها بعضهم –أي بعض اليهود- من خلال ما تحتويه من ايجابيات أو سلبيات.

وقد أدى دائما التعلق بالجماعة، إلى درجة عبادة هذه الجماعة، إلى نتائج لامجدية، لا من الزاوية العلمية ولا من الزوايا المعنوية.. وأن أبراهام ليون سار على خطى الرجال العظام بفكره لا بدمه، وعلينا أن نلتف حول المشعل الذي أورثنا إياه لكي نقطع الطريق على محاولات الرجعية العلمية التي تريد سوقنا في طريق التأخر الاجتماعي.

1968

رد على رودنسون

بقلم: ناثان وينشتوك

... هكذا الكتاب يمثل بشكل ما الوصية الروحية لأبراهام ليون الذي كان قائد المنظمة التروتسكية في بلجيكا أثناء الاحتلال النازي وهو يشهد ببلاغة بقدراته الاستثنائية. ذلك بالرغم من أن المؤلف قد وجد نفسه مجبرا على أن يجمع وثائقه ويكتب مخطوطته في ظروف مزعجة للغاية، وسط نشاط مفرط في خدمة القضية الثورية. رغم ذلك نجح في كتابة مؤلف يعد دون شك بين أجمل زهيرات التاريخ الماركسي.

منطلقا من ملاحظات ماركس الشاب النافذة حول ضرورة البحث عن سر استمرار اليهود في تاريخهم، انشأ ليون مفهوم **الشعب-الطبقة،** كمصوَّر يفسر التاريخ اليهودي. إن الوظيفة الخاصة التي قام بها اليهود عبر تاريخهم هي التي تقدم المفتاح لبقائهم كفريق اجتماعي. إن المؤلف، محللا بالتتابع الدور الاقتصادي لليهود خلال الفترة ما قبل الرأسمالية، ومرحلة الإمبريالية الوسيطة، والرأسمالية المانوفكتورية والصناعية وأخيرا مرحلة الإمبريالية، قد استخلص تغيرات الشرط اليهودي التي تتناسب مع أنماط الوجود المختلفة تلك. إن اكتشاف هذه الدورية Périodisation سمح له أن ينقض ببراعة الموضوعات المثالية المتذرع بها عامة لتفسير التاريخ اليهودي. إنه يجعلنا نشهد مجرى العداء المعاصر للسامية، الذي أحدثه عجز الرأسمالية التي تعاني من أزمة دائمة عن أن تدمج الجماهير اليهودية في أوروبا الشرقية، المستبعدة من مهنها التقليدية تبعا لانحلال الاقتصاد الإقطاعي. إن ليون يقدم لنا أيضا تفسيرا وضاء للآليات النفسية التي تكمن وراء الإيديولوجية الفاشية وللاستغلال الذي قامت به لاستمرار السلوك المكرر الوسيط للمرابي اليهودي بهدف تشويه العداء الأولي للرأسمالية لدى الجماهير وتحويله إلى عداء للسامية. وأخيرا بعد أن يرسم خلفية الوجود اليهودي في أوروبا الشرقية منذ القرن التاسع عشر، يفسر تطور الطوبى الصهيونية من حيث هي إيديولوجية البرجوازية الصغيرة اليهودية المنزوعة الطبقة والمصفاة من الحياة الاقتصادية بصعود الطبقات المتوسطية الأصلية المحرومة من كل أفق مستقبلي في إطار الرأسمالية المتعفنة.

هذا المخطط البارع يظل التفسير الإجمالي الوحيد للمسألة اليهودية. طبعا هو مرتبط بتاريخ، فلقد مر أكثر من ربع قرن على انتزاع ليون بضراوة من المقربين إليه ومن رفاقه. لقد اكتسبت المسألة اليهودية مذ ذاك أبعادا جديدة ومرعبة. إن قارئ اليوم سيتأسف لكون المؤلف لم يستطع أن يحلل نتائج إبادة الجنس على يدي النازيين، وانعكاس الانحطاط البيروقراطي على شرط اليهود في الدول العمالية، وطبيعة دولة إسرائيل. ولكن مناضلين آخرين مسلحين بنتائج أبحاثه سينهون العمل الذي شرع به. لقد أنجزت خطوة عملاقة، وبالنظر لوسع الحقل الذي استصلحه هذا الرائد، يبدو أن المهلة التي تلقى على مكمليه سهلة.

***

إن مكسيم رودنسون وهو يقدم هذه الطبعة الجديدة **للمفهوم المادي للمسألة اليهودية** يحمل إليها ضمانة هيبته العلمية والشخصية. ويسرنا أن نحييه على ذلك. ولكن طوال مقدمته الطويلة ينصب المقدم على نقد مشدود لموضوعة ليون. ومع أنه يقدر أن هذا الأخير قد عرف كيف «**يرسم خاصة بشكل صحيح جوهريا الخطوط الكبرى «للمسألة اليهودية»** ويمدحه «**على كونه أصاب في الجوهري، في الرئيسي»** فهو يصوغ تحفظات مهمة إلى درجة أنها تضع موضع الاتهام صحة مفهوم الشعب-الطبقة كمبدأ مفسر للتاريخ اليهودي.

فلنفهم جيدا: لا شيء غريب أكثر عن اهتماماتنا من أمانة عبثية لحرفية النص. إنه لغير لائق بماركسي أن ينكر البداهة العلمية ويتعلق مرضيا بتصورات متخطاة باسم ما لا يُفهم من «الأمانة» للمؤلف التي تعادل فعليا خيانة لفكره. مع ذلك يهم أن نتفحص إذا ما كانت ملاحظات رودنسون تعدم فعليا استنتاجات ليون. لا شيء من ذلك حسبما نرى. إن تجديد مفهوم الشعب-الطبقة الضروري يتطلب **إعادة شرح** لفكر ليون أكثر مما إلى مراجعته.

فلنلخص أولا انتقادات رودنسون. لقد استنتج معتمدا على كتابات اختصاصيين عدة، أن نظرية الشعب-الطبقة «ذات أهمية بالنسبة للعالم المسيحي الغربي، خاصة منذ الحملات الصليبية، ضمن بعض الحدود (...)». ولكن يرى أن هذا العامل لم يلعب دورا خلال ألف عام (على الأقل) في الشرق المسلم (ص 14). ففي هذه المناطق، كما في الغرب قبل القرن الحادي عشر، لا يلاحظ تخصص وظيفي لليهود: لم يكن كل اليهود تجارا ولم يكن كل التجار يهودا. إن استمرار العرق اليهودي قد يفسر **بتعدد** الدول ما قبل الرأسمالية في الإسلام وفي الغرب المسيحي حتى الحملات الصليبية. إن هذا الطابع «المنفتح» للمجتمعات المتعددة القوميات

هو الذي قد سمح بانتصار «النزعة الطبيعية لدى الطوائف إلى الاستمرار في الوجود والدفاع على المستوى الجماعي عن مصالح وتطلعات أعضائها» (ص 31). لم يحدث إلا في أوروبا الغربية، بدءا بالعصر الوسيط الأدنى أن تحدد بدقة توجه الكثير من اليهود نحو التجارة عامة وخاصة تجارة المال منتهيا هكذا إلى تحويل اليهود فعليا إلى شعب-طبقة.

ماذا ينبغي ان نحكم على ذلك؟

فلنحدد قبل كل شيء مفهوم الشعب-الطبقة الذي يفسره رودنسون في أمكنة عدة بشكل تخطيطي جدا وضيق حتى أن يلامس الرسم الكاريكاتوري.

1- إن ليون وهو يصف اليهود بالشعب-الطبقة لم يكن يؤكد إطلاقا أن كل اليهود **دون استثناء** انطبعوا في فترة من تاريخهم بتخصص وظيفي بقي غير اليهود جميعا في البلاد **ودون استثناء** غريبين عنه. إن الأمر يتعلق بداهة **بقانون ميلي** يسمح بالعديد من الاستثناءات. إن جوهر النظرية بالذات لا يمكن في كل حال في التأكيد أن اليهود كانوا تجارا ولكن في ملاحظة كون الاهتمامات المهنية لليهود كانت تبدو **التجسيد المرئي للاقتصاد النقدي في مجتمع مرتكز أساس على القيم الاستعمالية**. سوف نرى حتى، أبعد بقليل، أن بنية الشعب الطبقة تفترض بشكل متناقض وجود شرائح اجتماعية يهودية أخرى غير تاجرة. ومع ذلك لم ينكر ليون أبدا وجود هذه الشرائح اليهودية غير النموذجية: إن موضوعته هي بالضبط أن تصانيف اليهود المستقلة عن الرأسمال التجاري والربائي كانت **تتجه إلى الذوبان تدريجيا في المجموع على نقيض تلك التي تخصصت في تلك الفروع وحافظت بفضل هذه الوظيفة الخاصة على هويتها كجماعة** (ص 27-28 و61-62 من الطبعة الفرنسية الجديدة).

2- إنه لخاطئ أيضا أن يُسند إلى ليون الرأي القائل أن الوظيفة النوعية لليهود في المجتمع ما قبل الرأسمالي تستتبع أن يكونوا جميعا **تجارا** (أو مرابين). لقد ألح بالعكس على واقعة أنه في الإمبراطورية الرومانية «كانت أكثرية اليهود تتألف بالتأكيد من سواد الشعب الذي كان جزء منه يحصل على معيشته مباشرة أو مداورة من التجارة، كالباعة المتجولين، والحمالين، والحرفيين الصغار، الخ» (ص 56). هذا التحديد رئيسي لأن يهودية الشرق حافظت بالضبط إلى حد بعيد على بنية مهنية مشابهة لتلك التي كانت لدى الجماعات اليهودية في العصر القديم الروماني.

3- لقد وصف ليون تحول اليهود إلى شعب-طبقة -أساس استمرارهم في التاريخ- **كعملية اختيار دائمة** امتدت طيلة قرون عديدة وتجددت وتوبعت باستمرار بعد التخصص الوظيفي البدائي (ص 62-62).

***

فلنتناول منهجيا بعد إيضاح هذه النقاط اعتراضات رودنسون. سوف نتفحص على التوالي ملاحظته المتعلقة بالظهور المتأخر للتخصص الوظيفي، وخلال العصر الوسيط المسيحي بوجود مهن يهودية لا تتوافق مع وضع الشعب-الطبقة، وبالبنية الاجتماعية غير النموذجية لهود بلدان الشرق، وبتفسير استمرار الشعب اليهودي بالطابع المتعدد القوميات للبلدان ما قبل الرأسمالية.

1-**الظهور المتأخر للتخصص الوظيفي**. إن الوصف الطويل الذي قام به غويتين[153] لعملية «تحول اليهود، وهم شعب انصرف حتائذ جوهريا إلى المهن اليدوية، إلى جماعة أصبح اهتمامها الرئيسي التجارة»، وهو تحول سرّعه التطور الاقتصادي للإمبراطورية الإسلامية بعد تمزقها، لا يشكل نقضا لموضوعة ليون، وما أبعد ذلك. إنه على العكس يدعم رؤياه لتشكل الشعب-الطبقة بشكل ملحوظ.

والأمر ذاته يقال عن تحليل بارون[154] لتحول اليهود إلى شعب تاجر أساسا مع هيمنة قوية لتجارة المال، وهي عملية تتابعت عبر قرون للوصول إلى نقطتها الحاسمة في القرن الثاني عشر. هذه الاتجاهات الأساسية التي برزت بالشكل الأكثر وضوحا في المسيحية الغربية **تضيء** بالضبط العملية التي وصفها ليون. فلنضف إلى هذه الأوصاف عن تكون الشعب-الطبقة تأكيدا ثالثا يقدمه ميخائيل ابييوناح[155] الذي درس الاختفاء البطيء لليهودية الفلسطينية وخاصة لمزارعي الجليل، وقد هضمهم الشعب المحيط تدريجيا. فقط الجزء الصغير من الطائفة اليهودية في فلسطين الذي كان يتميز بوظيفته التجارية استمر من حيث هو

---

[153]- س.د. غويتن، اليهود والعرب، نيويورك 1955 ص 115-124. يورد رودنسون ص 30 الطبعة الفرنسية لهذا المؤلف.
[154]- سالو بارون، تاريخ اجتماعي وديني لليهود، ص 150.

[155]- ميخايل افيوناج Geschichte der juden un Zeitalta des Talmu ص 85... ص 133-...

كذلك، بقدر ما كان يبدي الخصائص الاجتماعية-الاقتصادية التي كانت تطبع الطوائف اليهودية خارج فلسطين[156]. إنه لمتناقض في كل حال أن يريد المرء نقض موضوعة ليون وهو يلجأ إلى عملية الاختيار التي تضيء بالضبط تكوّن الشعب-الطبقة.

بالإضافة إلى ذلك يلح المؤلفون المذكورون سابقا على **الإكمال** المتأخر لعملية الاختيار ولكنهم يوضحون أنه بوشر قبل عدة قرون. والحال أن ليون لم يؤكد أبدا أن التحول المهني لليهود قد كان مفاجئا أو في خط مستقيم: فككل قانون اتجاهي ينبغي أن يقيَّم تكوين الشعب-الطبقة عبر الجدلية المحسوسة للتاريخ التي لا تستبعد مسبقا تماوجات متقطعة.

2- **المهن التي لا تتوافق مع فرضية الشعب-الطبقة والتي مارسها اليهود أثناء العصر الوسيط الأعلى في الغرب**. إن رودنسون، مرتكزا على أعمال برنهارد بلومنكرانز[157]، يعترض إطلاقا على التخصص الوظيفي لليهود خلال هذه الفترة من التاريخ. فلنلاحظ ونحن عابرون أن دراسة حديثة لمؤرخة هولندية، مرتكزة على مصادر ذات أهمية رئيسية، تؤكد في الجوهر البنية الاجتماعية الخاصة لليهود الغربيين عبر الفترات الميروفنجية والكارولنجية[158].

ولكن في الواقع أن أبحاث بلومنكرانز بعيدة عن أن تعرض الطابع الحاسم الذي يعيرها إياه رودنسون. فحسب التعداد الذي اتبعه هذا المؤلف بذاته، كانت المهن التي مارسها اليهود في تلك الفترة في الجوهر ذات طبيعة (باعة، تجار، أصحاب مشاريع حرفية، مقرضون برهونات، مجهزو سفن، تجار عبيد، صاغة)[159]. بيد أن المرء يتبين في لائحة الاهتمامات التي يقدمها بعض المهن التي يبدو أنها تقلل من صحة موضوعة الشعب-الطبقة. فلنذكر حالة اليهود الفقراء في صقلية، وقد كانوا غالبا أكارين صغارا – ولكن، يوضح بلومنكرانز[160]، وهذه الملاحظة هي أساسية بشكل واضح، أنهم تحولوا بسرعة إلى المسيحية، وهكذا تظهر **صحة** نظرية ليون حول استيعاب الشرائح التي تفقد وظيفتها النوعية- وكذلك حالة اليهود الكرامين أو الملاكين الأرضيين.

فيما يختص بالملكية العقارية، لاحظ ليون أن الأراضي التي كانت ملكا لليهود كانت تشكل أساس ثمرة عمليات مضاربة ذات طبيعة **ربائية أو تجارية**[161] وأن الملاكين الأرضيين اليهود الحقيقيين لم يكونوا يتأخرون في الاندماج فاقدين ملامحهم النوعية (ص 75-76). أما بالنسبة للمزارعين اليهود والكرامين على الأخص، فسوف نعود إلى حالتهم للتو.

3- **البنية الاجتماعية غير النموذجية لليهود الذين يعيشون في البلدان الإسلامية**. دون أدنى شك، تمثل البنية المهنية المتنوعة للطوائف اليهودية في الشرق، التحدي الرئيسي الذي يطلقه رودنسون ضد صحة مفهوم الشعب-الطبقة. إن معظم الأبحاث العائدة اليهودية الفردية قد نشرت منذ الحرب العالمية الثانية بحيث أن ليون لم يستطع الإطلاع عليها. إنها تشير إلى أن التجمعات السكنية اليهودية في بلدان الشرق تتميز أساسا عن الطوائف الإسرائيلية في الغرب بالأهمية الاستثنائية للعمل الحرفي، وهو سمة خاصة باليهودية المتوسطية على العموم[162].

المقصود إذا هو أن نتفحص دور ومعنى هذه الشريحة الاجتماعية اللذين جهلهما معظم المؤرخين. فبمجرد الاجتهاد في استخلاص بنية هذه الحرفية اليهودية، يتميز المرء بسهولة ثلاثة مجموعات من المهن المتباينة:

-إن المجموعة الأولى تتألف من اتحادات حرفية **يسد أعضاؤها مباشرة الحاجات** الداخلية للجماعات اليهودية (الخبازون، والطحانون، واللحامون، والحلاقون الخ) وتبدو لا غنى عنها للحفاظ على الجماعة ولسير عملها بالذات[163]. إننا نرى أن

156- المرجع المذكور ص 273.

157- برنهارد بلومنكرانز، اليهود والمسيحيون في العالم الغربي 430-1096 باريس 1960.

158- ليادسبرج باريس 1965 ص 93-...

159- انظر بلومنكرانز، الكتاب المذكور ص 30-32 و335. انظر أيضا للمؤلف ذاته، المؤلفون المسيحيون اللاتين في العصر الوسيط حول اليهود باريس 1963 ص 74 حاشية 6.

160- بلومنكرانز، اليهود والمسيحيون... ص 32، انظر أيضا ورنر كهنمان، دور ومعنى الطبقة الحرفية اليهودية «الصحيفة اليهودية في علم الاجتماع» جزء 7 عدد 2 كانون الأول 1965 ص 209 و211.

161- هذا ما يؤكد بارون في مؤلفه المذكور جزء 4 ص 13.

162- كهنمان، دور معنى... ص 209 خاصة.

163- المرجع المذكور ص 213. انظر بارون، المرجع المذكور له، جزء 4 ص 157-158، 164.

رودنسون مخطئ في الافتراض أن مفهوم الشعب-الطبقة يستبعد بالتحديد تعايش اهتمامات غير تجارية داخل العرق اليهودي. ربما ينبغي أن ندخل في هذا التصنيف الخمارين (الأهمية الطقسية للخمر) مع أن هذه المهنة مرتبطة بالتجارة العالمية وبالبيروقراطية الطائفية (الكتبة والكهان الخ)[164].

-**تشتق المجموعة الثانية مباشرة من النشاطات التجارية الخاصة بالشعب-الطبقة** الذي تمثل امتداده الطبيعي. إن الحرفيين أعضاءها يتمتعون عامة بوضع متميز: صاغة، جوهريون، شغيلة الحرير والصناعات الضخمة[165]. إن الأمر يتعلق إذا بيد عاملة تحصل مباشرة على معيشتها من النشاطات التجارية الرئيسية.

يمكن أن نستعيد هنا بدراية الصورة التي يرسمها رودنسون لطائفة تتركز حول أعضاء يمارسون نشاطا تجاريا، دون أن نرى معه استثناء لنظرية الشعب-الطبقة (ص 38).

إن السلسلة الأخيرة من الاهتمامات هي التي تتعلق **بالمهن الدنيا**، بالقطاع الحرفي الهامش الناجم عن **انحطاط** الوضع التجاري اليهودي السابق، كما في اليمن. هذا الانحطاط يذكر بغرابة بمصير اليهود المنزوعي الطبقة في أوربا الغربية في أواخر العصر الوسيط لمامو الخرق، الباعة المتجولون، الصباغون... (لبون 87-89). نلاحظ هنا حالة خاصة من **الطبيعة البيفرجية** interstitielle للنشاط الاقتصادي اليهودي –تجسيد الرأسمال في مجتمع ذي هيمنة زراعية- تنبع دون ريب من الوظائف الوسيطة التي شغلها الشعب-الطبقة[166]. فلنتذكر الوصف الماركسي لليهود البولونيين الذي كانوا يعيشون في **مسام المجتمع**.

إن الحركة اليهودية، مأخوذة في مجملها، كانت تعود بالطبع إلى الطبقات المتوسطة اليهودية الواقعة بين الأرستقراطية والطبقات الكادحة[167]. يمكن اعتبارها كما لو كانت مباشرة أو مداورة خاضعة للنشاط التجاري التجاري، وفقا للوصف الذي تركه لنا ليون عن الجماهير اليهودية في الإمبراطورية الرومانية. بالإضافة إلى ذلك كان معظم الحرفيين اليهود تجارا صغارا يبيعون منتوجاتهم للمستهلك ويدينون زبائنهم. كانوا يشابهون هكذا إلى حد ما المقرضين برهن[168]. أخيرا، يشير كهنمان[169] إلى أن جميع الحرفيين دون استثناء كانوا في خدمة مستخدمين يهود، وهذا يظهر استيعابهم في دورة اقتصادية نوعية وكذلك الطابع الهامشي لنشاطهم. هكذا لا يناقض تنوع المهن اليهودية **خصوصية وظيفتهم الاقتصادية**، فلقد كانت اليهودية الشرقية تشكل دون شك شعبا-طبقة **ذا تمايزات** ولكن في كل حال شعبا-طبقة. فلنعترف مع ذلك أننا نواجه بوضوح حالة حدية.

إن وجود طبقة من المزارعين اليهود في بعض العهود لا يلغي أبدا صحة هذه الموضوعة، مع أن ينبغي الحرص على عدم خلطهم **بالاكارين** اليهود الذي لا يستنتجون أرضهم بالذات –وهذه هي الحالة الأكثر ورودا[170]- والذين يثبت نمط وجودهم أن الملكية العقارية اليهودية تنتج عن مساومات تجارية. إن المزارعين اليهود بالفعل لم يكونوا فلاحين عاديين. لقد كانوا يتخصصون في إنتاج الخمر والحليب والبقول والأثمار، وهي **أشكال زراعية مرتبطة بإحكام بالاقتصاد المديني، تتطلب استثمارات مهمة في الرأسمال وتتوجه نحو التبادل[171]**. ولأن هذه الزراعة المكثفة كانت تندمج بالاقتصاد النقدي، كانت الاستثمارات تقع في كل حال على تخوم المدن الوسيطة وأحيانا كذلك داخل المدينة.

ها نحن أولا مع ذلك بعيدا عن الزراعة الإقطاعية المرتكزة رئيسيا على القيم الاستعمالية! أما الزراعة اليهودية التقليدية السابقة لعملية الاختيار التي حولت اليهود إلى شعب-طبقة فهي لم تفتأ تنهار منذ نهاية العصر القديم إلى أن اختفت مع صعود الإسلام[172].

164- بارون، المرجع المذكور جزء 4 ص 215.

165-المرجع المذكور ص 211 وكهنمان، دووهن... ص 213.

166- كهنمان، دور ومعنى.. ص 215 وما يتبع.

167- المرجع ذاته ص 219

168- المرجع ذاته ص 216.

169- المرجع ذاته ص 216.

170- بارون، المرجع المذكور له ص 155.

171- حالات مميزة للزراعة اليهودية أشار إليها بارون بوضوح في مؤلفه المذكور ص 29 وخاصة ص 162.

4- شرح استمرار الشعب-الطبقة على أساس الطابع المتعدد القوميات للدول ما قبل الرأسمالية.

أخيرا، لا يمكننا الامتناع عن الشعور ببعض الخيبة عند قراءة التفسير القليل الإقناع الذي يوحي به رودنسون بالنسبة لبقاء اليهود في المجتمعات ما قبل الرأسمالية. إن جو التسامح الخاص بالدول البربرية المتعددة القوميات يفسر دون شك غياب الضغط الديني نسبيا (وإن كان هذا التحليل يذكر بذلك الذي يتناول ميزة الأفيون التنموية). ولكنه لا يقدم إطلاقا مفتاح استمرار العرق اليهودي عبر العصور –بعكس شعوب العهد القديم الأخرى- وكذلك الحال مع حجة البنية الاجتماعية الخاصة. يمكن أن يندهش المرء أن يكون المقدم، وهو مستشرق ممتاز، لم يتساءل حول التوازي الواضح بين استمرار الأقلية اليهودية واستمرار الأقباط أو المسيحيين النسطوريين. إن هذه المقاربة توحي بأن التفسير الصحيح للظاهرة يكمن في **تعميم** نظرية الشعب-الطبقة، بشكل يدخل في حقل تطبيقها مجمل الأقليات الاجتماعية-الدينية أو الطارئة التي تقوم بوظائف اقتصادية وسيطة داخل المجتمعات ما قبل الرأسمالية.

إن أحد الأمثلة الأكثر نتوءا على فائدة مد المفهوم الذي وضعه ليون إلى جماعات عرقية أخرى هو مثل صيني آسيا الجنوبية الغربية[173]. لقد انصرفوا كالتجار اليهود في العصر الوسيط إلى تجارة الأصناف الفاخرة، وكاليهود أيضا شكلوا في مدن الشرق الأقصى جماعة تجار ومرابين... ومع نمو طبقة برجوازية من أهالي البلاد الأصليين، كان عليهم أن يجابهوا هم أيضا تدابير حكومية قمعية (اندونيسيا، الفيليبين، بيرمانيا، الخ). وحتى مذابح حقيقية (اندونيسيا). وانه لمعبر أن تكون الزراعة التي مارسها الصينيون في الخارج، في ماليزيا مثلا، إنما تتجه نوعيا على المنتوجات ذات الإنتاجية المرتفعة المخصصة إلى الدورة التجارية المدينة.

***

هذه الاعتبارات لا تستنفد الموضوع بالتأكيد. لقد حاولنا فقط أن نظهر أن الوقائع المتذرع بها بمواجهة نظرية الوظيفة النوعية الخاصة باليهود ممثلي الرأسمال التجاري في مجتمع قائم على الاقتصاد الطبيعي، حرية بأن تدمج في مفهوم الشعب-الطبقة. لا يمكن المرء إلا أن يعترف لرودنسون بالجميل كونه أطلق من جديد بمقدمته اللامعة لكتاب ليون نقاشا سيغني الماركسية دون جدال.

---

[172]- المرجع ذاته ص 151 و164.

[173]- انظر لويس ميتشيسون The overseas لندن 1961.

فهرست